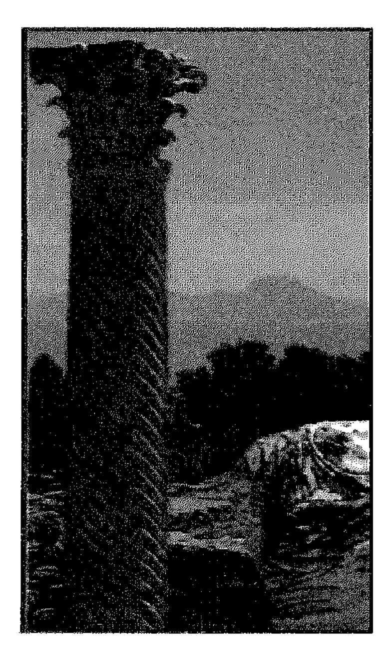
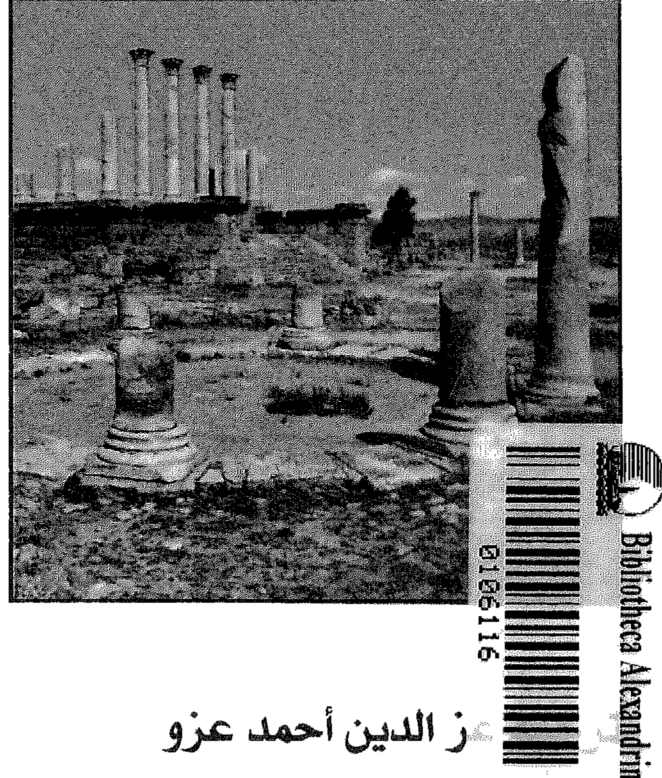
فرانسوا ديكريه

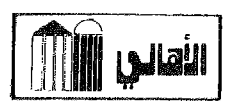
قرطاجة

أو

امبراطورية البحر







ز الدين أحمد عزو



قرطاجة
أو
امبراطورية البحر

* قرطاجة أو امبراطورية البحر

* فرانسوا ديكريه ، ت : عز الدين أحمد عزو

* الطبعة الأولى - ٧ / ١٩٩٦

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - هاتف : ٣٣٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تلكس : ٤١٢٤١٦

فاكس : ٣٣٣٥٤٢٧

* التوزيع :

قسم التوزيع - الأهالي للنشر والتوزيع

دمشق - هاتف : ٢٢١٣٩٦٢ - ص.ب : ٩٢٢٣ - تلكس : ٤١٢٤١٦

فاكس : ٣٣٣٥٤٢٧

فرانسوا ديكريه

قـرطـاجـــة
أو
امبراطورية البحـــر

ترجمـــة

عز الدين أحمد عزو

مراجعة وتحقيق

الدكتور عبد الله الحلو



تقديـــم

لا أظن أني أبتعـد عن الـواقـع إذا قلت أن الأبحـاث التي ظهرت في سوريا، والتي تتنـاول تاريـخ الكنعانيين عموماً والقرطاجيين خصوصاً على مدى عدة عقود من الـزمن هي من النـدرة بحيث تعـد على أصـابـع اليـد الـواحدة، ولنقل حسب التعبير المعروف: كندرة المطر في الصيف. وأبرز مايمكن ذكره منها كتاب جورج مصروعه بعنـوان «هنيبعـل» الـذي صدر في بيـروت بين عامي 1959 و 1960 والذي يعتبر بحق عمـلاً جديـراً بالتقدير. ثم كتاب أسد الأشقر «الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط» وهو القسم الثاني من الجزء الأول من سلسلة «تاريخ سوريا» والصادر أيضاً في بيـروت سنـة 1980، وليست بي حاجـة للتفصيـل في أمـرٍ يدركه الكثير من القراء بلاشـك، وهـو أن مكتبـات الدول الأوروبية مثلاً تحتشد في رفوفها آلاف الكتب في تاريخنا القديم، ونتيجة لذلك نلمس بأنفسنا أن الفرنسي أو الإيطالي أو الألماني مثلاً لديه من المعرفة عن ماضينا وتراثنا أكثر مما لدينا نحن.

ما من أحد ينكر أن المعرفة هي الأساس في اكتمال البنية الفكرية والاجتماعية وبـالتـالي صقـل الشخصيـة القـوميـة. وليس المـراد هنـا أن نعرف شيئاً عن المطبخ الصيني أو المطبـخ الفـرنسي . . . أو الفـولكلور الاسبـاني . . . إلـخ، إنمـا الأهم والأساس في ذلك هو ـ معرفة الذات قبل معرفة الآخرين ـ هذه المعرفة التي تفصلنا عنها هوّة عميقة. إن من المفارقات الغريبة أن يكون أسلافنا الكنعانيون (والآراميون

وغيرهم) قد ماتوا عندنا منذ عهد بعيد وطواهم النسيان، بينما هم مايزالون أحياء عند الأمم الأخـرى. . . أحيـاء من خلال آثـارهم ومـاأخـذتـه هذه الأمم عنهم من علم وحضـارة إنسـانيـة. . . أحيـاء من خلال المؤلفـات التي لاتحصى، والتي تتنـاولهم بالدرس والتفصيل. . . أحياء حتى من خلال بعض الاستعمالات في الحياة اليومية الحاضرة.

ولا أحسبني أخـرج عن الحقيقـة إذا قلت أن ماأثـار حمـاس واهتمـام بعض الأميـركـان في القـرن المـاضي من وجـود اثـار في قارتهم تشيـر إلى الكنعـانيين قبل كولـومبـوس بألفي سنــة، كان بالـدرجـة الأولى شعـورهم الخفي بالافتقـار للعمق التاريخي الحضاري، وأنه ليس لديهم مايعتزون به سوى المال والحديد. . . وأن الأمم التي كانت ومـازالت عظمى في أوروبـا، والتي أفـرغت بلادنـا من أروع ماكـان فيها لتكـدسـه في متـاحفها وتتباهى به، ولم تكفّ عن ذلك بشكل أوبآخر، هذه الأمم لم تزل رغم عظمتهـا تسبـر ماوراء الحجـارة والصخور وماتحت الأتربة في أراضيها علّها تكشف عما يبعث فيها اعتزازاً بماضي يُذكر. . . إنه لمن الإنصاف أن أقول أن هذا الكتاب عندما قُدم إليّ لمراجعته وجدته كقطرة الماء على الأرض العطشى، سواء في ذلك العناية التي أولاه إياها المترجم أو البحث العميق الذي توخاه المؤلف في فصوله.

إن العبـارات التي أخـذها المؤلف عن الشاعر الفرنسي «بول فاليري» مفتتحاً بهـا كتـابـه. . . «ونحن أيتهـا الحضـارات نعـرف أننا إلى زوال. . . فكم سمعنا عن اختفـاء عوالم كاملة وعن امبـراطوريات غرقت بأهلها وألغازها! . . . ونعرف أيضاً أن كل هذه الأرض التي أمامنا إنما صنعت من رماد، وأن هذا الرماد إنما يدل على شيء ما. . . ولمحنا عبر ضباب التاريخ أشباح السفن الضخمة حاملة معها الغنى والفكر. . . ».

هذه العبـارات جعلتني أعـود بالـذاكـرة ثلاثين سنـة للوراء عندما كنت لا أزال طالباً في المدرسة، وكنت إذ ذاك قد طالعت كتيباً للدكتور كمال الطويل عنوانه «قصة الكفـاح بين رومـا وقرطاجة. . أروع مأساة عرفها تاريخ البشرية». ومازلت أذكر كيف

كانت مشاعري لدى مطالعته ترسم خطاً بيانياً غريباً من نوعه، يرتفع عالياً مع فصول القوة ليعود فينهار مع الفصول المظلمة، وإن من يطالع هذا الكتاب الذي بيدي، والذي دعاه صاحبه «قرطاجة... امبراطورية البحر»... هذه الحقبة المذهلة من تاريخنا القديم... ويتمعن في تلك النهاية الفريدة في تاريخ الأمم، قد يحسّ في قرارة نفسه ذلك الخط البياني الذي وصفته، ولكنه سيكتشف بالتأكيد أنها «أروع مأساة عرفها تاريخ البشرية»..

إن نشوء الامبراطوريات وازدهارها ثم اضمحلالها أمر مألوف في التاريخ بكل مراحله ولكنه هنا مختلف تماماً، لقد عرفت بلاد الرافدين عصر الامبراطوريات الذي كانت تنهار فيه قوة عسكرية سياسية أمام قوى أخرى تخضعها وتحل محلها، كانهيار الامبراطورية الآشورية ثم البابلية الحديثة أمام قوة الامبراطورية الفارسية، وانهيار هذه فيما بعد أمام امبراطورية الاسكندر، ثم اضمحلال هذه أيضاً، لتسيطر الامبراطورية الرومانية بعد ذلك....

غير أن امبراطورية القرطاجيين تتميز في التاريخ كله بأنها زالت من الوجود دولةً وشعباً بعد سقوطها أمام الرومان... زهاء سبعة قرون من البناء والفن والانتاج والتجارة والحروب... حكم عليها بالفناء التام والصمت المطبق، لتعود الأرض من جديد فتكشف عن موجوداتها التي تنطق بالقليل القليل عما كان في قرطاجة.... سيدة البحار... وإنها لَعِبْرة حقاً..

د. عبد الله الحلو



صورة جوية شاملة لمدينة «قرطاجة»

مقدمة المترجم

تحتل المواجهة الدامية بين قرطاجة وروما مكاناً بارزاً في تاريخ الحضارات القديمة، فلقد انتهت بحدثين خطيرين كان كلُّ واحد منهما ناتجاً بالضرورة عن الآخر. إبادة حضارةٍ وإفناء شعب من جهة، ومن جهة ثانية انبعاث حضارة أخرى وارتقاؤ ها إلى مصاف الامبراطوريات . . .

ومايلفت النظر، ورغم المعاني الخطيرة التي حملها انهيار قرطاجة تحت ضربات الغازي الروماني، إن هذا الأمر لم يأخذ حقه في التحليل والبحث منا نحن، أخلاف أولئك الذين حاولوا أن يجابهوا المارد القادم من أوروبا، في حين أن قرطاجة، وهانيبعل على وجه الخصوص، مثلت في الفكر الغربي، ولاتزال، دلالة على أول تحدٍ حقيقي جابه نهوضه.

«لقد كان ذنب قرطاجة أنها كانت عظيمة في وقتٍ بدأ شأن روما فيه يرتفع» هكذا يقول «فرانسوا ديكريه». ويحق لي أن أُضيف أن ذنبها، وهذا سبب انقراضها، هو أنها عاشت طوال تاريخها المديد تحكمها نفس المفاهيم والعادات والتقاليد التي حملها معهم روّادها الأول، حتى أصبحت لهذه المفاهيم والعادات والتقاليد صفة القداسة والجمود في عالمٍ متحرك دائم التطور. «وإذا كانت قرطاجة في حقيقتها الحضارية حلقة من حلقات الحضارة الكنعانية السورية، فإنها مع ذلك لم تكن حلقة خلّاقة في فكرها السياسي، إذ أنها صُبّت في قالب صوري الأصل، وظلت

وفيـةً، حتى ساعـاتها الأخيرة، لذلك الأصل»(*). لقد تغافلت طوال تاريخها عن شدّ المدن الكنعانية المنتشرة في شمال أفريقيا وسواحل المغرب واسبانيا وجزر المتوسط الغـربي، في ربـاطٍ يصهـرها ضمن دولة موحدة الأهداف والمُثل . . . لقد بقي هناك قرطـاجيـون، ونـوميديون ومغاربة وليبيون . . . كلٌ يحارب في سبيل مُثل عليا خاصة وأهـداف مختلفـة . . . بل ومتناقضة أحيانا. وفي نهاية المطاف، أصبحت قرطاجة ـ المـدينـة تواجـه وحـدها، بعد انفضاض المدن التابعة لها عنها، تواجه روما ـ الدولة التي كانت قد تمكنت من توحيـد مدن شبـه الجـزيـرة الإيطالية تحت راياتها. وهكذا يعكس بالفعـل الـوضـع السيـاسي الـذي كان يسيطر على كنعانيِّ الساحل السوري الـذين كانت مدنهم غالبـاً ماتتعـرض منفردة لغزوٍ خارجي دون أن تشكل قوة أو ائتلافاً إلاّ ماندر.

لقد كانت قرطاجة عند نشوئها بنت ألفي سنة، وكانت على عراقتها الحضارية تحمـل في طيـاتهـا معـاني التحجر في الفكر السياسي، «إن انتصاراتها لم تفجّر في فكـرهـا صيغـة قومية متجـددة، في حين أن رومـا، البـدائيـة في مستـواهـا الثقافي والحضاري، في أساليب زراعتها، كانت تنمو وتتطور وتكتشف نواميس الحياة وتسير نحـو وحـدتهـا الاجتمـاعيـة والقـوميـة. على السـاحل الأفريقي الشمالي وفي غرب المتـوسـط، كانت قرطـاجة منفلشةً دون أن تكون لها قاعدة قومية في الوطن الأم، أو قاعدة محلية أفريقية تشدّ الكنعانيين في وحدة تجعلـهم أقوى قـوة في غرب المتـوسـط»(*). إن الحـرب التي شنهـا هانيبعل على روما تعتبر «منعطفا تاريخياً لنمو الإنسـان . . . فالتجـربـة الصعبة التي زُجّ فيها الرومان أثبتت أن الوحدة الشعبية التي صُنعت في الفـوروم ومجلس الشيـوخ كانت متفوقة على القوة المنبثقة عن العلاقات العائلية وحتى من قِدرة الفرد العبقري . . . »(**).

---

* أسد الأشقر، الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي ـ الجزء الأول، القسم الثاني (الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط) ص 40 ـ منشورات مجلة فكر ـ ط ١، بيروت 1980 .

** ج . ب . بيكر، هانيبعل، ص 297 - 303 .

إن مابين يدينا هي الطبعة الثالثة من كتاب الاستاذ «فرانسوا ديكريه» [قرطاجة أو امبراطورية البحر]، وكان دافعي لنقله إلى العربية هوماذكرته سابقاً من قِلة المصادر التي توجد في مكتباتنا عن تلك الحضارة العظيمة.

يعترف المؤلف في مقدمة كتابه أن معظم المؤرخين تناولوا تاريخ قرطاجة من زاوية علاقاتها بروما وحروبها الثلاث معها، ولم يدرسوها ويبحثوا فيها كحضارة أصيلة وكامتداد لحضارة الفينيقيين الذين كانوا قد عمّروا الشاطيء السوري قبل قرطاجة بألفي عام. وبنتيجة ذلك أتت معظم البحوث منقوصة شوهاء، وأكثر من ذلك، كانت في معظمها متجنية على قرطاجة وشعبها، لاسيما أن معظم المراجع المعتمدة حتى وقتٍ قريب كانت إغريقية أو لاتينية، مما يفقدها صفة الموضوعية.

لقد اعتمد الأستاذ «ديكريه» على مصادر قيمة لإنجاز عمله، فإضافة إلى الوثائق الآثارية التي أصبحت عديدة في هذه الأيام والمراجع التاريخية لعلماء مشهورين في هذا المجال، يقوم مؤلفنا بإجراء مطابقة بين ماكتبه المؤرخون القدامى، الرومان والإغريق، وبين اللقى الأثرية المكتشفة حالياً. وهوإن نجح في بعض الأحيان، إلا أنه لم يتمكن من أن يجعل ذلك سمة أساسية في عمله، إذ لاتزال توجد أبحاث عديدة، مثل «رحلة حنون البحرية» بحاجة إلى شواهد مادية تقدم عنها التفاصيل، كما أن الباحثين في الآثاروالتاريخ القديم لايزالون ينتظرون حتى اليوم أن تكشف الصحراء الأفريقية عما يشير إلى تلك المدن التي بادت والتي تجمع المصادر القديمة على أنها لاتقل عن ثلاثمائة مدينة، كان قد أسسها الفينيقيون في افريقيا وعلى سواحلها الغربية.

وخلال استعراض فصول هذا الكتاب بشكلٍ عام، لوحظ أن المؤلف ربما تقيد مسبقاً بخطةٍ هدفها الاختصار، إذ أن تاريخ قرطاجة، وخاصة في المرحلتين الثانية والثالثة من الحروب البونية، كان يمكن أن يكتب فيها الشيء الكثير، إلا أننا لمسنا اختصاراً إلى حدٍ بعيد، وخصوصاً في الفترة المتعلقة بتشرد «هانيبعل» ومابعده، والحرب البونية الثالثة التي انتهت بزوال قرطاجة.

هذه الحقبة الطويلة الصاخبة المتعددة الألوان من حضارة وحرب، والتي

تجمع المصادر على أنها قاربت سبعة قرون منذ نشأتها حتى زوالها، استطاع المؤلف اختصارها في هذا الكتاب وتوزيعها في سبعة فصول، بدأها بلمحة عامة عن قرطاجة، منتقلاً بعدها إلى مدخلٍ مسهب في تاريخ الكنعانيين ووصف عام لطبيعة الساحل السوري. وتحدث في الفصل الثاني عن بدايات قرطاجة موردا الإسطورة الكاملة عن مؤسستها الملكة «إليسار» ومنشأة هذه المدينة التي مالبثت أن برزت في قوة الامبراطوريات، إضافة إلى وصفٍ دقيقٍ لمرافئها ومبانيها العامة. وفي الفصل الثالث يتحدث الكاتب عن الحياة العامة بمختلف جوانبها السياسية والإدارية والاجتماعية ويصف بإسهاب، معتمدا على «أرسطو»، دستور قرطاجة الشهير في تلك الأيام، وينتقل الكاتب بعدها للحديث عن الجيش القرطاجي الذي صنع أمجاد الامبراطورية، ليسهب بعدها في الحديث عن مجالات الحياة المختلفة التي مارسها أهل البلاد من زراعة وفنون وصناعة. . . وفي الفصل التالي، يبرز مرحلة التوسع القرطاجي في أفريقيا والبحر المتوسط والرحلات الطويلة التي قام بها بحارة قرطاجيون سعياً وراء الثروة في شمال المحيط الأطلسي وجنوبه. منتقلاً بعدها إلى التفصيل في ديانة القرطاجيين. وتتجلى في الفصول التالية روعة الحقبة الدامية في تاريخ قرطاجة وتنازع البقاء بينها وبين روما، وكل ماتخلل ذلك من محاولاتٍ للهدنة والوفاقات التي كانت سرعان ماتنهار أمام طموح الجانبين للسيطرة على المكانة الأولى في العالم القديم، إلى أن يصل الكاتب في وصفه لتلك الكارثة النهائية التي بدأت بما اعتبره الرومان «الحل النهائي»، حيث زالت «سيدة البحار» من الوجود.

إنها محاولة منا لإبراز صفحة لامعة قاتمة من تاريخنا المجيد، وعسى أن نكون قد وُفقنا في تقديم الكتاب بشكل يفي الغرض منه.

عز الدين أحمد عزو

آذار 1992

وقفـة في قرطـاجـة

. . . «ونحن أيتهـا الحضـارات نعـرف أننـا إلى زوال. فكم سمعنـا عن اختفـاء عوالم كاملة، وعن امبـراطـوريات غرقت بأهلها وألغازها! . . . ونعرف أيضاً أن كل هذه الأرض التي أمـامنـا إنمـا صنعت من رمـاد، وأن هذا الرماد إنما يدل على شيء ما . . . ولمحنا عبر ضباب التاريخ أشباح السفن الضخمة حاملة معها الغنى والفكر. . . . »[1].

إن وجـدت حضـارة قديمـة تجعلنـا نتـذكـرها تلقائياً حينما نقرأ ماكتبه الشاعر الفـرنسي «بـول فاليـري»، فإنما هي بالتأكيد تلك الحضارة التي تولدت منها قرطاجة وامبراطوريتها، هذه الحضارة التي غيبتها لجة التاريخ.

ولـدت هذه الحضـارة فعـلاً قبـل حوالي ثلاثة آلاف عام، لترث تاريخاً فينيقيا وُجـد قبلهـا بآلاف السنين. فمـاذا بقي اليـوم من تجـوال سفنها؟ . . . وماذا بقي من بصمـات ذلـك الشعب الحـذر والمغـامـر في آن واحـد، والـذي اقتـدى برواده البحريين؟ . . . حتى أن يد الفناء طالت آلهته أيضاً.

وضمن مايُطلق عليـه تسميـة «العصـر القـديم الكـلاسيكي» لايحتـل المصير الفـريـد لقـرطـاجـة سوى مكـان ضئيـل، وعلى كل حال فإن تاريخنـا يُفـرد بعض الصفحات عن ذلك عند الحديث عن الغزو الروماني الذي يُسمى «الحروب البونية»(*).

* مشتقـة من اللفظـة الـلاتينيـة «Poeni» أو «Poenic» التي استخدمها الرومان للدلالة خاصة على ←

إن هذه المـواجهـة المأسـاوية التي دارت حوادثها المفاجئة في القرنين الثالث والثـاني قبـل الميـلاد، تظهـر لنـا بمـا فيه الكفاية مقدار قوة هذا المتروبول الأفريقي ومنـاهـل الحضـارة القـرطـاجيـة. بيـد أن هذه القـوة كانت تقترب من نهايتها، إذ أن مصادرها كانت في طريقها إلى السقوط بين يدي منافستها «روما».

لقد كان ذنب قرطاجة أنها كانت عظيمة في وقت كان فيه شأن روما يرتفع . . .

يهـدف هذا الكتـاب في البدء إلى الإشارة للمراحل الأساسية لمغامرة شعب. فتاريخ العالم القرطاجي يرقى إلى بداية الألف الأولى قبل الميلاد مع انتشار موجات التـوسـع الفينيقي الكبيـرة، وينتهي هذا التـاريـخ بعـد انتصـار صعبٍ حققتـه فيـالق «سيبيون إميليانوس». . .

ومـع احتـراق العـاصمة الرائعة اختفت تلك الحضارة تحت أنقاضها. وخلافاً للتـاريـخ فإن فصـول هذا الكتاب تهدف أيضاً إلى الاطلاع على حضارة تثبت حيوية يجـدر الإقتـداء بها. ولقد كان «فلوبير» يرغب بكل تأكيد أن يوضح من هذه الحضارة بعض الظـواهـر التي جعلتـه دائمـاً يعيش في حلمٍ دائم. إننـا نتـذكر منذ أول جملة خطّها في روايته «سالامبو» كيف يتدفق سحر العالم المفقود.

كان ذلك في «ميغارا Megara»(*) ضاحية قرطاجة وفي حدائق «هاملقار»(**).

فلنتـرك إعـادة تشكيـل هذه المشـاهد الرومانسية الشهيرة ووفرة الصور الغريبة عنده وهيجان انفعالاته. . . .

القـرطـاجيين أي الفينيقيين الغـربيين. وهي كما نلاحظ مخففة من كلمة «Phoenic» التي اقتصر استخـدامهـا عنـدهم على الفينيقيين الشرقيين سكان الساحل السوري، الأمر الذي يتطرق إليه المؤلف في الصفحات التالية. .

«المحقق»

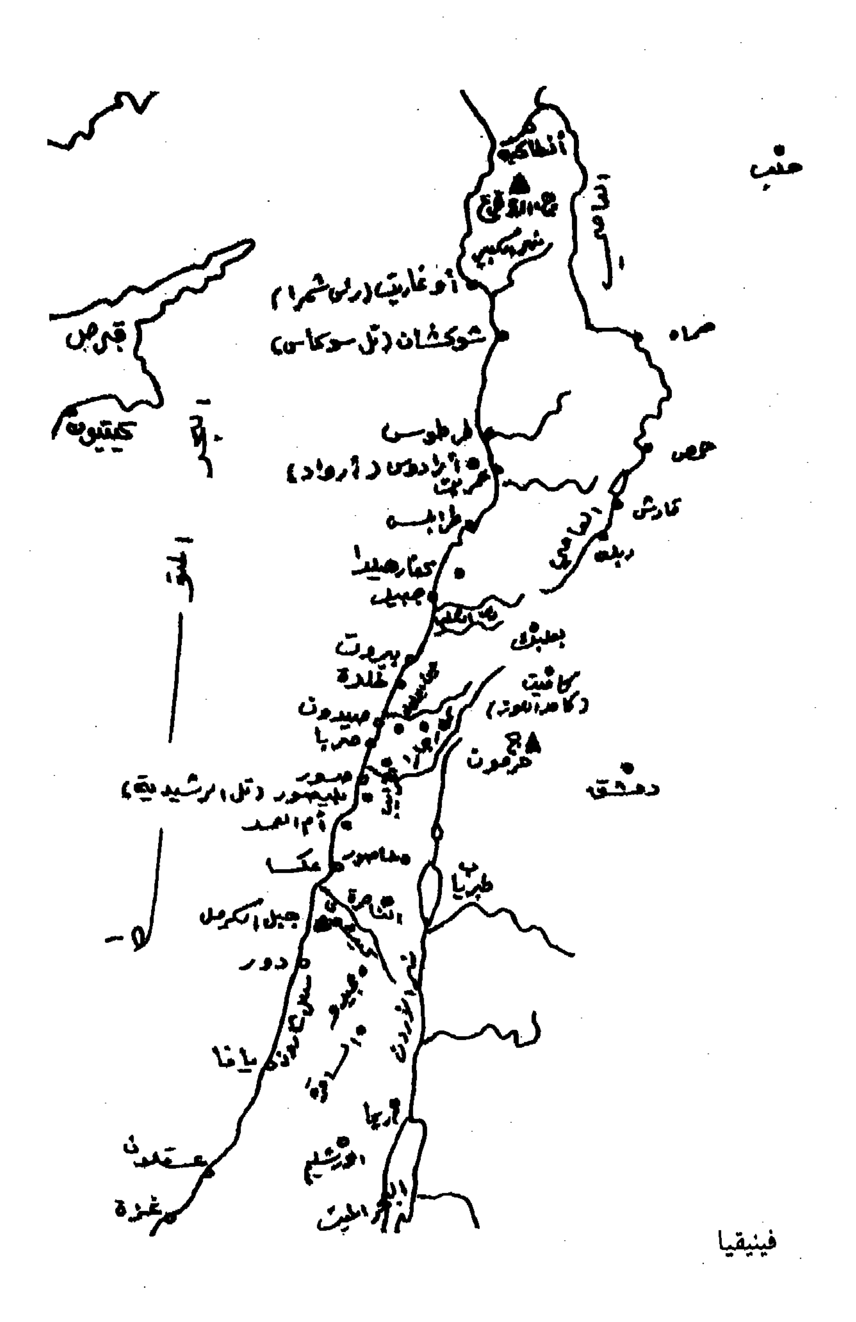
* أي المغارة. ـ المحقق ـ.

* عُرفت في تاريـخ قرطـاجـة عدة شخصيات باسم «هاملقار» ولكن الأرجح أن تسمية هذا المكان منسوب إلى «هاملقار برقا» والد «هانيبعل».

المحقق

وبهدوء أكثر، ولكن للأسف ببساطة أكثر أيضاً، وبلاتباهٍ وهمي في قدرتنا على «بعثِ» ماقدمته عبقرية شعب، دون البحث باستفاضة في العوامل التي سببت دماره، نقترح الإبحار بحثاً عن نتوء يمكن الوصول إليه في هذه الحضارة الغارقة. إننا نرغب بالتحديد، ومن خلال هذا المدخل، في إبراز الوجه العنيف للحياة وروح المخاطرة التي كانت تنفح أهل صور وصيدون بالحياة، فهم «بحارة مشهورون ولكنهم أناس جشعون». كما يعبر «هوميروس في الأوديسة : XV ص 415». وفي الواقع، رغم أن الحضارة القرطاجية انتشرت في غربي البحر المتوسط بشكل مراكز تجارية كانت هي المعابر البونية. فإن هذه الحضارة بقيت حاملة لأصولها الفينيقية الشرقية. وبالنتيجة إذا كان الفينيقيون قد اشتهروا بكونهم سائقي عجلات البحار، فإن القرطاجيين اقتفوا آثارهم مرتبطين بهذه النزعة. ألم يلجأ المؤرخ الإغريقي «أبيان Appien» في حديثه عن المدينة الأفريقية العظيمة إلى تلك الصورة المثيرة للذكريات عن سفينة ذات مرساة(٢)؟ . . . .

* * *



حلب
أنطاكية
أوغاريت (رأس شمرا)
شوكشان (تل سوكاس)
حماه
قبرص
حمص
أرادوس (أرواد)
طرابلس
قادش
جبيل
بيروت
بعلبك
صيدون
صور
حرمون
دمشق
عكا
طبريا
جبل الكرمل
دور
أريحا
أورشليم
عسقلان
غزة

فينيقيا

الفصـل الأول

«ياصُور . . .
أنت قلتِ : أنا كاملة الجمال ! . . . . »

من الكنعانيين إلى الفينيقيين(*)

لم تكن المستعمرات الأفريقية التي ترجع إلى أصول فينيقية ، أو التي اعتبرت هكـذا ، لم تكن قد نسيت بعـدُ هذا الإسم الـذي أعطـاهـم إيـاه أسلافهم القدامى ، حتى بعــد ستـة قرون من دمـار قرطـاجـة ، وكـان هذا الإسم حسب لغتهم الأصليـة يذكــرهم بأرضهم الأم . كتب القـــديس أوغسطين : «إن سألنـا فلاحينـا عن هويتهم فإنهم يجيبـون باللغـة البونية : شنعاني Chanani . وهذا يعني ، حين نحذف حرفاً ما من هذه الكلمـة ، كمـا يحـدث في حالات مشـابهة ، أن المقصود «كنعاني»(٣) . كان يُشـار إلـى شعب كنعان الذي يعود بأصوله إلى الساميين الغربيين وأقام حضارة مدينية

---

* كثيراً مايظن بعض القراء أن الفينيقيين غير الكنعانيين ، والحقيقة أن التسميتين لشعب واحد كما سيتضح في هذه الفتـرة ، وهـو أمـرٌ يدركه المؤلف بلاشك ، وإنما أراد بهذا العنوان التمييز بين كنعانيي الداخل وكنعانيين الساحل .

المحقق

تستحق الإعجاب في فلسطين وجزء من سورية، كان يشار إليه بهذا الإسم المحلي منذ أواسط الألف الثانية قبل الميلاد[٤]. فلقد كانت غالبية المدن الساحلية وبشكل خاص «جبيل Byblos» منذ أمد طويل موانيء كنعانية، في حين لم يكن قد ورد في أية وثيقة أي ذكر للفينيقيين(*).

وبإمكاننا أن نذكر بهذا الخصوص ملاحظتين: أولاهما تتعلق بالناحية الجغرافية، فرغم أنه من الصعب تعيين أرض كنعان بدقة، ذلك أن «حدودها» كانت متحركة، إلا أنها كانت تغطي منطقة أوسع بكثير من الشريط الساحلي الذي حمل فيما بعد اسم «فينيقيا Phoenicie»[٥]. والملاحظ الثانية تتعلق بالترتيب الزمني، فتاريخ كنعان يتحدد بمجمله بعصر سابق لغزوات شعوب البحر.

من جهة أخرى، إن هذا التاريخ قد طبعته بقوة الإتصالات التي حرص الكنعانيون على إقامتها مع العموريين[٦] جيرانهم في الشرق، فلقد ضربت قبائل العموريين السامية الأصل خيامها باديء الأمر في سوريا العليا، وتمركزت فيما بعد في هضاب الأردن وتوسعت حتى وصلت إلى تخوم مدن الرافدين. لذا، وإن كان بإمكاننا القول أن إرث الكنعانيين قد انتقل إلى الفينيقيين(**)، فمن الأهمية بمكان ألا ننسى أن هؤلاء الأخيرين قد ورثوا في حقيقة الأمر حضارة شديدة التركيب لم تكن مكونة من امبراطورية مركزية كما كان الحال في منطقة الرافدين ومصر، بل من عددٍ من ممالك المدن انتشرت على طول الساحل السوري الفلسطيني.

وهكذا فإن هذه المراكز التجارية انفتحت في زمن مبكرٍ جداً على تأثيرات خارجية وردت أو تسربت إليها تدريجياً وبشكل متزايد. لقد كانت أرض كنعان القديمة، والتي تقع في ملتقى طرق العالم القديم في تلك المنطقة من الشرق،

---

* والواقع أن تسمية «فينيقيين» حديثة نسبياً بالمقارنة مع تسمية «كنعانيين».

المحقق

* * بما أن الأمر يتعلق بإسمين لشعب واحد فقد كان من الأفضل لو عبّر المؤلف هنا بكلام آخر كأن يقول إن إرث الكنعانيين إنتقل إلى المراكز الساحلية.

المحقق

كانت تمثل في ذلك الوقت ميناء واسعاً تصب فيه التيارات المتدفقة من كل البقاع. فمن تلك المناطق الواقعة فيما وراء بلاد الأموريين كانت طرق القوافل تسمح بالوصول إلى الفرات وبلاد الرافدين. وبهذا تمكنوا من عَرض أقمشة جُبيل في مدينة ماري، وكان هذا شاهداعلى مدٍ معكوس. كما وجدت بعض النماذج المميزة للحضارة السومرية منقولة على أعمال فنية من انتاج مدن الساحل الكنعاني. ويمكننا أيضاً الإشارة إلى تأثيرات من قبرص وكريت ومسينا ومن مدن آخية أخرى، وكذلك من جزر بحر إيجة[٧]. وأخيراً من وادي النيل[٨]، وصلت إلى هذه المدن أيضا. إننا نعرف من خلال الأسطورة أن أمواج البحر حملت جسد «أوزيريس» ليجنح على شاطيء جُبيل، ومن ثم عاد ذلك الملك الإله بعملية إبحار معاكسة، ومن على هذا الشاطيء شاطيء فينيقيا، وبفضل عناية «إيزيس» عاد إلى بلده مصر. إن هذه الإبحارات المقدسة ماهي إلا إشارة جديدة إلى الاتجاهات الاقتصادية والثقافية. كما أن نتائج التنقيبات الآثارية الحديثة تسمح لنا بالإشارة إلى أن ميناء أوغاريت «رأس شمرا»، والذي دُمر حوالي عام 1200 ق.م، حافظ على علاقات محدودة مع بحر إيجه وامبراطورية الحثيين، وبلاد الرافدين ومصر.

لقد كان على الكنعانيين خلال تاريخهم الطويل أن يخضعوا لهجمات الغزاة أحياناً ولثقل الامبراطوريات الكبرى التي كانت تتوسع من حولهم أحياناً أخرى. ففي النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد اتسع انتشار الآراميين في المناطق السورية، وهم قبائل سامية كانت قد استقرت في بلاد الرافدين، ورغم استقرار بعض عشائرهم فقط غطّوا تدريجياً كل منطقة الهلال الخصيب.

وفي حوالي عام 1200 ق.م اكتسحت موجة أكثر عنفاً، وهي موجة شعوب البحر[٩]، الامبراطورية الحثية وسوريا قبل أن تتكسر على حدود مصر. ولقد ضرب هذا الاجتياح الشريط الكنعاني بشكل عنيف، إذ أن مدناً كصيدون دُمرت محترقة بدون شك. ونتج عن حركة شبيهة باجتياح شعوب البحر، استقرار شعب جديد هو الـ «البِلِسْت: Les Pelest». إذ ورد ذكر الـ «فِليستين Les Philistins» في نقشٍ شيد احتفالاً بانتصار «رمسيس الثالث» حوالي عام 1177 ق.م على شعوب البحر. ولقد

استقـر هؤلاء الغـزاة الذين أعطوا اسمهم للمنطقة «فلسطين» على الشريط الساحلي الممتـد من «عسقـلان» وحتى «غـزة»، ممـا أدى بالكنعـانيين المـوجـودين في تلك المنطقـة إلى التراجع(*). كما حاول أولئك القادمون الجدد أن يوسعوا منطقتهم، بيد أنهم اصطـدمـوا بمنـافسين أُخر «العبرانيين»(**). إذ أن قبائلهم كانت قد وصلت إلى جنـوب فلسطين منـذ نهـايـة القرن الثامن عشر ق.م بحثاً عن أراضٍ. وحين دخلت هذه القبـائـل أرض فلسطين بقيـادة «يشوع»(***) كان أول مااستولت عليه هي المدينة الكنعـانيـة «أريحـا». وأبـادوا كل مافي المدينة «من رجل وامرأة وطفلٍ وشيخ، حتى البقـر والحميـر والغنم» ـ يشوع: 21:6 ـ. وفيما بعد، ومع تواصل الغزو، ظهر اتجاه توحيـدي (بين ممـالـك المـدن) كان عليه أن يستمر بفعل المعاهدات وعبر استيعاب تدريجي قروناً عديدة.

---

* إن مسألة ماسُمي «شعوب البحر» بحد ذاتها مسألة فيها الكثير من الغموض وتصطدم بتساؤلات عديدة لم تجد أجوبة واضحة، سواء فيما يخص موطنها الأصلي أو لغاتها أو من حيث مصيرها. وقـد تعـارف البـاحثـون على هذه التسميـة ووردت في مؤلفـات كثيـرة دون تفـاصيـل عنها في النصـوص القـديمـة. أمـا مسألة ربط الفلسطينيين بهذه الموجة أو تشبيههم بها، سواء من حيث المنشأ أو من حيث التـرتيب الـزمني، ففيهـا أيضاً الكثير من الشك وعموماً، اعتمد الباحثون في التاريخ القديم، ومنذ القرن الثامن عشر، على التوراة كمصدر تاريخي للمنطقة. وبعد ذلك، اعتمـدوا على النصـوص الهيروغليفية والمسمارية. ولو سلّمنا بالتوراة (خاصة أسفارها الأولى) كمصـدر «سـرد تاريخي» لتبين لنـا الكثيـر من المعلومـات والتـواريـخ المغلوطـة أو المرتجلة. فاستناداً إلى المرويات التوراتية، تعارف المؤرخون على أن قدوم ابراهيم مع قبيلته العبرية إلى أرض كنعان كان حوالي القرن الثامن عشر ق.م. وإن من يقرأ مابين الإصحاح العشرين والثاني والعشرين من سفر التكوين، يلاحظ بكل وضوح كيف كان العبرانيون لايزالون في ذلك الوقت قبيلة متنقلة لاتجد مستقرا لها، في حين تذكر الفصول اسم «أبي مِلِك» كأحد ملوك الفلسطينيين الـذين كانت لهم مدن متعـددة وكيف التجأ ابـراهيم إلى مملكتـه.. «وتغـرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة». ـ سفر التكوين: 34:21 ـ. ثم كيف ماتت زوجته سارة «في قرية أربع التي هي حبـرون في أرض كنعـان» ـ تكـوين: 2:23 ـ. وكيف وهبـه «عفـرون الحثي مغـارة المكفيلة» ليـدفن زوجتـه ـ تكوين 23 ـ. وباختصار يتضح لنا أن الفلسطينيين آنذاك كانت لهم ←

ومن الـواضـح أن استقـرار هذه الشعوب المختلفة في أرض فلسطين، وضمن مجال توسع المدن الكنعانية وكذلك هجرات الآراميين، أدت لأن تحافظ هذه المدن على ظروف خاصة، ولم يكن بإمكان مثل هذه الظروف إلا أن تؤدي إلى نتائج تؤثر على مسار تطورها التاريخي، وعلى تطور البلاد كلها أيضاً.

لم يكن تاريخ هذه المنطقة يقترب من نهايته رغم مآسي الزمن التي داهمتها، بل على العكس، إذ أن حقبة جديدة بدأت في القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، تمكنت خلالها المدن الكنعانية من الإفلات من تطويق جيرانها الجـدد متمتعـة بعهـد طويـل من الاستقلال. على أن هذا الإستقلال كان يزول بين



جبيـل، الإلـه «رِشف» (بـرونز)، القرن التاسع عشر أو الثامن عشر ق.م)

←مملكة أو «ممالك» مستقرة لم تنشأ وتتوطد فجأة أو نتيجة غزوة طارئة بل تطلبت ردحاً طويلاً من الـزمن قبـل قدوم القبيلة العبـرانيـة (في القـرن الثـامن عشـر) ممـا يجعلنـا نستبعـد أيضـاً ربط الفلسطينيين مع موجـة شعـوب البحـر التي يحدد الكاتب حصولها حوالي 1200 ق.م. والتي لم تُنشيء مدناً ولم تترك آثاراً مكتوبة.

المحقق

* * ماذكـرنـاه في المـلاحظـة السـابقة ينفي تعبير «القادمون الجدد» كما أراده المؤلف. علماً أن منافسة العبرانيين وتوسعهم حصل فعلاً ولكن في القرون اللاحقة.

المحقق

* ** أي بعد الخروج من مصر بزمن طويل.

المحقق

الحين والآخر عندما كان الآشوريون يمدّون سلطتهم غرباً، كالحملة التي قادها «آشور ناصر بعل الثاني (883- 859 ق.م)(*) والتي خُلِدت على نصب الثيران والأسود كما يلي: «... الجزية التي أخذتها من ملوك الشاطيء البحري. ملوك صور وصيدون وجُبيل، وأرواد، من الفضة والذهب والقصدير والنحاس والأواني البرونزية وألبسة الصوف المصبوغ وألبسة الكتان والقرود الكبيرة والصغيرة ومن خشب الأبنوس ومن الـ (buis?..) والعاج و... ، تلقيت كل ذلك كجزية، كما أنهم قبلوا أقدامي» إن مؤشرات التبعية المؤقتة لم تكن مشابهة أبداً لظروف التبعية المصرية القديمة، التي كانت أشد وطأة تحت حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة (وخاصة تحوتمس الثالث). وحين تراجعت موجات شعوب البحر اتجهت فينيقيا نحو التمتع برخاء حقيقي. إن الجزية المقدمة لـ «آشور ناصر بل»، كما ورد آنفاً، تعطينا فكرة واضحة عن الغنى والترف عند الفينقيين.

ربما يكون اسم «فينيقيا» قد ظهر للمرة الأولى بدءاً من الربع الأخير من الألف الثانية ق.م. ضمن ظرف تاريخي استدعى ذلك. وقد لايكون من التعسف أن ننطلق بالحديث هنا عن هذا الفرع النشيط من الشعب الكنعاني اعتباراً من هذه الحقبة التاريخية. فالفينيقيون الذين لاتغطي أراضيهم سوى جزء بسيط من أراضي أسلافهم، كانوا يتجهون ليرسموا لمصيرهم خطاً جديداً.

قد يكون من المناسب أن نقدم في البداية بعض الملاحظات، إذ يبدو أن كلمة «كنعان» هي عبارة عن تسمية جغرافية استخدمها أهل البلاد الأصليون[١٠]. وقد يكون اعتباطاً، رغم العديد من الإفتراضات، أن نطمح لإيجاد اشتقاق غريب لهذه التسمية قد يتضمن دلالات فيما يخص ظروف البلاد أو سكانها أو صناعاتها ومايتعلق بنشاطاتها التجارية. والمشكلة معقدة جداً حينما نحاول البحث عن أصل اسم

---

* كانت في الواقع واحدة من عدة حملات خلال قرون عديدة لتوحيد الأراضي الواقعة غرب نهر الفرات تحت السلطة المكزية لامبراطورية الرافدين.

المحقق

«فينيقيا». وليس لدينا هنا المجال للتوسع في إيراد مجمل التفسيرات ونقائضها، والتي تم التطرق إليها فيما سبق. إن كلمة «Phoinike» يُقصد بها البلاد، وكلمة «Phoinix جمعها Phoinixes» يُقصد بها سكان البلاد، وكان قد استخدمها «هوميروس»، وربما ترجع التسمية إلى زمنٍ أقدم. ويظن بعض اللغويين أن الكلمة الإغريقية «Phoinix»، والتي تعني الأرجوان، ذات أصلٍ هندو-أوروبي تحديدا، وعلى هذا أُشيرَ إلى «فينيقيا» على أنها «بلاد الأرجوان». ونحن نعرف بما فيه الكفاية أن المدن الفينيقية قد ذاع صيتها في الحقيقة بفضل صناعة الأرجوان. لكن هذا التفسير الشائع جداً بالتأكيد لايحل المشكلة إلا في الظاهر، إذ أنه من الصعب أن نسلّم بأن اسم مدينة أو بلدٍ أو أن إسم سكان هذه المدينة أو البلد قد يشتق من هذه البضاعة أو تلك أو من أسماء منتوجات محلية[*]. ومن الأجدر بنا أن ندقق في الظاهرة المعاكسة: إن تسمية منتوج ما ترجع إلى أولئك الذين صنعوه أو تاجروا به، وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتحدث عن الأقمشة، فالداماس والموصلين لم يعطيا اسميهما إلى «دمشق» و«الموصل»، بل العكس هو ماحدث، لذا ربما كان علينا أن نعكس الأوضاع[**].

قد يبدو اسم «Phoinix» مشتقاً من جذر سامي[11]، ونتيجة ذلك فمن الممكن أن نكون قد اشتقت من هذا الجذر نفسه تسمية شعب كنعان، ثم انتقلت هذه التسمية إلى اللغة الإغريقية على شكل، «Phoinike» التي يمكن أن تكون قد أعطت

---

* مع أنه توجد أمثلة تثبت مايرفضه الكاتب. فمدينة «جُبيل» الساحلية اشتهرت بتصدير ورق البابيروس للكتابة، فسماها اليونان «بيبلوس Byblos» التي توحي بمدلول - مخزن الكتب -، كما أن الإسم اليوناني اللاتيني «بالميرا Palmyra» مشتق من كلمة «Palme» التي تعني شجرة النخيل، لأن التمر كان من جملة المواد التي تاجرت بها مملكة تدمر وصدرتها إلى الرومان (انظر كتاب «تحقيقات في الأسماء الجغرافية السورية «تأليف الدكتور عبد الله الحلو».

المحقق

** هذا المثال منطقي، ولكن ماقلناه في الملاحظة السابقة أمرٌ ثابتٌ أيضاً.

كلمـة «Phoinix» (***) التي يشيـر بهـا الفينيقيـون للدلالـة على اللون الأرجواني وهو ماكـانـوا قد اختصـوا به لوحـدهم حيث اشتهـروا في البحـر المتوسط بتجارة الصوف والأنسجة المصبوغة . وإنه لمن غير المفيد في هذا الإطار أن نستفيض أكثر من ذلك في مسألة كهذه بعيدة عن أن تحسم . ونضيف ببساطة أن الأسماء الاغريقية التي تدل على فينيقيـا وسكـانهـا نُقلت بواسطـة الـرومـان . ومع ذلك ، فإن الرومان ، ولأسباب تاريخيـــة . ميـــزوا بين الفينيقيين الأصليين ، أي فينيقيي الشـــرق ، في الســـاحـــل الســوري ، «Les Phoenics» وبين فينيقيي الغرب ، أوبتعبيراً أدق ، بعدما أصبحوا في الغرب ، في شمال أفريقيا ، واختلطوا بالسكان الأصليين ، وواجهوا الرومان طوال أكثر من قرن ، فأطلقوا عليهم تسمية «Poeni» البونيين . ومما نود أن نشير إليه أيضاً أن اسم

*** لاأتصور أن المؤلف يعني فعلاً مايقول بهذه الحرفية ، إذ من غير المعقول اشتقاق كلمتين مختلفتين تماما في حروفهما وبنائهما من جذرٍ واحدٍ . أما أن تكون تسمية «فينيقيا وفينيقيين» من أصلٍ محلي ـ ولنقل سامي ـ كما يعني واكتسبت فيما بعد طابعاً يونانياً من حيث اللفظ ، فمسألة ممكنـة تمـامـاً . ولكن هنـاك أمـرين لابـد من توضيحهمـا : الأول أن اللفظة ليس لها وجود في الكتابات الكنعانية أو الآرامية القديمة مما يشير إلى أنها لم تكن مستخدمة محلياً في تلك الحقبة التي كانت تستخـدم فيهـا لفظـة «كنعـان وكنعـانيين» ، وإن ورودهـا في بعض المعاجم الآرامية بشكـل פִינִיקְיָא فينيقيـا» ، وفي السـريانية بشكل ܦܝܢܝܩܝܐ فينيقيا» ، أوܦܘܢܝܩܐ فونيقيا» يشير إلى أنهـا أدخلت معجمياً في فترات لاحقة عن اللفظ اليوناني ، غير أنه لاينفي كونها استخدمت في فترة حديثة نسبياً . والأمر الثاني هو البحث عن جذر ممكن لاشتقاق التسمية ، والذي يجب أن تتـوفـر فيـه الحـروف الثـلاثة «ف ن ق» في اللغات المحلية . واستناداً لوجود هذا الجذر في الآراميـةפנק فنق» وفي السـريـانيـة ܦܢܩ: فنق» وكـذلـك في الكلدانيـة « פנק من الآراميـة الشرقية فإنه يكون من المعقول أن التسمية اشتقت منه ـ ولكن في زمن متأخر نسبياً ـ والجذر له مدلول : الترف والتنعم والدلال . وعندما نعرف أن الفينيقيين كانوا بالفعل شعباً مترفاً منعماً . فلا نستطيـع استبعـاد هذه التسميـة بهـذا المـدلـول . ولكني أرجـح هنا أنها أطلقت عليهم من قبل جيرانهم الآراميين في داخل سوريا ثم استخدمها اليونان .

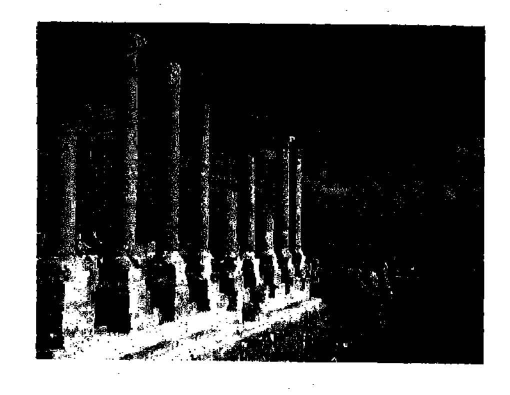
المحقق

«القرطاجيين Carthaginienses » في الأدب اللاتيني لا يدل فقط على سكان العاصمة البونية «قرطاجة» بل أيضاً على مجمل فينيقيي الغرب.

«ممالك» فينيقيا

يمكننا بالتأكيد أن نفهم قدر فينيقيا بفضل عبقرية شعبها. ولكن، وكما يحدث في كل مكان، فإن هذه العبقرية حُددت بظروف جغرافية ضاغطة. وبالنتيجة، ومثلما كان يحدث في مناطق أخرى، فإن هذا الظرف الخاص مثل عنصراً أساسياً في توجيه تاريخ هذا الشعب.

كانت «فينيقيا» تتألف من شريط محصور بين ساحل البحر المتوسط في الغرب وسلسلة جبال لبنان وامتداداتها في الشرق. أما حدودها الشمالية والجنوبية فمن الصعب تثبيتها بدقة. إذ أنها غالباً ماكانت تخضع لبعض التغيرات خلال القرون. ويجري الحديث أحياناً عن «فينيقيا الكبرى »، التي ربما تكون قد امتدت مابين جبل كاسيوس «الأقرع» شمالاً وسهل «شارون» في أعالي «يافا». ومن دون شك، فإن هذه المنطقة كانت تغطي، وحتى قبل ذلك، أرض كنعان القديمة(*). مع ذلك



صور، موقع المدينة القديمة

* أضيف على مايقوله المؤلف أن أرض كنعان بالحقيقة أمتدت أكثر من ذلك إذ شملت كل غور الأردن وعلى جانبيه. المحقق

فإن السهـل السـاحلي السـوري الفلسطيني لفينيقيا الأصلية لم يكن طوله يتجاوز الـ 300 كم . ويبـدأ من موقـع «شـوكشـان Shuucshan» القـديمة ـ تل سوكاس اليوم في شمـال السـاحـل السوري ـ ويصل إلى مدينة «عكا» أو إلى الجنوب قليلاً حتى جبل الكـرمـل . ومما تجدر ملاحظته أن السهول الساحلية لهذه البلاد لاتشكل أبدا شريطا عريضـاً أو جادة تمتـد بشكـلٍ منتظم على حواف المتوسط ، ويمكن للمسافرين جوا فوقهـا أو للقـادمين من عرض البحـر ملاحظـة ذلـك بكـل بسـاطة ، إن مظهر الإقليم الساحلي في سوريا ، بل وحتى في الجليل يختلف بشكل كبير عن المظهر الموجود إلى جنوبه في سهول «سيغالا وشارون» .

يمتـد جبـل لبنـان باتجـاه الشمـال حتى محـاذاة جبـل العلويين «الأنصارية» وبطـولٍ يبلغ حوالي مائـة كيلو متـر وارتفـاع يتجـاوز الثـلاثـة الاف متر أحياناً . وهذه السلسلة الوعرة لاتشكل حاجزاً موازياً للساحل فقط ، بل إن طياتها تعرقل في الحقيقة النطـاق البحـري الذي يضيق إلى حدٍ كبير قياساً إلى السهول الوسطى في فلسطين . إن هذه الحـافـات الصخرية التي غالباً ماتنبثق عن كتلة المرتفعات ، تتقدم في البحر على شكـل نتـوءات بارزة أو تشـرف على جروف ناريـة وحمـراء اللون . وللسهـل السـاحلي ، الـذي لاتصـل حوافـه إلى الشـاطيء ، عرضٌ يتـراوح مابين إثني عشـر وخمسين كيلو متـراً . وبهـذا الشكـل نرى عدداً من القطـاعات المنفصلة نسبياً وذات أبعاد مختلفة . تضيق كثيراً أو قليلاً ، محصورة بالبحر من جهة ومن جهة أخرى بكتلة جبليـة صعبـة العبـور تنتشـر فيها الشعاب والوديان ، مع بعض المجاري السيلية التي تجف صيفاً وتملؤها شتاء الفيضانات من الأمطار وذوبان الثلوج .

في مثـل هذه القطـاعـات انتشـرت المـدن الفينيقية . وكانت بعض متحداتها تعيش حيـاة شديـدة العـزلة إلا إذا لجأت إلى الملاحة الشاطئية ، ولم يكن بمقدورها الإتصـال مع جيـرانهـا إلاّ عبر بعض المضائق أو الممرات الضيقة لجرفٍ ذي حواف يشبـه نوعـاً من السـلالم درجـاته محفورة في الصخر . لقد كان لمثل هذه التضاريس تأثير على تطور المدن الفينيقية بل وعلى التاريخ الفينيقي كله .

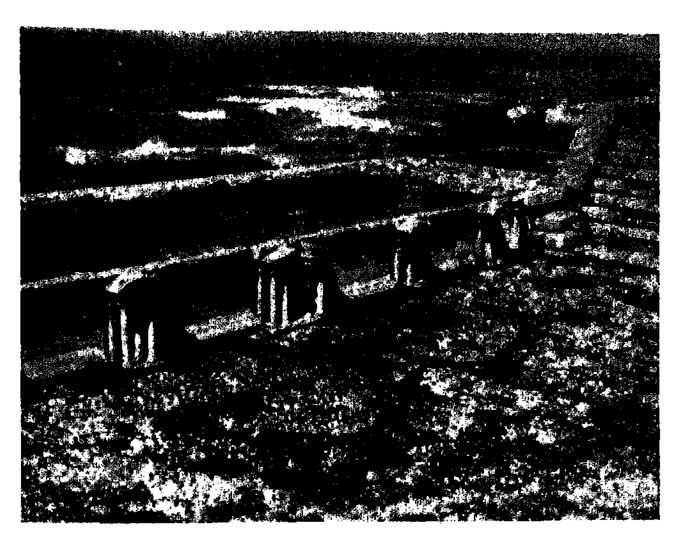
إن هذا القطاع (أو الشريط) الساحلي قبل كل شيء ، حتى لو لم يكن متقطعاً

بالكتل الجبلية كما وصفنا، لأقلّ بكثير من أن يكوّن مجالاً إقليمياً لدولة عظمى كتلك التي أنشأهـا قادة بلاد الـرافـدين ومصـر وملوك الحثيين في الأناضول. ونلاحظ بهذا الخصـوص أن حقبـة استقلال الفينيقيين لم تكن ممكنة إلا بعد اضمحلال أو ضعف جيـرانهم الأقـويـاء بعـد غزوات شعـوب البحـر. إن الظروف التي فرضتها الجغرافيا لاتسمـح بإنشـاء امبراطورية فينيقية، فالمدن الرئيسية المحصورة بين البحر والجبل، كان بإمكـانهـا على الأقـل أن تكـون نفسهـا بدءاً مالقـرن الثـاني عشر قبل الميلاد، وبـوحـداتٍ صغيـرة جداً، لتصبـح فيما بعد «ممالك» سريعة الزوال: صور، صيدا، جُبيل، عكا، أرواد. وكانت أحياناً المدينة الأقوى تخضع جاراتها وتحولها إلى مدن تابعة لها(*).

---

* يلاحظ أن المؤلف يركز في هذه السطور على الجغرافيا كعامل أساسي في إعاقة قيام امبراطورية فينيقية. وأرى أن عليَّ إيضاح عوامل أخرى تعتبر موازية في أهميتها للعامل الجغرافي. فالدول السـاحليـة لاتحتـاج بالضـرورة إلى العمق القـاريّ الكبيـر لتكون دولاً بالمعنى الصحيح. ومن خلال وصفه فيما سبق وفيما يلي أيضاً نرى أن هذه المراكز الفينيقية المنتشرة على طول الساحل السـوري إضـافـة للمـدن الـداخليـة في سوريا العميقة، كان بإمكانها أن تكوّن اتحاداً مستمراً بعكس ماكـانت عليـه، لاسيمـا وأن هذه المراكز كانت تحتل المقام الأول في القوة البحرية في المتوسـط خاصـة وفي العالم القديم عامة. ولكن العوامل التي يجب إيضاحها تكمن في طبيعة الكنعـانيين (الفينيقيين) وطـريقة حياتهم. فمن المعروف عنهم أنهم كانوا شعبا ممارسا للتجارة من الطـراز الأول والتجـارة (خـاصـة البحرية منها) لعبت دوراً كبيراً في تنافس المدن فيما بينها وتغلب المصالح المحلية لدرجة أن بعضها كان يستفيد أحيانا من القوى الخارجية على حساب البعض الآخـر. إن هذا الإتجـاه التجـاري صاحبته (أو ربما تولدت عنه) نزعة إلى السلم ميزت الكنعـانيين عمن جاورهم. ولم يصـادف أن ظهـرت سلطة سياسية مركزية وقوية تسعى لتوحيد هذه المنطقـة على المـدى البعيـد، علمـاً أن التاريخ سجل بعض التحالفات المؤقتة التي كانت سرعان ماتنفرط. وهذا الإتجاه العام الذي ميز تاريخ الفينيقيين يعتبر أهم بكثير من العامل الجغرافي.

المحقق


إطلال «جُبيل» (منظر جزئي)

وقد تمكنت صيدا في البداية من بسط هيمنتها حتى أن اسم الصيدونيين استخدم أحياناً في النصوص التوراتية للدلالة على مجموع الكنعانيين (سفر التثنية 3: 3 ـ القضاة 10 :12 . . . إلخ) . كما أن الأوديسة، التي تعبر عن تلك الفترة، تتناوب باستخدام مصطلحي «الصيدونيين» و«الفينيقيين»[١٢]، وبالمقابل، وبدءاً من نهاية القرن الحادي عشر ق . م، وهي بداية التوسع الفينيقي في الغرب، فإن مدينة «صور» التي بُنيت حسب ماذكره «هيرودوت» (II,44) في نفس الوقت مع معبد (ملقارت) الموجود فيها حوالي سنة 2750 ق . م، أكدت على تفوقها وأصبحت أعظم مدن البلاد، فارضة سيطرتها من نهر الكلب وحتى رأس الكرمل. ومع ذلك سعت هذه الممالك إلى تحقيق أهدافٍ طموحة بدلاً من أن تنهك نفسها في الصراعات العائلية أو أن تبدد قواها في مشاريع ضيقة محلية.

ولكن يبقى أن هذه الظروف لم تكن تسمح بتشكيل سلطة مطلقة حقيقية، إذ لم يكن ممكناً ظهور شعورٍ موحِّدٍ في فينيقيا، إن مظهر التقطع الجغرافي الذي يميز الساحل السوري الفلسطيني دفع بالفينيقيين، كي لايظلّوا محصورين ضمن ممالك متواضعة، إلى السعي خارج حدودهم بحثاً عن مستقبل أفضل. لقد كانت أراضيهم خصبة بكل تأكيد، كما أنها إجمالاً كانت مروية بشكل كافٍ، مما ساعد على وجود زراعة مزدهرة أثارت دهشة المصريين، من الحبوب وأشجار النخيل والتين والزيتون والرمان والعنب. كما أن لبنان كان مغطى بالغابات التي تنتج أخشاب البلوط والسرو،

وخصـوصـاً أخشـاب الأرز التي كانت لهـا أهميـة بالغـة في أعمـال البناء، والتي عمّ تصديرها حتى وصلت إلى بلاد الرافدين ومصر. ولكن، وعلى الرغم من هذا الغنى الطبيعي، فإن هذه الـدول ـ المـدن لم تكن لتكتفي بهذا القدر، إذ أنها كانت تضيق بحدودها وتُحس بالإفتقار إلى العمق القاريّ، كما أن مصادر البلاد كانت محدودة، ونحن نعـرف معنى عبـارة «رينـان» Renan ، وهي عبارة مبالغ فيها دون شك، ولكنها توضح جيداً شكلاً من أشكال هذه الظروف: «إن فينيقيا ليست سوى ضاحية موجودة حول المرافيء الساحلية».

لم يكن بمقدور الفينيقيين تحقيق طموحاتهم في سلسلة جبال لبنان، فبالنسبة لهم كانت الثـروة في أعـالي البحـار، ولقـد كان البحر المتوسط ماثلاً أمامهم كحقلٍ واسع مليء بالوعود.

«فينيقيون يحملون مجموعة من الحلي في مراكبهم السوداء»

ـ الأوديسة ,XV, 416 - 417 ـ

من الواضح أنه بالنسبة للفينيقيين، لم يكن التفوق السياسي، أو إذا استخدمنا مصطلحـاً مبهمـاً «الامبـريـاليـة» ـ بالمعنى الـذي يصف مثـلاً حالـة توسـع وتطـور الامبـراطـورية الآشورية ـ لم يكن ليقدم أية فائدة. فالباعث الأساسي، بل والوحيد، الـذي كان يدفعهم لتـرك إمـاراتهم ومـواجهة أخطار البحر كان له طابع مخالف: إنها الطمـوحـات التجـارية، وبطبيعة الحال فإن هذه الطموحات كانت تبدو غير كافية في نظـر المتحمسين لتشكيـل الفـرق والفيـالق وإقـامة نُصب النصر التذكارية. لقد كان يجب، بفعـل النشـاطات التجارية الكثيفة والمثمرة، أن يتم التعويض بشكلٍ ما عن الضعف لشعب يفتقد التكامل ومحروم من أي مظهرٍ حربي حقيقي. كما أنه لم يكن بإمكـانـه الابتعـاد عن جيـرانـه الأقـويـاء. وبمـا أنـه لم يكن لديهم أيُ أملٍ بإنشاء امبـراطـوريـة قاريـة، فقـد بقي أمـامهم، بفضل الروابط التي امتدت في آفاق البحر المتـوسـط كله، أن يبـدؤ ا حيـاكة نسيج شكلٍ من أشكال الامبراطوريات البحرية.

فالــوطن الأم يجب أن يجتــذب إلى موانئــه كل الخيــرات التي لم يكن قادراً على انتــاجهــا. ولكي يحقق الفينيقيــون هذا الحلم، أظهروا حذقاً ودهاء وكذلك كثيراً من الشجاعة كأية أمةٍ سعت لإنشاء امبراطورية بقوتها العسكرية.

لقــد ذاع صيت الصــوريين والصيــدونيين بســرعـة كتجـارٍ مهـرة، نشيطين وجسورين. حتى أنهم تمكنوا من فرض أنفسهم على جيرانهم ومنافسيهم العبرانيين في عقـر دارهم. وإذا استخـدمت التوراة كلمة كنعانيين للدلالة على التجار (حزقيال 4, 17 . . . وأماكن أخرى) فلأن الكنعانيين الفينيقيين، في الحقيقة، كانوا قد تمكنوا من أن يحتكــروا بأيـديهم تجـارة الاستيـراد. وهكـذا، فإن العـلاقـات الضيقـة بين الفينيقيين والعبـرانيين، وخصـوصاً في الاطار الديني، أظهرت بعض التطور وحققت بعض التبادل الاقتصادي الجزئي. ونورد هنا مثلاً شهيراً على ذلك.

أقام «حيرام» علاقات صداقة مع مُعاصره «سليمان» وأجاب ملك صور العظيم (969 - 935 ق. م) بلطف على سليمان الذي طلب منه خشب الأرز والعرعر لبناء معبد «أورشليم» ولبناء قصر له أيضاً، وتلقى منه بالمقابل قمحاً وزيتاً لتموين بيته «الملوك الأول 5». أما سليمان الذي كان قد تلقى من حليفه عشرين «تالان»(*) من الذهب لتـزيين أبنيتـه الملكيـة، فقـد قدّم بدوره إلى صديقـه منطقـة من إقليم الجليل تضم عشـرين بلدة. وحين زار ملك صور ضيـاعـه هذه اكتشف أنـه مغبون، فهذه المنطقة المعروفة بـ«أرض كابول» لم يكن لها، في رأيه، أية قيمة (الملوك الأول 9:10-14). ومـع ذلـك، فإن هيبـة جاره القـوي دفعت «حيرام». وهو الذي لم ينسَ أن العبرانيين استطـاعـوا ردّ هجمات الفلسطينيين وتثبيت الأمن ـ لأن يضع قسماً من اسطوله تحت تصـرف «سليمـان» في الـرحلات التي اتجهت إلى بلاد «أوفير» الغامضة ـ التي ربما كانت تقـع على الشـاطىء الغربي للجزيرة العربية ـ. كما كان الملاحون الفينيقيون

---

* من الـلاتينيـة «Talentum» التي ترجـع بدورها إلى اليونانية «Talanton» » واستخدمت كوحدة وزن تعـادل حوالي 26,5 كغ. ولكن المكـان الـذي يشيـر إليه المؤلف في النص العبري للعهد القديم، يذكر من حيث العدد مائة وعشرين، وليس عشرين «كِكرٌ ذهب».

المحقق

يقـودون سفن «تـرشيش» ـ التي سيـرد ذكـرها في الفقرات التالية ـ، إذ أنهم وحدهم كانـوا يعـرفـون الطـريق إلى هنـاك. وكـانت هذه السفن تعـود بانتظـام حاملة معهـا الشحنات الثمينة من ذهب وفضة وأحجار كريمة وعاج وأخشاب وقرود وطواويس.

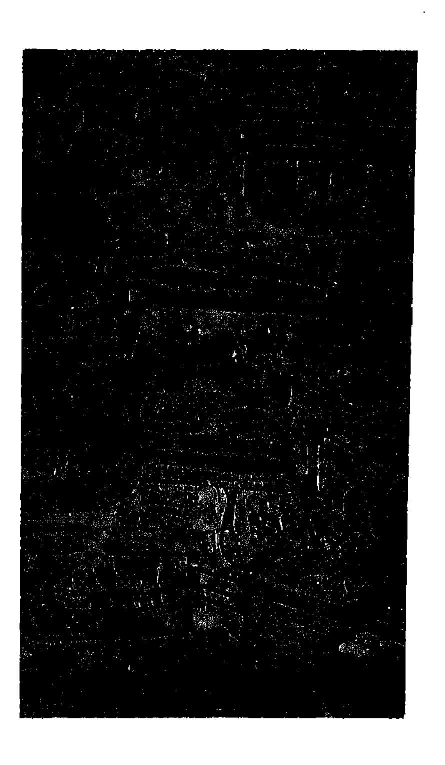
لقـد مخـر الفينيقيـون عبـاب البحـر المتـوسـط لما فيه فائدة لمدنهم بالدرجة الأولى. ولم يكن هذا التفـوق البحـري، الـذي حلّ محـل التفوق البحري الآخي - المسيني، لم يكن ممكنـاً لولـم يُظهـر الفينيقيـون تمرساً ممتازاً في شؤون الملاحة. ومن الممكن أن نلاحظ على الفور أن تضاريس المدن الفينيقية هي في الواقع كما لو كانت مواطيء أقـدام فقـط، بنيت على مواقـع تنـاسب بشكـلٍ ملفتٍ للنظـر إنشـاء المواني‌ء: بروزات صخرية طويلة، إضافة إلى وجود خلجان صغيرة متناسقة أعدت كمـراسٍ، وأحـد في شمال المرفـأ والآخـر في جنـوبـه، وكان هذا يسمح للقوارب بالاستفادة من الرياح السائدة حسب الفصول.

إن هذه المـرافيء لم تكن في الحقيقـة سوى مسطحات مائية بسيطة محمية، ذات شواطـيء تمـكنهم من سحب زوارقهم خلال فصـل سيء، وتسمـح بإجـراء عمليات الصيانة والإصلاح. على هذا الشكل كان يبدو المركزان الرئيسيان، صور وصيدا.

ولأسبـاب أمنيـة متممـة، كمـا في صور وأرواد، كانت المنشأة الـرئيسيـة في المـدينـة تقـام على جزيرة صغيرة تقع على مقربة من الرأس الذي كان يوجد فيه حيّ البحـارة. وكـان الشعب يلجأ حين وقـوع الخطـر الـداهم إلى هذه الصخور الطبيعية المحصنة التي كانت تشبه القلاع الحقيقية.

إننـا لانعـرف سوى القليـل عن الأسطـول الفينيقي(*). وقـد وجـدت لوحـات جداريـة في احـدى مقـابـر «طيبـة» يرجـع تاريخها إلى منتصف الألف الثانية ق. م،

* توجـد، في الحقيقـة، معلومـات ليست قليلة وجـديـرة بالاعتبار في كتاب «الفينيقيون» للمؤرخ الألماني «فرانتس كارل موفرز»، سواء فيما يخص بنية الأسطول أو من حيث الملاحة وفنونها. انظر ماجاء في كتاب د. عبد الله الحلو «الفينيقيون وأميركا» القسم الأول، شواهد مختصرة.
المحقق



خوراسباد، قصر صارغون الثاني: نقل الأخشاب (تفصيل)

وتعرض هذه اللوحات المصرية سفناً تجارية عائدة لمدن الساحل السوري الفلسطيني التي كانت تحت وصاية الفراعنة. وهي سفن مستديرة، أي أنها ذات هيكل عريض جداً مستدير الشكل تقريباً، وله صارية مركزية وعارضة تحمل شراعاً مربعا.

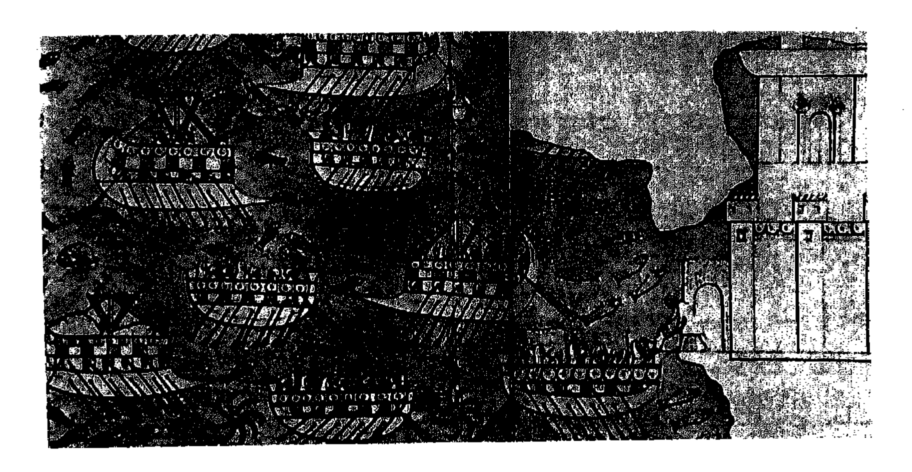
كما نرى على نقشٍ آشوري استخرج من قصر «صارغون الثاني» (721 - 705 ق. م)، في «خورسباد» قرب «نينوى»، نرى تشكيلة من السفن التي كانت تستخدم لنقل الأخشاب وتتحرك بواسطة المجاذيف أو بواسطة مجذفين كما يبدو ـ ولهذه السفن طرفان مرتفعان جداً، ويوجد رأس حصان في جؤجؤها. ويبدو أنها كانت تحمل عوارض، كما أن عوارض أخرى كانت تظهر طافية على سطح الماء، وتُسحب بواسطة حبالٍ مربوطة بالكوثل.

وفي نقش آخر من «نينوى»، وهذه المرة من قصر «سنحاريب» (705 - 681 ق. م)، تبرز صورٌ لسفن فينيقية (استخدمت كما يبدو لنقل الجنود المرافقين لأفراد

عائلة وحاشية «لولي» ملك صور وصيدا، الهارب من الجيش الآشوري، وكانت متجهة نحو جزيرة «قبرص»). وفي هذا النقش، نميز نوعين من السفن: الأول هو سفن حربية، وهي عبارة عن مراكب ذات صالب طويل، ويأخذ صدر هذه السفن شكل نعلٍ ينتهي بنتوء ضامر. أما في خلفها ـ حيث تثبت دفتا المجذاف ـ، واحدة في كل طرف، فكان يوجد نقوش بارزة، ويوجد في وسط السفينة صارية تحمل عارضة وعدّة السفينة، وكانت هذه السفن تضم صفّين من المجاذيف، يظهر منها فقط الصف العلوي الموازي لحواف السفينة. وكان الجنود والمسافرون يجلسون في الأقسام العلوية المحمية بالدروع. والنوع الثاني من السفن، الذي يظهر في ذاك النقش الشهير، سفنٌ تجارية ذات هيكل مستدير ـ تشبه سفن «الغولوا» Gauloi الاغريقية ـ لها طرفان متناظران، ونلاحظ وجود صفّين من المجاذيف، وشيء يشبه الجسور المرفوعة يجلس عليها الأشخاص الذين ينتقلون بها. ولم يكن يوجد في هذه السفن ذات الحواف المرتفعة أي صوار.

كان الملاحون الفينيقيون يهتدون إلى طريقهم بواسطة نجم «الدب الأصغر» الذي أطلق عليه الإغريق اسم «الفينيقي Phoinike». وهذا دليل على أن البحارة الفينيقيين هم الذين ابتكروا الملاحة ليلاً. ولكي يتمكنوا من الإقتراب من الشاطيء بشكل منتظم بغية إدارة تجارتهم الساحلية التي حلت مكان التجارة البرية، اكتشف الفينيقيون كافة المراسي المحتملة وهيئوا المحطات التي وجدت على مسافات منتظمة، قصيرة نسبياً. وبهذا، كان أولئك البحارة يمضون من مورد سفينة إلى آخر خلال يوم واحد، حيث كان السفن تجد، إن لزم الأمر، ملجأ وبخاصة في حالات الطقس السيء للتزود بالمياه والأقوات، إضافة إلى إقامة علاقات مع أهل المناطق الساحلية التي كانوا يرسون عليها للتجارة.

ومع ذلك، لم يتردد الفينيقيون، الذين لم يكونوا يعتمدون على تجارة السواحل الخفيفة هذه، عن اقتحام أعالي البحار. ولم يكونوا، بالتأكيد، مجهزين إلا بسفن ذات حمولات صغيرة، إذ أنهم لم يصبحوا بعد اختصاصيين في الإبحار، بيد أنهم تعلموا كيف يحسنون من خصائص أدوات عملهم، أي سفنهم. ومن بين



نينوى، قصر سنحاريب: «لولي» ملك صور وصيدا يفر هارباً باتجاه قبرص

هذه التقنيات التي سمحت لهم بالتفوق على جميع منافسيهم بين القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثامن ق. م نشير إلى استخدام القار لطلي غواطس السفن بعد اجراء عملية جلفطة الشقوق Calfatage ، مما أدى إلى احكام سد شقوق السفن وتقوية الغاطس بداعمة الصالب (إذ أن بناء هيكل السفينة على شكل قفص بمساعدة الأربطة، لم يكن قد ابتكر، حتى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، في منطقة الشرق القديم).

لقد سمحت تلك الوسيلة بالحصول على سفن طويلة، مجهزة بشكل أفضل لعمليات الإبحار الطويل المدى، وكان بإمكانها الإبحار بطمأنينة بعيداً عن السواحل(١٣). كما كانت جزر البحر المتوسط تُعتبر أيضاً محطات توقف ممكنة. وكان الملاحون، في بداية الأمر، وفي طريقهم إلى الغرب، يصلون بسهولة إلى اليونان وموانيء الساحل المصري. وكان لهذا التوسع التجاري هدفٌ وحيد هو الإنتفاع، وبأفضل الظروف، من مصادر المواد الأولية التي كان الساحل السوري الجنوبي يخلو منها. وفي مقدمتها المعادن الثمينة كالذهب والفضة، إضافة إلى القصدير والرصاص والحديد. وكان الفينيقيون، من جهتهم، يقدمون أخشاب الأرز والسرو والصنوبر الضرورية لعمليات البناء البحري، كما كانوا يعرضون أيضاً الصوف والأقمشة المصبوغة بالأرجوان والطور والخمر والتوابل، ويقدمون بشكلٍ خاص

منتجـات صنـاعـة نشيطة، إذ كانت لديهم حُرَف قادرة على تصنيع كل أنواع التحف والزجاج ذي النوعية الرديئة(*).

إن «رجال الأعمال» الجسورين أولئك لم يكونوا ليتخلوا عن الربح الذي يمكن لتجارة العبيد أن تعود به عليهم، وهم، بعملهم هذا، كانوا يقلدون جيرانهم. ويروي لنـا «هيـرودوت» (I, 1, II, 54, 56) أن «إيـو IO» ابنة «ايناكوس Inachos» ملك «آرغوس Argos» الأسطوري، بيعت في مصر، كما اقتاد قراصنة فينيقيون آخرون كاهناتٍ تم اختطافهن من «طيبة» إلى «دودون Dodone» [إيبير Epire] إلى (ليبيا).

كمـا نتبين في احـدى صفحـات الأوديسـة، التي يرخى فيهـا العنـان للنـزعـة المعـاديـة للسامية(**)، (١٤) نتبين موقفاً ناتجاً عن التنافس الإقتصادي الذي لم يكن قد اتضح بشكلٍ تام زمن الإلياذة، ففي تلك الصفحة يروي المنشد الإغريقي بإسهاب أسـاليب «الصيـدونيين» الـذين «يبالغون في حيلهم». . «فمن سفنهم السوداء» كانوا يقـومـون بعـرض تحف رخيصـة، مثل شالات الكتف، وبعد أن يملؤ ا قعر سفنهم، كانـوا يعمـدون إلى الرشوة، والغش بهدف اختطاف بعض سكان البلاد، آملين من وراء ذلك تحقيق ربح وفير، ثم يولون بعد ذلك الأدبار:

. . . «وصـل الفينيقيـون بغتـة ذات يوم، وهم بحـارة مشهورون ولكنهم اناس جشعـون، وقـد حملـوا في سفينتهم السوداء مجموعة من التحف، وكانت في منزل والدي امرأة فينيقية، جميلة المنظر، طويلة القامة، ماهرة بالأعمال الدقيقة. وتمكن

---

* يفهم من كلام المؤلف أن الفينيقيين كانوا ينتجون سلعاً على درجات متفاوتة الجودة وبأسعار مختلفة.

المحقق

** إن مصطلح «العـداء للسـاميـة» هو في الـواقـع وليـد القـرون المتأخـرة في أوروبـا، لذا فإن الحديث عنه فيما يخص العصور القديمة غير منطقي. وكان من الأفضل لو عبّر المؤلف عن هذه الفكرة بالعداء الإغريقي للفينيقيين، إذ أن لفظة «سامية» في ذلك العصر، لم تكن معروفة.

المحقق

الفينيقيــون المحتـالـون من خداعهـا ؛ فذات يوم ، كانت المـرأة في المغسـل قرب السفينـة ، فانفـرد بهـا أحد أولئك البحارة ، وبدأ يغازلها بكلمات لطيفة ، وهذا مايدير إعقول النساء حتى أفضلهن ، وسألها بعد ذلك من هي ومن أين أتت ، فأشارت له إلى منـزل والـدي العـالي وقـالت : إني فخـورة لأني وُلـدت في صيـدا ، المـدينة الغنية بالبـرونـز ، إنني ابنة «أريبـاس» الـوافر الثراء ، ولكن القراصنة «التافيين» (Taphiens) اختطفـوني حين كنت عائـدة من الحقـول وجلبـوني إلى هنا ، إلى منزل هذا الرجل ، وبـاعـوني له وقبضـوا ثمني مالاً كثيـراً . فقال لها ذلك الفينيقي : «والآن : ألا تودين العـودة معنـا ، إلى بيتـك لرؤ يـة أبيـك وأمك وبيتهما ذي السطح المرتفع ؟ إذ أنهما ، لِعِلمِـكِ ، مازالا يعيشـان وافـري الثـراء ، أجـابت المرأة : «نعم ، هذا ممكن ، ولكن عليكم أيهـا الرجـال أن تقسمـوا لي بأن تصحبـوني سليمـة إلى بيتي» . وأقسم لها الجميـع اليمين الـذي طلبتـه . قالت لهم بعـد ذلـك : «تـذكـروا نصيحتي ، عليكم التعجيـل بشراء شحنتكم ، وحينما تصبح سفينتكم مليئة بالبضائع ، أبلغوني بسرعة ، فسأحمـل معي ذهباً وكـل مايقع تحت يدي من متاع البيت ، كما أنني سأسعى لأقدم لكم شيئـاً آخـر مقـابـل سفـري إلى شاطئكم ، فأنـا أقـوم بتربية ابن معلمي في قصر ريفي ، وهـو صغيـر ماكـر ، يجري إثري حينما أخرج ، وبمقدوري أن آخذه معي إلى بلادكم ، لتبيعـوه هنـاك بثمن مرتفـع جداً . » قالت لهم ذلـك ، واتجهت بعـدهـا إلى المنـزل الجميـل . . . بقي الفينيقيـون عندنا طوال العام وتزودوا بمؤ ن كثيرة ملؤ ا بها عنـابـر سفينتهم ، وعنـدمـا هيأوا أنفسهم للسفـر ، أرسلوا رسولاً لإخطار المرأة ، وكان شخصاً ماكراً جداً ، إذ دخل إلى منزل والدي وهو يمسك بيده عقداً ذهبياً انتظمت فيه حبـات الكهـرمـان . وفي القـاعـة ، أخـذت أمي المحترمة وخادماتها يجسْن العقد ليشبعن أنظـارهن منـه واقتـرحن سعـراً له ، غير أن الرجل لم ينطق بكلمة واحدة ، بل أشار إلى المرأة التي انطلقت إلى السفينة وقد امسكتني بيدي . مشينا مسرعين حتى وصلنـا إلى الميـنـاء الـذي أعـرفـه جيداً ، فهناك كانت ترسو السفينة السريعة . وسلك البحـارة الطـرق التي يعـرفـونها جيداً ، ولستة أيام «أرسل «زيوس» ريحا مواتية ، وكنا نبحر ليل نهار ، ولكن حينما أظهر «زيوس» ابن «كرونوس» اليوم السابع ، قامت

«أرتميس»(*) الصيادة برمي المرأة الفينيقية بسهامها وأصابتها، فسقطت وسمعنا صوت ارتطـام جسـدهـا في الفنطـاس، مثـل ارتطام النورس في البحر. فقام البحارة بإلقاء جسدها إلى عجول البحر. أما أنا، فقد تركوني هناك، مقبوض الصدر وكانت الريح والماء يدفعاننا نحو «إيثاكا»، حيث اشتراني «لايرت Laerte » بحرٍّ ماله»(١٥) (**).

ورغم بعض أعمال القرصنة من هذا النوع، وضمن تلك الظروف، بإمكاننا أن نلاحظ أن الجارية الصيدونية نفسها ـ والتي اتفقت سرا مع مواطنيها ـ كانت هي أيضاً ضحيـة عمليـة قرصنـة قام بهـا القـراصنة الإغريق. ومما لاشك فيه أن الفينيقيين قد حازوا، رغم محـافظتهم على علاقـات متـواصلة مع زبـائنهم الأجـانب، على شهرة واسعـة كرجـال مهـرة ودهـاة، فنحن نعـرف أنهم كانوا يحترمون تعهداتهم التجارية، وتلك هي أول نتيجة من نتائج هذه التجارة الحذرة، ويوجد من ذلك الكثير.

إن الطـابـع التجـاري لهذا التوسع، والسلع ذات «النوعية العالية» التي كانت الـورش الفينيقية تنتجها، والتي صدرت إلى مختلف بلدان المتـوسط، تُخفي قدرة خلاقة لهذا الشعب الذي لم يرضَ أن يسكب مهارته التقنية في مصنوعات مبتذلة.

لقـد كان لدى جبيـل وصـور وصيـدا فنـانـون حقيقيـون، فالصاغة على سبيل المثـال، كانـوا يبدعون أعمالاً ذات إتقان عالٍ جداً حازت على إعجاب الخبراء في هذا المجال. ويكفي إن رجعنا إلى «هوميروس» إن نورد مقطعاً من «الإلياذة» - 743s]

* هي، في الأساطير اليونانية، ابنة «زيوس» وتُمثّل بهيئة صيادة شابة، وكانت إلهة الطيبة والخصب.

المحقق

* * إذ صيـاغـة قصـة من هذا النوع، وبهذه التفاصيل، تترك لدى القارىء المتمعن انطباعاً فإنها لاتخلو من الخيال. إذ أننـا نفهم، من أسلوب القصة، أن الولد الذي اصطحبته المرأة معها هو ابن ذلك الثري صاحب المنزل الذي كانت تعمل في خدمته. فهل يقبل العقل أنها تستطيع أخذ الولد معها بهذه السهولة، وأمام أعين أهل البيت! وهو الأمر الذي لم يعلق عليه الكاتب.

المحقق

[XXIII يتحـدث فيـه عن كأس قدمت كجـائـزة في سبـاق: «بـاطية»(*) فضية تزن ستة أوزان، هي أجمل ماهو موجود في بلاد الدنيا، صنعها نقاشوا صيدا بمهارة، وجلبها الفينيقيون فيما بعد في البحر المعتم، كي يعرضوها في الموانيء [. . . .]».

وعلينـا أن لاننسى أخيـراً أن الإغـريق، وهـم السباقون في كل شيء(**)، كانوا مدينين مباشرة للفينيقيين بإبتكار أساسي ساهم في انتشار فكر وتاريخ الثقافة الغربية: إنهـا الأبجـديـة الصـوتية. ونحن نسلم عموماً، لأن هذه المسألة لم تُحل بعد بشكل حاسم، أن الكتبـة الكنعـانيين كانـوا أول من اقتبس الكتـابـة «الفينيقيـة البدائية» من أصـول فينيقيـة وعبـريـة وآراميـة(***). ولم تكن بعض هذه المجموعات تضم، ومنذ ماقبـل أواسـط الألف الثـاني ق. م، سوى عدد قليـل من الإشـارات توسعت بشكـل تدريجي، إذ أُحصي في بعض الـوثـائق المكتشفـة في أطلال مدينة أوغاريت (رأس

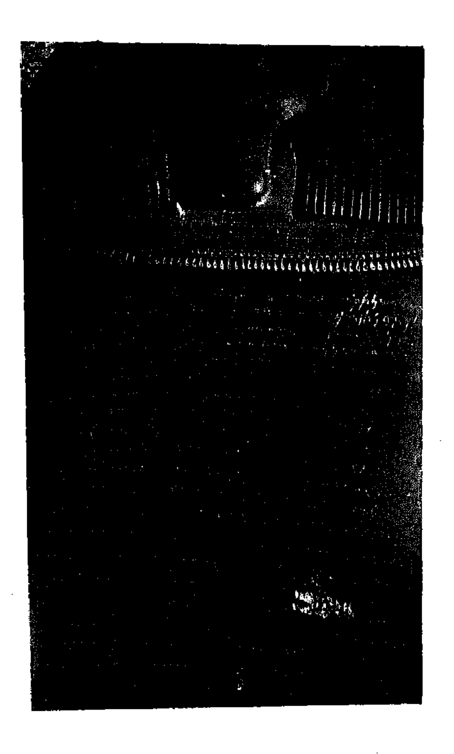
---

* باطية: إناء لمزج الخمر بالماء، ذو عروتين، كان يستعمله الرومان واليونان.

المترجم

** لابـد من الاعتـراض على هذا القـول الذي يورده المؤلف، وألاحظ أنه يناقض نفسه أحياناً، فهـو في سيـاق حديثـه، سواء فيمـا سبق أو فيما سيلي من فصول، يُبرز الفينيقيين والبونيين كأمة سباقة في مختلف الميادين في وصفهم بأنهم ابتكروا التجارة، إلى وصف دساتير ـ استناداً لقول أرسطو في مطلع الفصل التالي. «بأنها أرقى من الدساتير الأخرى» أو وصف ملاحتهم بالتفوق والإبتكار في العالم القديم كافة، وبعد ذلك يعتبر الإغريق سباقين في كل شيء! إن الأدلة الثابتة على أقدمية، وتفوق الفينقيين ـ وسكان الهلال الخصب أسلافهم عموما ـ في مختلف النواحي الحضـاريـة لأكثـر من أن أحصيهـا هنا. فالمعروف اليوم أن تشريعات منطقة الرافدين ـ وأخص بالـذكـر منهـا قوانين «حمـورابي» ـ أقـدم وأكمـل تشـريعـات عرفهـا التـاريخ حتى ان، كما أن مكتشفات المدن الكنعانية في غور الأردن «أريحا» مثلاً، والتي تعود لأكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ومكتشفات أرشيف مملكة «إيلا» ـ والتي لاتزال ألواحها بانتظار الدراسة والبحث الدقيقين، والتي تعود إلى منتصف الألف الثالث ق. م. كل هذا يعود لفترات لم يكن فيها لدى الإغريق مايعطيهم الأسبقية في كل شيء. واكتفي هنا بما يذكره باحث الآثار البريطاني «M E L. Mallowan» في الجزء الثاني من كتابه «NImruuud and ist Remains» الصادر في لندن 1966،

←



صيدا، ناووس الملك «اشمونازار» (تفصيل)

إذ يقـول: «وقـد بقينـا طويـلاً نعتقـد أن الإغريق هم أول من استخدم طريقة الكتابة على ألواح الشمـع وذلـك في القـرن الثـامن ق.م. غيـر أن الإكتشـافـات التي وجدت في القصر الشمالي الغربي أثبتت أن الآشوريين سبقوهم إلى ذلك قبل ثمانمائة عام». هذا وإن المعبد الذي أعلن باحث الآثـار الألمـاني «Hauptmann» ـ من جامعـة هايـدلبـرغ ـ عن اكتشافه العام الماضي في موقـع «نيفـالي جوري» شمـالي مدينـة أورفة السورية ـ الخاضعة اليوم للسيطرة التركية ـ والذي يعود لسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، ماهو إلا دليل جديد على قدم الحضارة السورية وتفوقها على الإغريق وغيرهم.

المحقق

** عند الحديث عن ابتكار الأبجدية في تلك الحقبة القديمة، يبدو تعبير «أصول عبرية» غير مقنـع. فالمعـروف أن العبرانيين تبنوا اللغة الكنعانية وتحدثوها بلكنة خاصة أعطتها طابع لهجة مميزة عُرفت فيما بعد باللغة العبرية. واستخدموا الرموز الكنعانية في الكتابة فكيف تكون لهم إذن أصولٌ لغوية؟.

المحقق

شمرا)، في عام 1929، ثلاثون رمزاً من هذه الرموز، يمثل كل واحدٍ منها مقطعاً ويشار فيها إلى الحرف الساكن فقط(*)، كما أن النقوش التي اكتشفت في جُبيل على قبر الملك «حيرام»، والتي ربما تعود إلى القرن التاسع ق.م، لاتستخدم سوى اثنين وعشرين رمزاً. وقد استعار الإغريق هذه الأبجدية وشذبوها وطوروا فيها، وهم الذين تأثروا بها إلى حد أنهم احتفظوا بأسماء ذات أصل سامي للإشارة إلى حروفهم(**)، وأضافوا إليها رموزاً جديدة لكتابة الأحرف الصوتية، ولقد انتقلت هذه الأبجدية إلى الشعوب اللاتينية وإلى بقية شعوب العالم الغربي بواسطة الأتروسكيين.

الروّاد الفينيقيون على الشواطيء الغربية للبحر الداخلي (المتوسط)

كان العالم الغربي قد أقام منذ زمنٍ بعيد علاقات أقتصادية مع فينيقيا. بيد أن أول مشكلة تطرح في هذا المجال هي تاريخ التوسع الفينقي. ومثل كل مسألة تتعلق بتاريخ العصور القديمة، لايمكن الدخول فيها إلا حينما يتم جمع الشواهد التي يقدمها الكتاب الكلاسيكيون، ومن ثم مقابلة هذه الشواهد مع مختلف الوثائق التي يمكن أن تقدمها لنا الكشوف الآثارية. وبطبيعة الحال، لن نلتزم نحن بأية فرضية. كما أن أعمال الاختصاصيين الدارسين لهذه الظاهرة أو تلك من المجالات التي تهمنا ـ كالمستشرقين ومؤرخي أفريقيا الشمالية القديمة وعلماء الآثار الفينيقية والبونية، واللغويين والنحويين العاملين في الدراسات السامية ـ تقدم لنا الشيء

---

* لم تكن رموز الكتابة الأوغاريتية تمثل مقاطع كما يعبر المؤلف، بل كانت أبجدية حقيقية كتبت بالرموز المسمارية.

المحقق

** المقصود: بتعبير آخر، أنهم أخذوا مع كتابة الحروف كيفية لفظها بالكنعانية، فالألف الكنعانية أصبحت «ألفا» والبيتْ «بيتا». الخ.

المحقق

الكثير، إلا أن كل ماقدمه لنا هؤلاء لم يكن سوى أجوبة عابرة كان مضمونها بعيداً دوماً عن إدراك حلول متقاربة.

إن الصعوبات تتراكم حينما نهمّ بذكر النتائج، فالاعتبارات التي تتبعها لاتهدف إلاّ إلى تجاوز مجال التخمينات. وفي أحيان كثيرة، نكون بعض الفرضيات مفضلة لدينا على البعض الآخر، دون أن يكون ممكناً، وفي إطار هذا العرض العام، أن نبرز أسباب هذا الاختبار.

إن التضارب في مسألة دخول الفينيقيين إلى البحر المتوسط الغربي راجع في الأساس إلى مشكلة تحديد تاريخ هذا الدخول. إن الجدل يحتدم بين أنصار «تسلسل تاريخي أعلى Chronologie haute » الذين يرون أن دخول الفينيقيين يرقى إلى القرن الثاني عشر ق.م، وبين أولئك الذين يدافعون عن «تسلسل تاريخي أدنى Basse » إذ يرى هؤلاء أن الدياسبورا «الشتات» الفينيقي بدأ بعد قرن ونصف من التاريخ السابق، أي بدءاً من القرن العاشر ق.م (مع بناء مدينة «قادش Gades » في حوالي 970 ق.م، ومدينة «أوتيك Utique » حوالي 950 و«قرطاجة» في عام 663 ق.م)[١٦].

ومن الواضح أن تشابك مختلف المعطيات الآثارية والنقوشية والأدبية لايسمح بالوصول إلى حلول تحوذ على الرضى، كما أنه من الصعب علينا الاعتراف بوجود ثغرة في المعطيات التي أوردها الكُتّاب الكلاسيكيون مثل (ثيوسيديد «Thucydide» وبليني الأقدم «Pline l'Ancien» وديودور الصقلي «Didore de Sicile» وفيليوس باتركولوس «Velleius Paterculus») الذين رأوا أن التوسع الفينيقي في الغرب. وكنتيجة لإستقلال فينيقيا الذي تلى غزوات شعوب البحر - يمكن أن يكون قد بدأ منذ نهاية القرن الثاني عشر ق.م، ومن ناحية ثانية، تثبت المعطيات الموجودة في الوثائق الآثارية القديمة جداً هذا الوجود الفينيقي. غير أنه من النادر، في الواقع، وجود وثائق يمكن ردّها إلى ماقبل القرن الثامن ق.م. ويستنتج البعض من ذلك أن التوسع الفينيقي في أفريقيا وأسبانيا تبع توسع اغريقيي «ساموس» وإنه قد لايرقى إلاّ إلى مابعد القرن السابع قبل الميلاد[١٧].

وفي الحقيقة، تُترك هذه الفرضيات اليوم شيئاً فشيئاً، إذ لم يعد بالإمكان الأخذ بها. وبالمقابل، تبدو المواقف التي يدافع عنها أنصار تسلسل تاريخي يتفق مع مجمل ماأوردته نصوص الكتاب الكلاسيكيين وكأنها تقترب من الحقيقة التاريخية. وعلينا أن نلاحظ أولاً أنه لن يكون بوسعنا الإنطلاق من نتائج حصلنا عليها حديثاً من بين الأنقاض الأثرية كي نستخلص منها نتائج محددة. لذا يرفض الكثير من المؤرخين التسليم بأن الدليل a Silentio ـ ويعني نقص الوثائق الآثارية العائدة إلى حقبٍ تاريخية قديمة جداً ـ يمكن أن تكون له قيمة أكيدة تهدف إلى إزاحة التأريخ المفروض بواسطة المراجع الأدبية. أما فيما يخص المادة الآثارية، فإننا نعرف أن وضوح التواريخ كان، ولأكثر من مرة، مدار نقاش. غير أنه علينا أن نفهم كيفية حدوث التوسع التجاري وأن نميز بين مراحله.

قد لاترقى أقدم الآثار المكتشفة إلى زمن المراكز الفينيقية الأولى، وهي تخص مراكز تجارية بسيطة كانت تديرها مجموعات صغيرة مهيأة لعقد صفقاتٍ مع أهالي البلاد الأصليين. وكان بإمكان التجار الذين يبحرون بمحاذاة هذه المحطات ألا يبقوا فيها إلا الوقت الذي يستغرقه عقد بعض صفقات المقايضة أو الوقت الذي تستغرقه دراسات مناطق الزبائن المحتملين. ولم تترك مجموعات «ماقبل الاستعمار» هذه، إلا نادراً، آثاراً تدل على وصولها أو إقامتها. وفي المقابل، تسجل الشواهد الآثارية بناء مراكز تم انشاؤها في عصر لاحق ـ خلال سنوات أو ربما خلال أكثر من قرنٍ كاملٍ، وكان دخول الفينيقيين قد تم قبل ذلك بوقتٍ طويل ـ وعلى هذا، فإن بمقدورنا أن نتحدث عن احتمال وجود عمليات تجارية ـ نطلق عليها اسم اليوم تسمية «دراسة السوق Les etudes des marches » ـ وكانت هذه العمليات، بالتجربة، رابحة، إذ تمّت بواسطة وكالات ثابتة تطورت فيما بعد وأصبحت نوّيات لمستعمرات حقيقية اجتمعت فيها العائلات الفينيقية التي تركت وطنها، دون أن يكون لديها فكرة بالعودة، واستقرت في تلك الأماكن حاملة معها تنظيماتها الأصلية، الاجتماعية والدينية. هذا وأن مدن المقابر تقدم للآثاريين أقدم الوثائق كتاريخ تقريبي «لموجة» الهجرة الثانية تلك غير أننا مازلنا حتى الآن بعيدين عن الوصول إلى طلائع هؤلاء

الــرواد الــذين واصلوا تقــدمهم إلى ماوراء «أعمــدة هرقــل» ، ولم يكن لدى هؤلاء المغامرين سوى هدف واحد هو أن يملؤا عنـابـر سفنهم بالمعـادن الثمينة والبضائع النادرة، ثم يغيِّروا اتجاههم ويُقلعوا من جديد متجهين إلى شواطيء «فينيقيا».

ومن الطبيعي أن يبـدأ الفينيقيـون، وخلال تطور توسعهم هذا، بالابتـعاد نحو الجـزر المتـواجـدة على طول سواحـل البحـر المتـوسط الشرقي، من كيليكيا وتخوم الأنـاضـول، إذ وجـد في «زنجـرلي Zincirli» في سوريـا الشمـالية، نصبٌ يعود إلى القـرن التـاسـع ق . م كُتبت عليه تقدمة إلى الإله «بعل حمّون» باللغة الفينيقية إضافة إلى أنهم وصلوا إلى مصب دلتا نهر النيل، إذ يورد «هيرودوت 112, II» أنه كان يوجد في مدينـة «ممفيس» مركـز تجاري اسمه «معسكر الصيدونيين» كانت تُعبد فيه الإلهة «عشتـروت» (عشتـار). أمـا قبـرص، التي كان غنـاها بالمعادن والمنتجات الزراعية مشهـوراً، فقـد أسست فيهـا مراكـز فينيقيـة في زمن مبكر جداً، مثل «كيتيون Kition» التي كانت تابعــة لملك صيــدا والتي لجأ إليهــا «لــولي» عام 701 ق . م هربــاً من «سنحاريب» كما ذكرنا فيما سبق، كما دخلت «رودس»، «كريت» «جزر سيكلادس» وبـاقي جزر بحـر أيجـة ضمن مجـال المـلاحـة الفينيقية. وتمكن هؤلاء البحارة من الوصول إلى جزيرة «مالطا». وفي هذا المجال كتب «ديودور الصقلي 12,V»: «لقد استعمـر الفينيقيـون هذه الجـزيـرة، إذ استـولـوا على هذا الملجأ الموجود في عرض البحـر والمحـروم من المـرافيء خلال توسيـع رحـلاتهم التجـاريـة باتجـاه المحيط الغـربي». إن الكشـوف الأثـاريـة[١٨] تسمـح لنـا التأكيـد بوجود مرحلة فينيقية سبقت احتـلال القـرطـاجين لهـذه الجزيرة. كما لعبت جزيرتا «غوزو Gozzo» و«بانتـالاريا Pantelleria» دور محطتي تبديل، في حين كانت صقلية وسردينيا تمثلان أسواقاً هامة.

لقـد نوقش طويـلاً نص الكـاتب اليوناني «ثيوسيديد» [6, 2, VI] الذي يشرح فيه كيفيـة الـدخـول الفينيقي إلى جزيرة «صقلية»، ويتحدث عن تجمعاتهم، بُعيد قدوم الإغريق إلى نقاطٍ في المنطقة الساحلية من الجزيرة، وخصوصاً إلى «موتيي Motye»، وهنـا، تؤكـد البقـايـا الأثـريـة[١٩]، مرة أخرى، قيمة النص الأدبي. فلقد أنشئت

«موتيي» على الطرف الشرقي لصقلية، وفي موقع مثالي لمرفأ فينيقي: جزيرة صغيرة مساحتها خمسون هكتاراً، ذات مرسى قليل العمق، غير بعيد عن عرض البحر، تحميه جزيرة متطاولة استخدمت كمكسر للأمواج مما سمح بالملاحة الساحلية في جميع الأوقات وفي كل الفصول. كما وجدت في المقبرة القديمة الواقعة في الجزيرة الصغيرة، أنواع مختلفة من السيراميك الذي يؤكد وجود مركز فينيقي، ربما يعود إلى القرن الثامن ق.م، ويمكن أن يكون قد سبق فترة الإحتلال القرطاجي الذي تواصل حتى عام 397 ق، م، وهو تاريخ تدمير المدينة من قبل «سيراكوز». وفي «سردينيا»، استخرج من موقع مستوطنة «نورا Nora» نقش اتفق الأخصائيون حديثاً على أنه يعود إلى القرن التاسع ق.م. ووجدت في جزيرة «سولسيس Sulcis» الصغيرة [واسمها اليوم سان انتيوكوس Saint Antioco، وتقع جنوب غرب سردينيا] آثار تؤكد التواجد الفينيقي فيها.

ونشير هنا إلى وجود صعوبات جمة، فيما يخص هذه المكتشفات، تكتنف العمل حين يراد التمييز بين المستعمرات الأولى «Primaires» والثانية «Secondaires»، أي تلك التي يرقى تأسيسها إلى مرحلة التوسع الفينيقي، وتلك المتأخرة: أي التي تعود إلى فترة الهيمنة القرطاجية. فهاتان المرحلتان، في الحقيقة، تتعاقبان بل وتتداخلان أحياناً على أساس تطور معقد. لقد وقعت «فينيقيا»، منذ بداية القرن السابع ق.م، تحت السلطة المركزية الآشورية، ومن المعروف أن هذه السلطة التي فرضها ملوك «نينوى» لم تتوطد بشكل دائم، إذ حدثت عدة محاولات استقلالية كالتي جرت عام 676 ق، م، إذ دُمِرت «صيدا» حينما ثارت، ونُفي سكانها. أما بالنسبة لـ«صور» ـ التي كانت علاقاتها مع «مصر» تحدُّ من طموح الآشوريين ـ فإن ملوكها، ارغموا في بعض الأحيان على دفع الجزية لأسيادهم، ورغم أن هذه المدينة كانت محرومة من العمق الجغرافي فقد بقيت منيعة في جزيرتها. ونتيجة لهذه الهزّات، فقدت «الممالك» الفينيقية استقلالها شيئاً فشيئاً، كما توقفت وشُلت في النهاية المعاملات التجارية التي كان عمرها عدة قرون ـ مع أن البحرية التابعة لمدينة «صور» بقيت محافظة على قوتها لفترة طويلة (وقد وُضعت في

بعض الأحيان في خدمة الآشوريين كما حدث في الأعوام 671, 676 ق، م).

إن المراكز التجارية التي أسسها الملاحون القادمون من الساحل الفينيقي في الغــرب كانت قاعــدة لهـذا العـالم البـوني الـذي كان يتطـور سريعـاً حتى تمكنت «قـرطـاجـة» في النهـاية من التفوق فيه. لقد ورثت الحضارة البونية العادات الأصيلة للوطن الأم. ونتيجـة لغيـاب أي معيـار أكيـد، من المشكـوك فيـه أن نطالب بضرورة تصنيف هذا المركز أو ذاك ضمن إطار مرحلة التوسع الفينيقي بدلاً من الفترة التي كان فيهـا «البـونيـون Poeni »، أو فينيقيـو الغـرب قد بدأوا بأنفسهم بنـاء مراكـز تجارية أو مستعمرات لحسابهم الخاص.

وخلال القرن السابع الميلادي، تواصلت على مايبدو العلاقات بين المرافيء الفينيقيـة والقبـرصية من جهة، وبين المراكز التي أنشئت على السواحل الافريقية من جهـة أخـرى. إذ أن بعض هذه المـراكـز كانت تستخدم كقواعد للترانزيت أو كمراكز لتوزيع النشاطات التجارية للمنتجات الفينيقية. وهذا مايفسر لنا عدم وجود أية فجوة في سياق تطور العالم الفينيقي - البوني.

إن هذا التطور لم يترك آثاره فقط على سواحل الجزر الإيطالية، إذ تم اكتشاف العـديـد من قطـع العاج وعلب المجوهرات المحلاة بتزينات ذات أصول سورية في مدن «أتـروريـا» و«لاتيـوم» القـديمـة. وهـذا مايحمـل على الاعتقاء بإمكانية وجود مستعمرة صورية في «روما»(*).

لقـد أنشأ الفينيقيـون، على الســاحـل الأفـريقي وماوراءه، مراكزهم التجارية الرئيسية. وحقق بعضها ازدهاراً مدهشاً فاق ازدهار «المدن الأم». إن تلك المراكز لم تكن موجودة فقط على سواحل المتوسط بدءاً من الواجهة الشرقية لتونس وحتى أعالي «جبل طارق»، بل أيضا على سواحل المغرب واسبانيا المتوسطية.

---

* طبعاً ليس المقصود هنا «روما» كمدينة، وإنما الأرض الإيطالية

المحقق

«إن الجــزائــر تنتظـرني وسفن ترشيش في الأول لتأتي بينـك من بعيـد، وفضتهم وذهبهم.

(أشعيا 60 - 9)

ظهرت في أيامنا هذه مواد آثارية هامة من المراكز الفينيقية والبونية في الغرب، يرقى بعضهـا. بإستثنـاء بعض تلك التي استخـرجت من اسبـانيـا وأفـريقيا الشمالية وأوتيكا Utique (**). - إلى نهاية الألف الثانية ق.م. حسب بعض التقديرات. ومن الممكن ألا تكـون تلك الآثـار الأكثر قدمـاً سابقـة على النصف الأول للقرن الثامن ق.م. وإذا لم تسمـح المعطيـات الآثـاريـة أن نتمكن من تحـديـد بدايـة التـوسـع الفينيقي، فقـد نقـل إلينـا الكتـاب القـدامى، بالمقابل، بعض الإيضاحات، وليس المقصـود هنـا امكـانيـة وجـود شهادات مباشرة تهدف إلى توضيح ماقبل التاريخ هذا «Protohistiore»، وتسمــح لنــا أن نعــرف، بفضــل الكتــاب أنفسهم أو بواسطـة معــاصـريهم، عوامـل هذا الاستيطـان عنـاصـر تسلسـلٍ تاريخي مبني على أسس لايمكن دحضها.

وفيمـا يخص المستـوطنـات التي تم انشـاؤ هـا في أفـريقيـا، يستخدم الأدباء الكـلاسيكيـون مراجـع قديمـة جداً مثـل: العادات: «القصص الفينيقية» ومصادرها مختلفة لم نتمكن من الوصول إليها. ونضيف أخيراً أنه، ورغم أن هؤلاء الكتاب قد أجمعوا على أن الفينيقيين قد سبقوا الإغريق إلى المتوسط الغربي الذين تمكنوا من الـوصـول إلى «كـوميس Cumes» و«صقليـة» في حوالي القـرن الثـامن الميـلادي، نُضيف أنـه من غيـر المشكـوك فيـه أن يكـون الهـدف إبـراز الحقيقة التاريخية. «إن

** أصـل هذا الاسم من الكنعـانيـة «עתיקא عتيقـا» أي «المدينة القديمة». وقد بقي هذا الاسم متداولاً فترة طويلة من الزمن.

المحقق

الفينيقيين الـذين كانـوا يبحـرون بلا توقف منـذ عهـد بعيـد بقصـد التجارة، كانوا قد أسسـوا الكثير من المستعمـرات على سواحـل ليبيـا وفي الأجـزاء الغـربيـة من أوروبا». هذا ماكتبـه «ديـودور الصقلي 1, 10, V » ـ معتمـداً بذلـك على المؤرخ الاغـريقي «تيمي دوتورمينيون Timee de Tauromenion » الذي عاش بين عامي 340-250 ق.م ـ مشيراً بذلك إلى التوسع الفينيقي في ليبيا، أي في البلاد التي أطلق عليها اللاتين فيما بعد اسم «أفـريقيـا». ويـرى «ديودور الصقلي»، وهو بذلك يردد فكرة قديمة، أن التجارة كانت، بفضل وجود مراكز تجارية، سابقة على بناء المستوطنات، وربما كان النجاح الذي حققته هذه التجارة هو الحافز الذي أدى إلى خلق تلك المستوطنات.

تتفق المصـادر الأدبيـة إذن مع المعطيـات الآثارية الحديثة في الإشارة إلى أن أقدم المستوطنات الأفريقية التي بناها الصوريون هي «أوتيكا» التي تقع في منتصف الطـريق بين «تـونس» و«بيـزرت»، على بعـد اثني عشر كيلومتراً من البحر، إن سبب وجـود المـدينـة في موضعهـا الحـالي، في داخـل البـلاد، عائد إلى تغير مجرى نهر «المجردة» وإلى امتلاء الخليج الصغير بالوحول. وتقع «أوتيكا» في نقطة مختارة على حافة نتوء بمواجهة مضيق صقلية، وعلى المحور الذي يربط مدينة «صور» بـ«أعمدة هرقـل» [جبـل طارق]. لقـد لعبت هذه المدينة بالتأكيد، دوراً هاماً في المشروعات التجـاريـة الفينيقيـة كمركز تجاري وكمحطة استخدمت في عمليات التجارة البحرية اللامشروعة. وتم الكشف في بعض الحفر العميقة في مدينة المقابر عن آثار جنائزية مثـل «الجُعْـلان والتمـائم والخزف» ترقى إلى نهاية الألف الثاني ق.م[٢٢]. ومثل هذه الأشياء لا تسمح بالتأكيد على وجود «تسلسل تاريخي أعلى» ولكن، من الواضح، أن اكتشاف هذا الموقع لم ينته بعد.

ستكون لدينا فرصة التوسع في هذا الموضوع في الفصل القادم حين نتحدث عن أصـل مدينـة «قرطاجة»، التي بُنيت بالتأكيد بعد «أوتيكا» ـ ونشير أيضاً، وقبل أن نتـرك الـواجهـة الشمـاليـة الشـرقيـة لأفـريقيـا، إلى مركز اخر يعود ذلك العصر وهو: «هادرومانتوم Hadrumentum » [سوسة] التي بناها الصوريون أيضاً.

أما فيما يخص سواحل الجزائر والمغرب المتوسطية، فإننا لانملك أي مصدر

أدبي يوضح لنا حالة المراكز التجارية التي بناها الفينيقيون. غير أن الأبحاث الآثارية تسمح لنا بالإشارة إلى مستعمرات تعود إلى عهد التوسع الأول. إن هذه المراسي، التي استخدمت في البداية كمحطات توقف على الطريق إلى المحيط الأطلسي، كانت كثيرة العدد. ونذكر منها: «تيبازا Tipasa» الواقعة في غرب الجزائر، وكذلك، المركز الذي كان موجوداً في «مرسى مدّاخ Madakh» والواقع على مبعدة من خليج «وهران»، وجزيرة «رشغون Rochgoun» التي توجد في عرض مصب وادي «تافنا Tafna» والتي كانت تحوي على بناء يعود إلى القرن السابع ق.م.

وفيما وراء «أعمدة هرقل» تابع الفينيقيون تقدمهم على محورين. فعلى الشواطىء المغربية، أنشأوا في «ليكسوس Lixus»]لاراش[مركزاً تجارياً، كان في رأي «بليني الأقدم» سابقاً على كل المراكز التجارية الموجودة في أفريقيا وأسبانيا. وسنرى فيما بعد أهمية الدورالذي لعبه هذا المركز كمحطة توقفٍ باتجاه السودان، على الطريق المؤدية إلى مناجم الذهب. وزرع البحارة الفينيقيون أخيراً، وعلى بعد ستمائة كيلومتراً إلى الجنوب من «طنجة»، قاعدة فوق صخرة بارزة في خليج «الصويرة» [Ex- Mogadore]، وهي جزيرة حقيقية تقع في «نهاية العالم» على حدود المجهول.

أما المحور الثاني الذي سلكه الفينيقيون فكان باتجاه موطن الثروة Eldorado، إلى اسبانيا. كتب «ديودور الصقلي»: «لقد جمع الفينيقيون بعدما نجحوا في مشاريعهم، ثروات عظيمة، وعزموا على مواصلة الإبحار فيما وراء «أعمدة هرقل»، في البحر المسمى بالمحيط، وبنوا في «آروبا»، أول الأمر، وعلى مقربة من المضيق، مدينة أطلقوا عليها اسم «غادير Gadir» (20, V).

هذا هو أصل مدينة «غادير» أو «قادس» Gades ـ وهي كلمة شاع استخدامها عند الفينيقيين للدلالة على المكان المحمي أو الأرض المحاطة بسور ـ. ومثل مواضع أخرى، بُنيت هذه المدينة فوق جزيرة قريبة من الشاطيء. ورُبط هذا النتوء الصخري الموجود قبالة مصب نهر «الريو غواديليت Rio Gudalete» فيما بعد باليابسة. ولايسمح لنا الركام الحديث الذي يغطي الموقع بنبش المقابر القديمة.

ورغم حجج أنصـار التسلسـل التاريخي الأعلى، الذين يتمسكون بالمعطيات التي تقـدمهـا الآثـار الـدينيـة، فإن هنـاك فجـوة واسعة بين المعلومات التي تقدمها الآثار القـديمـة المكتشفـة والإشـارات التي أوردها الكتاب الكلاسيكيون. إذ استخلصت بعض النصـوص أن «الصـوريين» هم الذين بنو«قادس» في حوالي عام 1110 ق. م، أي قبل عشر سنوات من بناء «أوتيكا».

وليس بمقدورنا أن نفصل مسألة أصل المستوطنات الفينيقية عن قضية أخرى نُوقشت مطولاً(٢٣): هل كان بناء «قادس» له علاقة باستغلال المنطقة الخيالية المسماة «تـرشيش Tarsis» أي هل علينـا أن نربط بين «قادس» و«ترشيش» تلك؟ و«ترشيش» تلك؟ وبـالتأكيـد، ليس هنـا المجـال الـذي يمكن أن نتـوسع فيه في هذا الموضوع الشـائـك. ولكن، وضمن المعطيـات الحـاليـة للبحث، نسمح لأنفسنا أن نقول أن تسميـــة Tarshish» ذات الأصـــل الســامي، التي ورد ذكـرهـا عدة مرات في العهـد القـديم، يمكن أن تنطبق على اسم «Tartessos» الـذي ورد ذكـره في عدة نصـوص قديمـة وخصـوصـاً على لسـان «هيـرودوت». ولا يدل هذا الاسـم على مدينة بل على منطقـة يمكن أن تكـون واقعـة في وادي «بـايتيس Baetis» الأسفـل [الـوادي الكبير guadalquivir] وهي منطقـة غنيـة بالعـروق المعـدنيـة مثـل ركـائز الفضة والرصاص الممزوج بالفضة والنحاس والزنك. كما كانت الروابط متاحة، عبر عمق تلك البلاد الغنيـة بالمنـاجم، مع عدة محـاور متجـاوزة الحواجز التي فرضتها السلاسل الجبلية وتسمـح بالـوصـول إلى ساحـل البحر المتوسط. وعلى هذا، فمن المؤكد أن مواقع العـديـد من المـراكز الفينيقية كانت موجودة على هذا الساحل، ويمكن أن ترقى إلى عصـر بعيـد، وهي دون شك معـاصـرة لـ«قـادس»، مثـل: «لـوس توسكـانوس Los Toscanos» على مقـربـة من «ملقـا»، وترايامار Trayamar» الواقعة إلى الشرق قليلاً في ساحل «المنقّر Al Munecar» حيث اكتشفت مقبرة في موقع مدينة «سيشي Sexi» القـديمـة. كان موقـع مدينـة «قـادس» يضم مستـودعاً تجارياً. ويورد لنا «ديودور» أن المواطنين الأصليين كانوا يجهلون استخدام الفضة، وكان الفينيقيون الذين نزلوا في المـركـز التجاري، يحصلون على منتجات «ترشيش» المعدنية مقابل سلع رخيصة.

ويقـومـون بعـد ذلـك يتحميـل هذه المنتجـات المعدنية على ظهور سفن معدة لهذا الغـرض، قادرة على عبـور المسـافـة الطـويلة بين المحيـط الأطلسي ومرافيء البحر المتـوسـط الشـرقيـة وذلـك بفضـل سلسلة المحطـات التي أنشئت على طول هذا الطـريق، ونـلاحـظ من جهـة أخـرى، أن اسم «ترشيش» انطلق على عدة مواقع في الشرق كما في الغرب، مثل «تارسي Tarse» في صقلية، وجميع هذه المدن تشترك في كونها غنية بالمناجم. ونضيف أخيراً، أن كُتّاب النصوص التوراتية، في حديثهم عن «سفن ترشيش»، لم يكونوا بالتأكيد يقصدون دائماً تلك السفن التي تعرج على «قـادس» كي تجلب منهـا المعـادن الـواردة من «تـرشيش ـ تارتسـوس - Tarshish Tartessos» في اسبـانيـا. فنحن نعـرف أن «سليمان» الملك أرسل مثل هذه السفن نحـو بلاد «أوفيـر» البعيـدة. أما ذلك التعبير الذي أخذ مدلولاً واسعاً جداً للإشارة إلى سفن تجـاريـة ما، فهـو يعـود في جذوره إلى التنظيمـات التقنية التجارية التي ربطت «صور» بـ«ابنتها» اسبانيا.

هكـذا كان العـالم الفينيقي في أوج توسعه، لقد كان مجد ورخاء «صيدون»، وأكثر منها، مجد ورخاء مملكة «صور» يبدوان كطغيان نعمة في نظر العبرانيين. وكان أنبيـاؤهم يتميـزون غيظاً من النجاح الفذ الذي كان موضع شبهة في نظر العبرانيين. فهل من الممكن أن يكون «بعل» و«عشتار» و«أشمون» و«ملقارت»، آلهة كنعان، أكثر قوة من «يهوه»؟ يعرض لنا «حزقيال» في احدى «تجلياته»، وفي صورة بديعة هي في نفس الوقت صفحة خالدة في التاريخ، يعرض لنا المكان الواسع الذي احتلته صور المتجهة إلى «قلب البحور». ولكن، كان على هذه المدينة أن تواجه قدراً مأساوياً. لقد كان هذا النبي، الذي كتبت أقواله في الربع الأول من القرن السادس ق. م، كان شاهـداً على خراب «أورشليم» ومعبـدهـا عام 587 ق. م، قبـل أن يُنفى هو أيضاً إلى «بابل». إنه يُبشر وشكواه تغطي تهليلاً عميقاً بزوال قوة هذه المدينة الفينيقية:

«ويـرفعـون عليـك مرثـاة ويقولون لك كيف بُدت يامعمورة من البحار الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانهم» (17، 26). ففي لحظـة الكارثة كانت «صور» قد تركت «أورشليم» تواجه قدرها بل وشمتت

لخـرابهـا. إلا أن دورهـا سيأتي لتخرب هي أيضاً في قلب هذه الامبراطورية البحرية التي صنعت أمجادها:

«هكذا قال السيد الرب، ياصور أنتِ قلت أنا كاملة الجمال. تخومك في قلب البحور، بنّاؤوك تمموا جمالك، عملوا كل ألواحك من سرو سنير (حرمون). أخذوا أرزاً من لبنـان ليصنعـوه لك سواري. صنعـوا من بلّوط باشـان مجـاذيفـك. صنعـوا مقـاعـدك من عاج مطعم في البقس من جزائر كتيم. كتانٌ مطرزٌ من مصر هو شراعك ليكون لك راية. الأسمانجوني والأرجوان من جزائر أليشة كانا غطاءك. أهل صيدون وأرواد كانـوا ملاحيـك. حكماؤك ياصور الذين كانوا فيك هم ربابينك. شيوخ جبيل وحكمـاؤ هـا كانـوا فيـك قلافـوك. جميـع سفن البحـر وملّاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجـارتـك. (. . .) ترشيش تاجـرتـك بكثـرة كل غنى بالفضـة والحـديـد والقصدير والـرصـاص أقـامـوا أسـواقـك (. . .). سفن ترشيش قوافلك لتجـارتـك فامتلأت وتمجـدت جداً في قلب البحـور. ملاحوك قد أتوا بك إلى مياه كثيرة. كسرتك الريح الشـرقيـة في قلب البحـار. (. . .) من صوت صراخ ربابينك تتزلزل المسارح. وكل ممسكي المجـذاف والمـلاحـون وكـل ربابين البحر ينزلون من سفنهم ويقفون على البـر. ويُسمعـون صوتهم عليـك ويصـرخـون بمـرارة ويُـذرّون تراباً فوق رؤ وسهم ويتمرغون في الرماد. ويجعلون في أنفسهم قرعة عليك ويتنطقون بالمسوح ويبكون عليك بمرارة نفس نحيباً مراً ويـرثـونك ويقولون أية مدينة كصور كالمُسكّتَة في قلب البحـر. (. . .) التجـار بين الشعـوب يصغِرون عليك فتكونين أهوالاً ولاتكونين بعد إلى الأبد»[٢٤].

لكن خراب صور لم يحـدث إلا بعـد قرنين ونصف من نبوءة «حزقيال». حيث حوصت هذه المدينة الفينيقية العظيمة المتحصنة في جزيرتها، في عام 322 ق. م، ثم دمرت. وتم بعد ذلك بناء ممر من الساحل، وتمكن جنود «الإسكندر المقدوني»، بعـد أن تلقّـوا دعم أسـاطيـل قبـرص ومـدن فينيقيـة أخرى، أن يستولوا على الجزيرة المحصنة حيث ذُبح سكانها.

وإذا كان احتضار المدينة المحاصرة «في قلب البحور» بطيئاً، فمما لاشك فيه

أنـه ومنـذ زمن بعيـد. منـذ نهاية القرن السابع ق.م - كان زوال امبراطوريتها البحرية يكـاد يشـرف على نهـايته. لقد خضعت صور بشكل متوالٍ لسلطة جيرانها الأقوياء. ومثـل باقي المـدن الفينيقية، أُبعدت من قبل مستعمراتها عن الميدان. كما أن قوتها في آفـاق البحـار كانت في تراجـع. ولكن، كان مايـزال لدى مستعمـراتهـا الحيـوية الكـافيـة كي تختـار بذاتهـا طرقها الخاصة. وعلى رأس «اسطول» ألقى مراسيه على شاطيء المتوسط الغربي، كانت «قرطاجة» تتهيأ لتفرض ذاتها كسفينة قيادة.

الفصــل الثانــي

قــرت حدَشـــت ـ المدينة الجديدة

من الأسطورة إلى التاريخ: الملكة «إليسار Elissa» :

جاء اسم «قـرطـاجة Carthage» من «Carthago» وبدقةٍ أكثر من «Karthago» وهـو لفـظ لاتيني للكلمـة اليونانية «Karchedôn» التي هي بدورها لفظ مشوه للتسمية الفينيقيـة المـركبـة (قـرت حدَشت)، التي تعني «المـدينة الجديدة». وفي وقتٍ ما، وبسبب المفاهيم السياسية للفينيقيين ـ الذين كان يسود في بلادهم نظام دول المدن كمـا مر معنـا ـ فرضت قرطاجة نفسهـا بقـوة على رأس العـالم البوني، ونحن لانقبل بالتـرجمـة التي تعطي كلمـة «Qart» مدلـول «عـاصمـة» فلقد كان الكُتّاب القدامى يدركـون بدقـة دلالـة التعبيـر الفينيقي، إذ فسّـر «كـاتـون Katon» أصـل هذه الكلمة ومعناها، وأشار «تيت ـ ليف Tite-Live» إلى أن كلمة «قرطاجة» في اللغة البونية تعني «المدينة الجديدة»(٢٥).

إن هذا يدفعنا لأن نستنتج أن هذا الإسم قد اختير ليدلَّ على مدينة ورثت مركزاً أكثر قدماً منها في ذلك الموقع أو أنها ألحقت به.

ومن المحتمـل جداً أن يكـون الملاّحون الفينيقيون قد أعدّوا أول الأمر محطة توقفٍ في تلك البقعة لأنها حازت على إعجابهم. كما علينا أن نلاحظ أن قرطاجة، التي زُرعت على السـاحـل الشـرقي لأفـريقيـا الشمالية، كانت تعني «مدينة جديدة» بالنسبـة إلى «أوتيكـا» التي هي «المـدينة القديمة» وتبعد عنها حوالي ثلاثين كيلومتراً وبنيت قبلها بزمنٍ بعيد جداً. لقد بُنيت في القرن الثال قبل الميلاد «قرطاجة» أخرى - «قرطاجنة Carthagene» في إسبانيا، وكانت هي أيضاً مدينة جديدة، بالمفهوم الذي يدل على «تجديد» البناء الفينيقي القديم لـ«قادس».

إن المرويات الشفهية التي تحكي لنا عن أصل مدينة «قرطاجة» تقدم لنا بعض الفوائد التاريخية، غير أنها بالمقابل تكون غالباً محاطة بالأساطير. ومن المريح لنا أن نحـدد أيضـاً تاريـخ وظـروف والأسبـاب الحقيقيـة لبنـاء هذه المدينة. لقد نقلت لنا بواسطة العديد من الكتّاب مختلف المطيات التي تلامس هذا الموضوع، وخصوصاً بواسطـة «تيمي دوتـورمـانيون» وهوإغريقي من صقلية كان بمقدوره أن يقرأ النصوص البـونيـة، إضـافـة إلى أنه كان يسأل القرطاجيين عما يعرفونه عن تاريخهم، وبواسطة «مينـانـدر الإفـزي Menandre d'Ephese» أيضـاً (بـدايـة القرن الثاني ق.م) وتستند شهـاداتـه على «الحـوليـات الصـوريـة Les Annales Tyriennes»، وأخيراً، بواسطة «جـوستينـوس Justin» وهـومؤرخ لاتيني عاش في القـرن الثـاني ق.م، وينقـل لنـا بشكـل مفصـل مرويـات شفهية عن سلفه «تروغ - بومبي Trogue-Pompee» وربما كانت هذه المـرويـات شائعـة في أوسـاط القـرطاجيين الذين كانوا على احتكاك مع العالم الإغريقي.

يحكي لنـا «جـوستينـوس» أن «موتو Mutto» أو «ماتان Matan» ملك صورمات بعـد أن أورث عرشـه لولده الشاب «بيغماليون Pygmalion» وابنته «إليسار Elissa» أو «إليشـار Elisha» التي كانت ذات جمـالٍ نادر، إلا أن الشعب خلع هذه الأخيـرة، مفضـلاً أن يكـون «بيغمـاليـون» وحده ملكاً. فتزوجت «إليسار» من عمها «أغريباس Acherbas» وهـو الكـاهن الأكبر لمعبد «ملقارت»، وكان ذا ثروة طائلة إضافة إلى أنه كان يحتل المكانة الثانية في المملكة. وخوفاً من جشع الملك قرر «أغريباس» الفرار



وجه نقدٍ ذهبي من قرطاجة

بعـد أن أخفى أمـوالـه تحت الأرض. غيـر أن «بيغمـاليـون» لم يتوان عن اغتيال هذا الشخص الـذي هو عمـه وصهـره في نفس الـوقت. عنـدهـا، شعرت «إليسار» بأنها مضطـرة إلى الفـرار. فبـاشـرت الإعـداد لرحيلهـا بسـريـة قصوى، واشترك معها في مشروعها هذا بعضٌ من علية أهل صور، من خصوم الملك الجديد. وكان لابد لها، كي تنجح خطتهـا، من أن تلجأ إلى الحيلة. فادّعت أنهـا تود ترك قصر زوجها الذي يوحي لها بالحزن الدائم، فوافق الملك على أمل أن تجلب أخته معها أموال زوجها. أرسـل «بيغمـاليـون» بعضـاً من عمـالـه لمساعدة أختـه على الانتقال، وحين هبوط الليـل، كانت جميـع ثرواتهـا قد حُملت في سفينـة، ثم أخـذت «إليسار» معها رُسل الملك، واتجهت السفينـة إلى عرض البحـر. حينـذاك أعطت الملكـة أوامـرها إلى خدمهـا كي يلقـوا في البحـر بأكيـاس رُبطت بعنـاية لتوهم الناظرين أنها تحوي على أمـوالهـا، بينمـا كانت في الحقيقـة مليئة بالرمل. كانت «إليسار» تبكي وهي تسترجع ذكـرى زوجهـا، قائلة لصحبهـا أنهـا بعملهـا هذا إنما تقدم هبة جنائزية بهذا الذهب المشؤوم الذي كان المسؤول عن ضياعها. توجهت بعـد ذلـك إلى رسـل الملك وأنذرتهم بأنهم سيلقون عذاباً شديداً من الملك لأنهم تركوا أموال «أغريباس» تضيع منهم، هذه الأموال التي اعتقد الملك أن باستطاعته الحصول عليها بالقتل. لذا قرر معظمهم، وخـوفـاً من المصيـر الـذي ينتظـرهم على يد الملك، الإنضمـام إلى المجموعة الهاربة، وهكذا انطلق الجميع آملين حماية «ملقارت».

وحين توقفـوا في قبـرص، محطتهم الأولى، قدِم لمـلاقـاتهم كاهن «جـونون Junon» مع عائلتـه، وعـرض على الملكـة أن يصحبهـا إلى منفـاها مقابل أن تكون الـرتبـة الكهنـوتيـة وقفـاً على ذريته. قبلت «إليسار» هذا الشرط إذ رأت فيه فألاً حسناً للمستقبل. إن هذا التوقف في «قبرص» لم يقدم للملكة سلالة كهنة فقط، إذ قدمت إلى الشـاطيء مجمـوعة من الفتيات، وكان ذلك اليوم يوم عيد، كي يقدمن للآلهة، حسب العـادات، «بقـايـا عذريتهن»، وكن يتبعن هذه الوسيلة بهدف الحصول على مهـورهن. غيـر أن الملكة «إليسار» رأت في ذلك فرصة لتأمين أجيال جديدة للمدينة التي كانت تنـوي انشـاءهـا، فتم اختطـاف ثمـانين من تلك العـذراوات وحُمِلن إلى السفن. أمـا «بيغمـاليـون» فكـان، في هذا الـوقت قد علم برحيـل الفارّين، بيد أن العرافين منعوه من مطاردتهم، إذ كان كلامهم حاسماً: «لن تمر دون عقاب محاولتك عرقلة انشاء مدينة شملتها عناية الآلهة دون بقية أرجاء العالم».

وهكذا، تمكنت «إليسار» وصحبها من الوصول إلى سواحل أفريقيا. وكان أول ماقـامـوا به هو سعيهم لإقـامـة علاقـات صداقـة مع السكان الأصليين الذين رأوا في القادمين الجدد إمكانية إقامة عمليات تجارية مربحة. عرضت الملكة على السكان أن تشتري منهم قطعة أرض ـ بمقدار مايمكن لجلد ثور أن يغطيها كي تستريح هي وصحبها المنهكون بسبب الملاحة، لقد كان الأفريقيون يخشون هؤلاء الغرباء دون شك، الـذين نزلـوا بجـوارهم بأعـدادٍ كبيـرة، إلا أن عرض الملكـة بدا لهم متواضعاً فقبلوا، غير أن «إليسار» لجأت إلى حيلة جديدة، إذ قامت بقص جلد الثور إلى سيور رفيعة جداً، واستطاعت بذلك أن تحصل على رقعة أرضٍ واسعة جداً، ومن هنا أتى اسم «بيرسا Byrsa» [من اليونانية، بمعنى جلد] الذي أُطلق على المكان فيما بعد.

بعـد أن تكللت إقـامتهم الأولى بالنجـاح، انشأ الفينيقيـون تجـارة تبـادلية مع سكـان المنطقـة كلهـا. وقـام سكان «أوتيكا» الفينيقيون بزيارة أبناء وطنهم، حاملين معهم الهدايا، وحثوهم على إنشاء مدينة على هذا الشاطىء. وكان الأفريقيون يودون أن تدوم العلاقات مع هؤلاء المهاجرين الشرقيين، إذ أنهم كانوا يتقاضون منهم أتاوة سنـويـة كأجـرة للأرض التي يشغلونهـا. ثم باشـر الفينيقيـون الحفـر بهـدف تأسيس

المـدينـة المـوعودة، فعثروا على رأس ثورٍ، فبدا لهم ذلك نذير شؤم، فاختاروا أرضا أخـرى عثـروا فيهـا على رأس حصان، ورأوا فيه رمزاً للقيم الحربية والقوة، فكان هو المكـان المُختـار. وفيمـا بعـد، توافـد الكثيـر من أهـل تلك الناحية للسكن في هذه «المدينة الجديدة» بسبب ذيوع شهرتها.

لقـد أصبحت قرطـاجـة مزدهـرة وقـويـة. غيـر أن «هيـارباس Hiarbas» ملك «المكسيتـانيين Maxitani» ـ وهم شعب أفـريقي ـ قام باستـدعـاء عشرة من علية أهل المـدينـة وطلب منهم، تحت التهـديد باعلان الحرب، أن يزوجوه الملكة «إليسار». لقد سبب هذا الطلب الذعر للمندوبين، فلم يتجرأوا على نقل الرسالة إلى ملكتهم. غيـر أنهم، وإدراكـاً منهم للمخـاطـر التي أحـاطت بالمستـوطنة، عرضوا عليها الأمر مستعملين «حيلة قرطـاجيـة»، قائلين لهـا أن الملك طلب منهم ارسـال شخص يقوم بتمـدين الأفـريقيين، ثم تسـاءلـوا فيمـا بينهم عمن يتجرأ ويذهب للعيش مع هؤلاء البـرابـرة؟ غيـر أن الملكـة وبختهم حينمـا سمعت منهم ذلـك متهمـة إياهم بالجبن والإحجـام عن التضحيـة في سبيـل سلامـة وطنهم. حينها أعلموها صراحة بما طلبه منهم «هيـاربـاس»، طالبين منهـا أن تنفـذ النصـائـح التي تسـديها للآخرين. بكت الملكة كثيراً حين فوجئت بالحيلة، وتذكرت طويلاً زوجها «أغريباس»، ثم قالت لهم أنها ستذهب إلى هناك حيث مصير «قرطاجة». وبعد مضي ثلاثة أشهر، وهي المهلة التي كان الملك الأفـريقي قد حددهـا لتنفيذ طلبه، أقامت «إليسار» محرقة كبيرة عند بوابة المـدينـة، وقـدمت الكثيـر من الأضحيـات، كي تهـدأ روح زوجهـا قبل إتمام الـزواج. ثم تسلحت بخنجـرٍ وصعـدت إلى المحرقة، وقبل أن تطعن نفسها وتسقط وسط اللهيب، استدارت نحو شعبها صارخة: «إني طوع رغبتكم فأنا ذاهبة إلى زوجي».

ومثلمـا كانت قرطـاجـة قويـة، يضيـف «جـوستينـوس»، حازت «إليسار» على الأمجاد الإلهية[٢٦].

إن من المناسب لنا بدلاً من الشروع بانتقاد هذه القصة الأسطورية، أن نحلل بعض عنـاصـرهـا التي لهـا طابـع المـراجع فيما يخص بعض النقاط التاريخية التي

يمكن أن تكـون قد أثيـرت من قبـل الآخرين، أي أن الأمر ليس كشفاً جديداً. وعلى هذا، نقل لنا «ميناندر الإفزي» بعض المرويات الفينيقية التي تقول أنه من بين ملوك صور (خَلفَ «بيغماليون»«ماتان»، وعاش ستين سنة، ملكَ منها سبعة وأربعين. وفي السنة السابعة من حكمه، هربت أخته وبنت في «ليبيا» مدينة «قرطاجة»[٢٧]).

إضافة إلى هذا، توجد بعض النقاط الدقيقة، فالأسطورة توافق على أنه كانت لـ«أغـريبـاس» المـرتبـة الثانية في المدينة. ومن الواضح أن كاتب هذه الأسطورة (أو كتـابهـا) كان يعـرف جيـداً الأهمية العظيمة لعبادة الإله «ملقارت» في «صور»، وكان يعـرف أيضـاً أن هذه الـرتبـة الكهنـوتية كانت وراثية في العالم الفينيقي. أما المقطع الـذي يتنـاول النـزول في «قبـرص» ـ وهـو توقف كان سيطول بالنسبة لفريق «إليسار» الهـارب ـ فإنمـا هو إشـارة إلى عادة البغاء المقدس المرتبطة بعبادة «جونون Junon» الذي أشار إليه «هيرودت I ,199». وكما يذكر أحد مقاطع التوراة «الملوك الثاني، 7, 23». فإن مثـل هذه الطقـوس كانت متفشية في بابـل بين المؤمنين بعشتار. ونعرف أيضـاً أن القـرطاجيين واصلوا، وخلال عدة قرون، دفع أتاوة سنوية للأفريقيين، لقد كان مناسباً لفريق «إليسار»، حسب ماروى لنا «جوستينوس»، أن يدفعوا تلك الإتاوة: فهـذا كان يعني اكتسـابهم شرعيـة بنـاء مدينتهم فوق تلك الأرض، وإظهـارهـم للمستـوطنـات وللأفـريقيين رغبة مشتركة بإنشاء علاقات طيبة. وأخيرا، فإنه مما يدل على الدقة أن يرد اسم «المكسيتانيين Maxitani» [في النص الأغريقي Mazices]، للإشارة إلى السكان الأصليين، إذ أنها أقدم تسمية استخدمت من قِبل سكان أفريقيا الشمالية القديمة[٢٨].

وإذا كانت بعض العناصر التي تحويها تلك المرويات تعبر عن مواقف تاريخية موثـوقـة، فهي، مع ذلـك، قد كتبت على شكل حبكة أسطورية. ومثلنا على ذلك، المقطـع الشهيـر الخـاص بجلد الثـور (Byrsa) الـذي كان مفتـرضاً أن يغطي مساحة الأرض المطلوبـة. وكـذلك اكتشاف رأس الحصان. وربما كان الإغريق قد لاحظوا وجـود بعض القطـع النقـدية البونية، ذات الطابع الفينيقي، والتي تحمل اسماً سامياً كانت كتـابتـه (أو لفظـه، تنطبق على الكلمة الإغريقية byrsa ـ التي يمكن أن يكون

لهـا عنـد القـرطـاجيين دلالـة أخـرى غيـر معنى «جِلد» ـ وكـذلـك فيما يخص رأس الحصان، ولذا قام الإغريق بإعطاء تأويلاتهم الخاصة بغية خلق هاتين القصتين. إذ أن قصـة جلد الثـور المقصـوص إلى سيور بهدف تحديد المستوطنة الجديدة. والتي ربما كانت تعود إلى طقوس دينية متبعة خلال عملية البناء ـ كانت ذات دلالات كافية للإشـارة إلى سعـة الحيلة أو الـدهـاء، وهمـا صفتان امتاز بهما التجار الفينيقيون في أوساط منافسيهم.

وبـالمقـابـل، ليس من السهـل أن نحـدد أصـل اسم «ديـدون Didon» الذي سُميت به بانيـة مدينـة «قـرطـاجـة» في بعض المرويات. إذ يورد لنا «تيمي» في أحد نصـوصـه أن الملكـة «إليسار» بعدما تعرضت لبعض المحن، رست في ليبيا، وهناك أطلق عليهـا هل البـلاد الأصليـون اسم «ديدون» وذلك بسبب الرحلات البعيدة التي قامت بهـا»[٢٩]. كمـا أن الشـاعـر الـرومـاني «فِرجيل Virgile» يشير في «الإنيادة» إلى الأميرة الصورية باسم «ديدون»، إلى جانب اسمها «إليسار». ومن الواضح، أن لدينا الآن تسميـة أُلحقت بالاسم الحقيقي. ولكننـا لانعـرف بكـل تأكيـد كيف فسَّـر لنـا المؤرخـون الإغـريق ذلـك، فهذه الكنية يجب أن تُفَسر إذن بالرحلات العجيبة التي قامت بها الملكة.

ومـع سعينـا لتمييـز العناصر التاريخية التي تحويها هذه الإسطورة، فإن مسألة أخرى لابد أنها استرعت انتباه مؤرخي «قرطاجة»، وهي مسألة تحديد تاريخ بناء هذه المـدينـة العظيمـة. ونقـول فوراً: أن الفـرضيـات الحـالية تبقى مستبعدة، فشرحها لايدخل في صلب موضوعنا. لقد حاولت بعض المؤلفات الحديثة أن تثبت أن إنشاء هذه المدينة ربما يكون أحدث من أن يرد في المصادر الأدبية، إذ أن البعض، وهم من محبذي ارجاع تاريخ بناء المدينة إلى عهدٍ قريب، يرون أن هذه العملية قد تكون حدثت بين عامي 673-663 ق. م[٣٠]. والبراهين المقدمة للتوصل إلى هذا الإستنتاج تبدو جريئة جداً، بل ومرتجلة أيضاً. إن القطع الأثرية المستخرجة من موقع العاصمة القـديمـة لايمكن بالتأكيـد أن ترقى إلى ماقبل النصف الأول من القرن الثامن ق. م - وهو تاريخ لايزال مدار نقاش ـ بيد أن الخرائب ماتزال تنطوي على آثار أقدم. حتى أن

اختصـاصيـاً في هذا المجـال، وهو «بيير سانتاس Pierre Cintas »، الذي استخلص بعض النتـائـج من عمليـات السبـر، ينبـه إلى المشاكل التي يمكن أن تطرحها الآثار البونية، إذ أن المدافن الأولى في المدينة ماتزال، كما يقول، في طور الإكتشاف[٣١].

لهـذا، يمكن لنـا بالتأكيد أن نقبل مختلف المروريات الكلاسيكية والشرقية، التي تتفق بمجملهـا في هذا المـوضـوع: إن بنـاء مدينـة «قـرطاجة» يرقى إلى الربع الأخيـر من القـرن التـاسـع ق.م، أي فيمـا بين عامي 824-813، ويؤكـد لنا «تيمي دوتـورمينيـون» ـ الـذي يستمـد معلومـاته من مختلف المصادر البونية أوذات الأصل البـوني ـ أن إنشـاء مدينـة «قـرطـاجـة» حدث في عام 814 ق.م، ويعتمد الكثير من الكُتّـاب القـدامى هذا التـاريـخ، كما هوحاصلٌ اليوم، فهوفي الواقع تاريخ محتملٌ جداً. ومع ذلك، فلا شيء يسمح لنا أن نظن أن المستوطنة الجديدة تمكنت فوراً من الإستفـادة من وجـود المـراكـز التجـاريـة والمستوطنات التي بنيت قبلها في المتوسط الغـربي، ولكن، لو أجـزنـا ذلك، فإن القصة التقليدية لبناء المدينة من قبل «إليسار» ووجود أميرة من صور يضفي على هذه «المدينة الجديدة» سحراً خاصاً.

«ديـدون التعيسـة infelix Dido» هكـذا كان «فيـرجيـل» يقـول، فلقـد اختفت الملكة بشكلٍ مأساوي، بيد أن موتها الدرامي دشن المصير العظيم الذي كان ينتظر «قرت حدَشت».

عاصمة في قلب المتوسط

أنشئت «قرطاجة» في أحد أجمل المواقع في العالم قاطبة، في موقع كان يقدم لها مزايا قيمة، إذ أنه كان يؤمن لها ضمانات كافية لتطورها كعاصمة ولحماية مجدها الصاعد.

لم يتغيـر هذا المنظـر اليـوم، فالسمـاء والبحـر يتكـشـان على أفقٍ ذي زرقة أكثر شفـافيـة بكثيـر ممـا يبدو في الجزر اليونانية، فيما تنحدر الجروف ذات اللون الأحمر باتجـاه السـاحـل الـذي يتطـاول حتى يصل إلى النتوء الصخري حيث تتعلق أشجار

الصبار في «سيدي بوسعيد». هنا يتوقف الزمن، مع ذلك، وحين نألف مدينة تونس، الهادئة والرصينة ببيوتها الفخمة المختفية وراء مختلف أنواع العرائش والزهور، فإن قرطاجة ـ هانيبعل، النائمة في حرارة الصيف، والتي لاتصحومن خدرها إلا حين يهبط المساء، حزينة وقد تركها الجميع تحت مطر الشتاء، حينها، يشق علينا قليلاً أن نتخيل كيف كان حال أم المدن هذه، وحال شعبها الجوّال، وحشودها الملونة والصخّابة، وأسواقها النشيطة بتجارها المغامرين، وموانئها التي كان تضج بالحيوية، وورشتها الحربية التي كان باستطاعتها أن تبني وتسلح أقوى أساطيل المتوسط، ومعابدها الشامخة عالياً حاملة أسماء آلهتها القوية.

لقد كان موقع مدينة قرطاجة البونية واسعاً بما فيه الكفاية كي يضم مجمل المدينة الكبيرة إضافة إلى الضواحي والملحقات. ويوضح لنا المؤرخ «بوليبوس Polybe»، وهو مصدر موثوق جداً إذ أنه كان شاهداً على حصار وسقوط العاصمة، فيقول: «تقع المدينة ذاتها على شاطيء أحد الخلجان، في شبه جزيرة تكاد تكون محاطة إما بماء البحر أو بمياه بحيرة. وتتصل بالقارة بواسطة لسان عرضه خمسة وعشرون غلوة (أي مايساوي 4400 متراً)، وعلى طرف هذا اللسان القليل من المساحة، توجد مدينة «أوتيكا»، وفي الجهة الأخرى، وبمحاذاة البحيرة، توجد مدينة «تونس» [. . .]، كما توجد في هذا اللسان مجموعة من التلال الصعبة الاجتياز إلّا من خلال بعض الطرق المشقوقة بأيدي البشر لتربط قرطاجة بباقي البلاد» (75, 2, 73, 2, I).

وهكذا نرى أن الملكة «إليسار» وصحبها لم يتركوا اختيار الأرض التي بنوا مدينتهم عليها للمصادفة، إن هذا الموقع يوجد في منطقة ساحلية مألوفة. فهنا أيضاً تم إنشاء إحدى تلك القواعد المخصصة لتكون رابطاً بين مختلف المجالات: من جهة، المجال البحري، وهو المملكة الحقيقية للمستوطنين القادمين من صور، ومن جهة أخرى، مجالات الأقاليم التي تعود إلى شعوب سكنت فيها بشكل نهائي. وكي يؤمن القرطاجيون الحماية اللازمة وسط هذا العالم الذي كان دائم الإستعداد لأن يصبح معادياً لهم، كان من الضروري أن يشكل النتوء الساحلي وضواحي المدينة

احتياطات أمنٍ إضافية، ومثل هذه الأسباب كما نعرف دفعت الفينيقيين، ولأسباب أمنية، إلى اختيار مواقع مدن «صور» و«صيدون» و«أرواد» و«قادس». لقد كانت شبه الجزيرة تلك التي وقع عليها بصر القادمين الجدد، تضم كافة الميزات الدفاعية؛ ففي حالة الحصار، كان بإمكان المحاصَرين أن يقاوموا طويلاً، إذ أنهم كانوا قد هيأوا في البقعة الجغرافية التابعة للمدينة أراضٍ زراعية واسعة تكفي لإنتاج الغلال الضرورية لتموين الشعب.

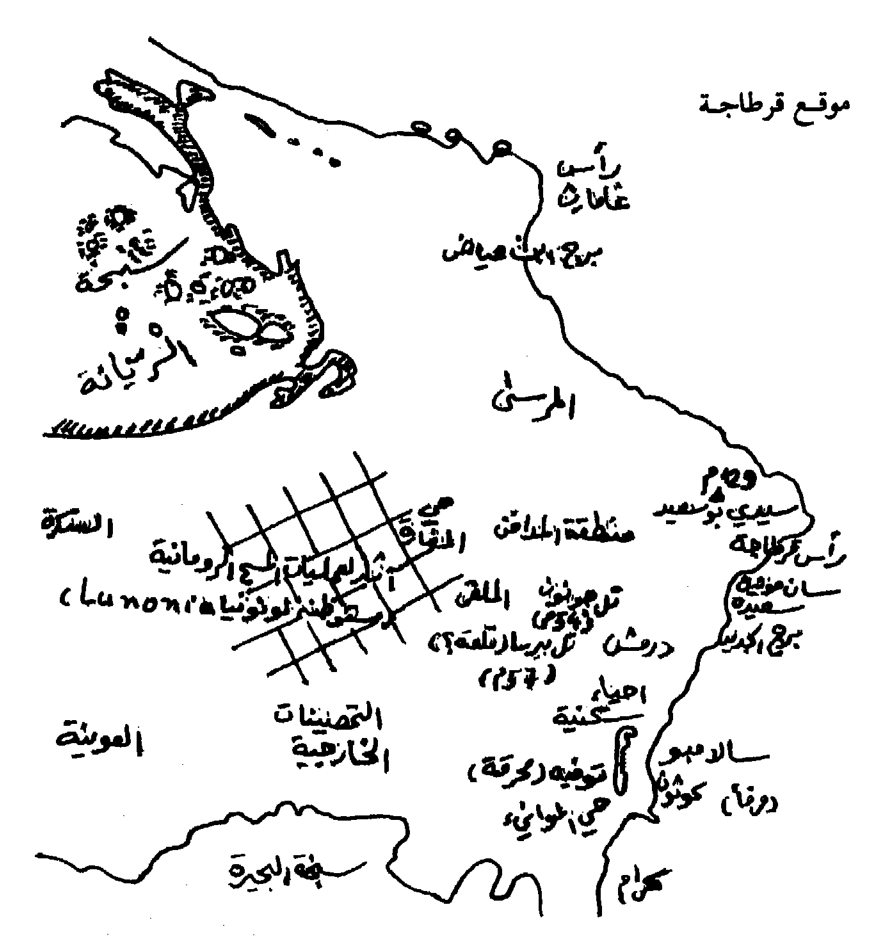
لقد كانت شبه جزيرة «قرطاجة» أشبه بمرساةٍ عملاقة مرمية صوب البحر، وكان مدخلها محمياً بسلسلة من الذرى تشكل خط الدفاع الأول (جبل نَهلي)، إضافة إلى لسان يتقدم باتجاه الشرق إلى عرض البحر، وعلى طول خمسة عشرة كيلومتراً. وكان هذا اللسان يتصل ببحيرة شاطئية قليلة العمق وغنية بالأسماك ـ وهي حالياً بحيرة «تونس» أو سبخة «البحيرة» ـ عن أحد الخلجان، وهو اليوم مغطى بقسمه الأكبر بطمي نهر «المجردة» (وآخر شاهدٍ على هذا الخليج هو سبخة «الريانة»)، وكانت مدينة «أوتيكا» تقع في قلب هذا الخليج. وكان على القرطاجيين أن ينشئوا عبر هذا النتوء الجبلي الطويل، وعلى نقطة لا يتجاوز عرضها الأربعة كيلومترات، خطاً دفاعياً متقدماً بلغ طوله ثلاثين كيلومتراً. ويضم خندقاً عريضاً محفوراً في الجهة الغربية، إضافة إلى قاعدة مركزية ذات حباك(*)، واستحكامات، وربما كانت توجد أيضاً مراصد، وأخيراً كان يوجد خندق خلفي.

كان هذا الخط الدفاعي يسد الممر المتجه إلى الشرق[٣٢]، لقد كانت المدينة مع ضواحيها تمتد على هذا القسم الذي تقارب مساحته الخمسة آلاف هكتار. ونقول، كي تكتمل الصورة، أن هذا الطرف الذي كان يتشكل من نتوء صخري مرتفع ـ وهو عبارة عن جزيرة قديمة اتصلت بالساحل بفضل تجمع الطمي ـ كان يمثل طرفي المرساة.

لقد بوشر بإجراء تحريات أثرية، تعود بدايتها إلى قرن مضى، تشمل كل

---

* حباك: حظيرة من القصب شُدّ بعضه إلى بعض. المترجم.



موقع قرطاجة

منطقة قرطاجة ومازال مستمرة حتى هذه الأيام. وسمحت هذه الأعمال بتحديدٍ جزئي لطبوغرافيا المدينة. ونحن نعرف أن العاصمة البونية في أوج قوتها، كانت تمتد على رقعة أوسع بكثير مما كان بعض المؤرخين يتصورونه. ومع ذلك، فليس من السهل علينا أن نتمكن من تحديد محيط المدينة، فموقعها، الذي اتسع خلال عدة قرون، قد دُكَّ تماماً، وأُعيد بناؤه عدة مرات. إن محاولة تحديد خريطة لموقع المدينة ستعتمد بالتأكيد على الخيال أكثر من الواقع. فقد أشارت لنا المعطيات الآثارية أن مدينة «قرطاجة» كانت تمتد بين خليج «كرام Kram» الصغير ومنحدر «سيدي بوسعيد». وبالطبع، فإننا نستعمل التسميات الحالية لهذه المواقع، وكان

هذا الشـريـط يضم بشكـل خاص، شاطيء «سالامبو» والمكـان المسـمى «بـرج الجـديـد». ولم تكن قرطاجة ـ هانيبعل، فيما بين هاتين النقطتين، تغطي سوى حياً واحداً من العاصمة القديمة، ولكن هذا بالتأكيد كان قلب المدينة.

ويمكن أن نعتبـر، بشكـل ما، أن هذه السـواحـل كانت مهـد المستـوطنـة الجديدة، ولكن علينا أن نبعث قليلاً من النقطة التي ثُبتت فيها هذه المستوطنة: هل في «دِرمش Dermech» الـواقعـة قرب «بـرج الجـديـد»؟ أم على شاطيء «سالامبو» مثلما يظن البعض حالياً؟ فهذه النقاط تمتد على مسافة تقل عن ثلاثة كيلومترات ولا تتغير المناظر فيما بينها إلا ماندر. ومن الواجب علينا أن نقرأ نصاً مثيراً كتبه عالـم الآثار «بـول كوكلر Paul Gauckler»، الـذي عمـل منـذ نهـاية القرن الماضي ولمدة طويلة على طول هذا الشاطيء.

«هـذه المنطقـة من قرطـاجة (الواقعة على أطراف خزانات «برج الجديد» وفي سفـح هضبـة «الأوديـون Odeon») والتي ربمـا شكلت [...] النواة الأولى للمدينة الكبيرة، كانت تبدو أفضل من أية نقطة أخرى على طول الساحل من أجل بناء مركز تجـاري بحـري، إذ أنهـا مفتـوحـة تمـامـاً باتجـاه الشرق، إلى الجنوب من الخليج المحمي من الرياح السائدة القادمة من المرتفعات الجبلية التي تبدأ من موقع «بيرسا» ثم تتجـه إلى الغـرب لتـرسم قوس دائـرة، ولتنتهي في الشمال بنتوء «سيدي بوسعيد» الصخـري الـذي تتكسـر عليـه أمواج البحر. لقد كان هذا الموقع يقدم للسفن ملجأ طبيعياً هو الأكثر أماناً على طول الساحل. كما أن هذه المحارة ذات الشكل النصف دائري، والتي تكاد تكون معزولة عن بقية أراضي القارة، والمختفية تماماً خلف سور من التـلال التي يسهـل الـدفـاع عنهـا، قدمت للفينيقيين احتيـاطات أمن كانت هي هدفهم قبـل أي شيء. لقـد كان أولئـك البحـارة الجسـورون في سعيهم لبنـاء مركز تجاري دائم. يعاينون كل شطآن المتوسط دون أن يتجرؤ ا على اختراق أراضي القارة الأفـريقيـة. وكـانوا على أهبة الاستعداد دوماً لأن يلقوا مراسيهم حتى على الشطآن الأقل

ترحاباً، غير أنهم سرعان ماكانوا يبلغون عرض البحر حين صدور أية إشارة تدل على الخطر».

ويواصل «بول كوكلر» أنه «وكما يبدو، استطاع البحارة الفينيقيون الأول الذين عبروا الخليج، ثم ولجوا المياه الأكثر هدوءاً بعد أن تجاوزوا نتوء «برج الجديد» الصخري، وتمكنوا من التأكد أن هذا الشاطيء آمن ويمكن الوصول إليه بسهولة، إذ أنه كان يلي، وبشكل مفاجيء، جروفاً صخرية منيعة. لقد سعي هؤلاء التجار حثيثاً للوصول إلى مكان توقف ملائم، حتى ألقوا مراسيهم وسحبوا مراكبهم، بشكل نهائي، إلى رمال هذا الشاطيء، وقاموا بعدها برفع أول مبانيهم [. . . .]، وهناك أيضاً، حفروا قبور موتاهم أسفل التل»[٣٣].

تم بناء المدينة إذن على شريط ساحلي ضيق يبدأ من شاطيء «كرام» وينتهي بنتوء «برج الجديد» الصخري. وعلى طول هذا الشاطيء ترتفع بالتدريج السفوح الشرقية لثلثي «بيرسا» [57 م] و«جونون» [54 م]، اللتين ترتفعان جنباً إلى جنب بمواجهة البحر. إلا أنه، كما يبدو، لم تصل المدينة، حتى في أوج توسعها، إلى خط الذرى هذا، الذي كان يحوي على دفاعاتٍ طبيعية جيدة. مع ذلك، فإن هذه المدينة لم تكن مغلقة ضمن حلقة مقفلة بين مقابرها وخطوط دفاعاتها والشريط الساحلي كما يحلو للبعض أن يصفها: فلقد أجمعت كتابات المؤرخين القدامى مثل: «بوليبوس، تيت ـ ليف، سترابون، آبيان، ديون كاسيوس. . .» على اتساع المدينة الأم «قرطاجة».

وحين يقال أن قرطاجة كانت تمتد في شرق شبه الجزيرة، وراء خط الدفاع الذي يسدّ مدخل اللسان، فهذا لايعني أن الأبنية الحضرية كانت تغطي هذه المنطقة كلها، فبين هذه الأبنيةوبين الإستحكامات الدفاعية تلك، كانت تمتد أراضٍ مكشوفة شكلت جزءاً من النظام الدفاعي للمدينة، كما أن طول الأسوار التي أحاطت بكتلة المدينة وملحقاتها الأساسية تسمح لنا بتكوين فكرة عن طبوغرافيتها، إذ أن محيطها كان يبلغ قرابة اثنين وثلاثين كيلومتراً. و«قرطاجة الكبرى» كانت تمتد إذن على مساحة واسعة جداً. وضمن هذه المنطقة كانت توجد ضاحية «ميغارا»

الـريفيـة [المغـارة] التي أسهب «آبيان» في وصف حدائقها السبخية، وبساتينها التي كانت تُروى بواسطـة أقنيـة عميقـة ومتعـرجـة، وتخـومها الحجرية الصلدة وأسيجتها الشوكية. وليس من الممكن أن نتعرف بدقة على هذه المنطقة التي ذكرت النصوص الأدبيـة أنهـا كانت قريبـة من اللسان، وبعيدة في الوقت ذاته عن بقية أنحاء المدينة، يحف بها خط من الصخور المشرفة على البحر. ويبدو أن المقصود بذلك هو الربض الممتـد في داخـل المنطقـة الشمـاليـة لشبـه الجزيرة، ومن الممكن أن تتطابقَ هذه الأراضـي الـمستأجـرة والمستقلة مع السهـل، هذه الأراضي ذات المسـاحـات المتـواضعـة والتي كانت موجـودة في منطقـة «المـرسى»، وفي الغـرب أيضاً، ضمن منطقـة مرتفعـات «جبل خاوي» و«برج ابن عياض» المشرفين على الشاطيء واللذين يفضيـان إلى «رأس غامـارث Gammarth» الـذي يمكن أن تعود تسميته إلى تحريف لكلمة «ميغارا ـ المغارة» القديمة.

إن قرطـاجـة، حينمـا كانت عاصمـة البحـر المتـوسـط الغربي، كانت تشغل مسـاحـة واسعـة جداً. كمـا أن القـرطاجيين، وبهدف توسيع نشاطاتهم، وفي سبيل الإكتفـاء ذاتيـاً من المؤن، قد سعوا لإقامة علاقات مباشرة ويومية مع سكان المناطق البـونيـة المحيطة بهم والموجودة خارج شبه الجزيرة. كتب «ستيفان غيزل Stephane Gsell» ـ المؤرخ الخبيـر في مجـال تاريـخ العصـور القـديمـة ـ كتب يقـول: «ان الشاطيء الغربي لشبه جزيرة «الرأس الطيب Cap Bon» كان، وبشكل من الأشكال، جزءاً من ضواحي قرطاجة»[٣٤].

من المرافيء إلى الأكروبول(*)

لن نتمكن بطبيعـة الحال من معرفة كيف كان شكل مدينة قرطاجة في مختلف

---

* الأكـروبـول: Acropole، كلمـة ذات أصـل اغريقي، مؤلفة من قسمين: Akros أي «المرتفع» و Polis أي المدينة المرتفعة، وتستخدم للدلالة على جزء محصن في المدينة.

المترجم

مراحـل تطـورها التاريخي ، فالإشارات القليلة التي وصلت لنا عبر المصادر الأدبية ، وكذلك المعطيات الآثارية ، وهي الأكثر مصداقية ، سمحت لنا ، على الأقل ، بمعرفة بعض المظاهر المدينية بحيث نتمكن من تكوين صور متداخلة ضمن إطار شامل .

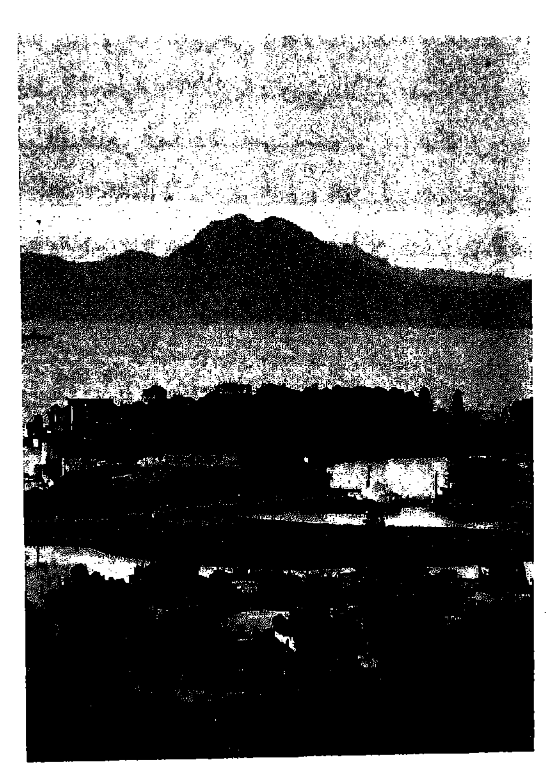
لقد كان أول مايبحث عنه الفينيقيون ، حينما يشيدون مركزاً ما ، أن يراعوا في بنـائـه عنـاصـر الحيطـة والأمن ، وذلـك بتعـزيـز الدفاعات الطبيعية للموقع الذي تم اختيـاره . ومـع أننـا نجهـل طبيعـة الأعمـال الأوليـة التي قام بهـا المستوطنون الأول النـازلـون في «المـدينـة الجـديدة» فمن المؤكد وجود سورٍ كان يحيط بكتلة المدينة الأولية ، مما سمح للسكان بمقاومة أية هجمات محتملة قادمة من القارة الأفريقية عبر الممر المفضي إلى اللسان . كما سمح لهم ، في الوقت نفسه ، بالبقاء مجتمعين أمام المرفأ ، بحيث كانت السفن تمثل لهم الملاذ الأخير .

ويبـدو أن القـرطـاجيين كانـوا يتمكنـون ، غالبـاً ، من صد هجمـات جيرانهم الأفريقيين . ولم تتوقف مدينة «إليسار» خلال القرون التالية عن التوسع وخصوصاً في أزمنـة السلم . كمـا رافق توسـع المـدينة اتساع موازٍ ، وبشكل كبير ، للأحياء السكنية على طول الشـاطيء وفي الـذرى المشرفة على الشريط الساحلي ، حيث بنيت هناك منظومة دفاعية قوية ، إذ أنها كانت تتعرض ، وبشكل دائم ، لتهديدات محتملة .

ومنذ نهاية القرن الرابع ق . م ، وعندما حاصر «آغاتوكلس Agathocle » المدينة بيـن عامي (310-307 ق . م) ، وفي زمن الحـروب ضد «رومـا» أيضـاً ، كان على القرطاجيين أن يواجهوا الحصارات والهجمات الموجهة ضدهم . لذا ، وتداركاً لمثل هذه الأخطـار القـاتلة ، أنشأ سكـان المـدينـة خطوطاً دفاعية قوية للغاية ، لقد حولت منطقة قرطاجة إلى معسكر حصين ، يحيط به سورٌ واسعٌ ، طوّق المدينة كلها ، إضافة إلى ضاحيتها «المغارة» .

ومن الطبيعي أن يكون مكمن الخطر بالنسبة للمدينة في الجهة الغربية . فمن هنـاك كان يصـل الطـريق القـادم من القـارة . ولقـد كان مقتل المدينة خلف الخندق وشبكة الحواجز التي تسد اللسان . لذا تم تعزيز السور الموجود في هذا القطاع بحيث أصبـح مؤلفـاً من جدارين يمتـدان على عرض شبـه الجزيرة كلها . وبُني هذا السور





البحيرات الشاطئية في موقع المرافيء البونية في قرطاجة

بحجارة منحوتةٍ، وبلغ ارتفاعه ثلاثين ذراعاً (13,22 م)(*)، واحتوى في أعلاه على طرق تفتيش وفتحات الإستحكامات، أما عرضه فبلغ عند القاعدة ثلاثين قدماً (8, 88 م)، ودعم هذا السور بأبراج مؤلفة من أربع طبقات، تنتصب بشكلٍ ناتيء، وعلى مسافات منتظمة، بحيث كان باستطاعة المدافعين أن يصيبوا بحرابهم المهاجمين الذين يحاولون هدم الجدران أو تسلقها.

---

* المقصود بالذراع هنا وحدة قياسية تساوي حوالي 50 سنتمتراً، ولا تشبه الذراع بالمفهوم المستخدم لدينا.

المحقق

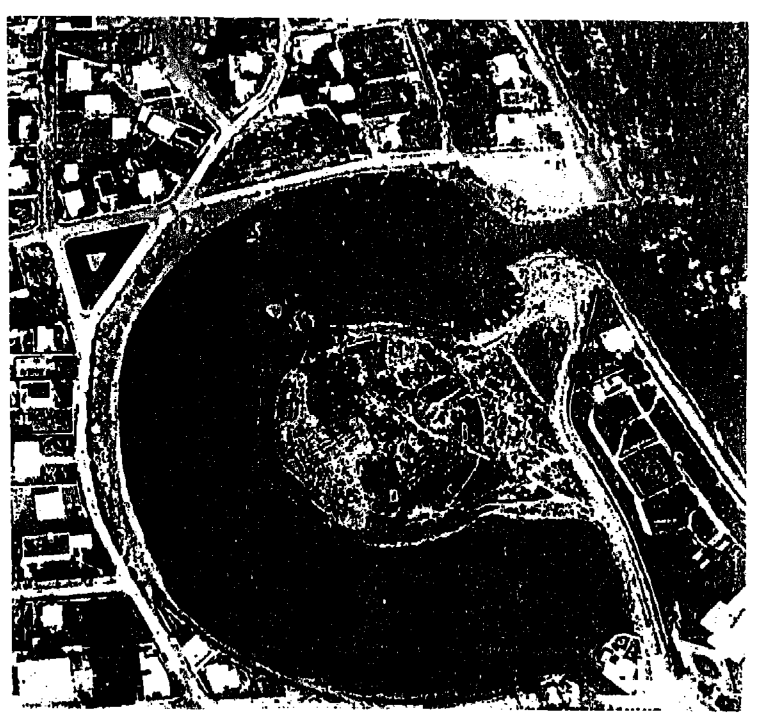
كان هذا السـور المنيـع يضم أيضـا ثكنـات ومستـودعـات حربية ، وبنيت فيه حصـون من طابقين تنفتـح على داخل السور، ويضيف المؤرخ «آبيان» ، الذي قدم لنـا هذه الإيضـاحات : «وكان يوجد في أسفل الأسوار أماكن تتسع لثلاثمائة فيل مع مؤونة غذائية كاملة لها. أما في الأعلى ، فتوجد اسطبلات تتسع لأربعة آلاف حصان مع مخازن للأعلاف والشعير، إضافة إلى ثكنات يمكن أن تستوعب عشرين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف فارس» [Libyca, 95] ونذكر أخيراً ، أن هذه القلعة الضخمة كانت محمية هي أيضـاً بصـور آخـر أقـل ارتفـاعـاً ، كان المهاجمون يصطدمون به حينما يتمكنون من اختراق الخط الدفاعي المتقدم الذي كان يضم خندقاً ومنظومة دفاعية .

لقد كانت هذه المنشآت الدفاعية فعالة جداً . إذ لم يتمكن الرومان من فتح أية ثغـرةٍ في أسـوار القطـاع الغـربي مطلقـاً . غير أن المدينة لم تكن مشمولة بمجملها ، بالشبكـة الـدفـاعية الآنفة الذكر. إذ أن السور الذي كان يحمي منطقةً «المغارة» كان عبـارة عن جدار بسيـط يحـاذي شاطيء البحـر. وكان هذا السور، في نقاط أخرى ، ينتصب فوق الصخور المشرفة على الشاطيء .

إن القـرطـاجيين ، وربما بدافعٍ من إحساسهم بتفوق أسطولهم البحري الذي كان يقـوم بحـراسـة هذه الشواطيء ، لم يروا ضرورة لإنشاء سورٍ على طول الشاطيء شبيـه بالسـور الـذي يسـدُّ مدخـل اللسـان ، إذ كان هذا السـور، وبفضـل الأشكـال التضـاريسيـة للقطـاعـات الشمـاليـة والشـرقيـة والجنـوبيـة ، كافياً لتأمين الحاجات الـدفـاعيـة ، إننـا سمعنـا عن الإنجـاز القليـل الأهمية الذي حققه «ل. هوستيليوس مانسينـوس L Hostilius Mancinus » الـذي تمكن في إحـدى ليـالي ربيـع عام 147 ق . م ـ وقبـل سنـة واحـدة من هزيمـة قرطـاجة ، وخلال الحصار الذي كانت المدينة تتعـرض له منـذ سنتين ـ استطـاع أن يحطم بابـاً سريـاً في ضاحيـة «المغارة» المليئة بالأحـراش ، وشهن هجـوماً مرتجلاً على تلك المنطقة . إلا أنه ، في الصباح التالي ، تعرض لهجوم من مختلف الجهات من قبل الفرق القرطاجية التي كانت موجودة في أحـد معـاقـل «جبل خاوي» ، وحينما رأى القائد الروماني وجنوده أنفسهم محاصرين ضمن هذا الفـخ ، اندفعوا باتجاه أسفل الجرف الصخري المشرف على الشاطيء .

وبمحض الصـدفة، لم يكن «سيبيون» قد ثبت تواجده في تلك المنطقة، ولم يكن قد حاول فصـل رأس الجسـر هذا حيث وقعت مفـرزة «مـانسينـوس» المحـاصرة ضحيةً لمناورات قائدها، وأصبحت في موقف يائس.

لم يبق من سور قرطـاجـة الشهير الذي حدثنا عنه الكتاب القدامى أي أثر. أما الخنـدق العـريض الذي كان يشكل خط الدفاع الأول المواجه للقارة الأفريقية، فقد كُشف عنه عام 1949. بواسطة عمليات سبرٍ جوي، وتم التقاط الصور له، وظهر فيها أشبه بمحورٍ مستقيم يمتد بطول يزيد عن الكيلومترين، متميزاً بلونه الفاتح عن لون أرض اللسان. كما أظهرت التنقيبات الآثارية أساسات هذا الخندق[٣٥].



قرطاجة: المرفأ الحربي ـ الكوثون ـ حافظ على شكله الدائري رغم مرور السنين.

في الوسط: الجزيرة التي كانت قيادة البحرية تعطي أوامرها منها بواسطة قرع الطبول والمرايا العاكسة لأشعة الشمس.

نعم، لم يترك الرومان من هذه الأسوار حجراً واحداً، فهي التي سمحت للعاصمة البونية بتحدي هجماتهم لمدة طويلة. ومن ناحية أخرى. فمن الممكن جداً رؤية مابقي من مرافيء قرطاجة. إن أعمال السبر إضافة إلى الخرائب الآثارية هي وحدها التي تسمح لنا بتقديم أجوبة موثوقة[٣٦].

لقد وصف الكُتّاب بدقة مرافيء قرطاجة تلك، ويعود الوصف إلى زمن الحرب البونية الثالثة. كان لقرطاجة ميناءان: واحد تجاري، والآخر حربي. وكان يطلق عليهما، أحياناً تسمية مشتركة هي «كوثون Cothon»، وربما يعود أصل هذه الكلمة إلى جذر سامي (وليس إغريقي)، وتحمل في أصلها مفهوماً يدل على: القطع Couper، أو القص Tailler، فلقد كانت أحواض هذه المرافيء صنعية حُفرت باليد في أرض شبه الجزيرة. يشير «سترابون» في أحد مقاطعة (14,3,XVII) إلى أن «الكوثون» كان يضم قسماً رباعي الزوايا، وقسماً آخر دائري. وكانت توجد على شواطئها أحواض مجهزة لاستقبال السفن على الأرصفة.

لقد قدّم لنا «آبيان»، نقلاً عن «بوليبوس»، أفضل وصف لمينائي قرطاجة. وها نحن نقدم ترجمته[٣٧]، إذ ليس هنا مجال الدخول في جدال عنيف مايزال يسببه هذا النص:

« جهز ميناءا قرطاجة بحيث كانت السفن تستطيع المرور من ميناء إلى آخر. ويتم الدخول إليهما من البحر عبر مدخل عرضه 70 قدماً (20,72 م)، يُغلق بواسطة سلاسل حديدية، وكان المرفأ الأول مخصصاً للتجار، وقد جُهز بأقلاسٍ كثيرة متعددة الحجوم. وكانت توجد جزيرة في المرفأ الداخلي. وكانت الجزيرة والمرفأ محاطين بأرصفة واسعة توجد بمحاذاتها أحواض يمكن أن تتسع لـ 220 سفينة، وكانت توجد مخازن التجار فوق هذه الأحواض. وفي مقدمة كل حوضٍ كان يوجد عمودان أيونيان، مما يعطي للمرفأ والجزيرة شكلاً شبيهاً بالرواق. وبُني فوق الجزيرة جناح خاص بقائد الإسطول كانت تصدر منه إشارات النفير ونداءات الحرب. إضافة إلى أنه، أي قائد الإسطول، كان يقوم من هناك بمهام المراقبة، إذ أن الجزيرة تقع في مواجهة مدخل الميناء وتتميز بارتفاع يتمكن معه قائد الإسطول من رؤية مايحدث

في البحـر، في حين لم يكن باستطـاعـة القـادمين من عرض البحـر أن يميـزوا بدقة مابـداخـل المرفأ. وحتى بالنسبة للتجار الذين كانوا يدخلون بسفنهم إلى المرفأ، لم يكن بمقدورهم أن يروا ترسانات الأسلحة التي كانت محاطة بجدارٍ مضاعف بأبواب سمح للتجار بالمرور عبر أول باب إلى المدينة دون أن يكون بإمكانهم المرور على الترسانات» (Libyca 96) .

ويرد في نصٍ آخر لـ«آبيان» أن سهلاً تراكمياً يدعوه (Choma) (*) كان يستخدم لتكديس البضـائع ويشكل جزءاً من الأحواض، ويقع في مدخل القناة الفضية إلى المرفأ التجاري. إن احتلال هذا الرصيف بعد معارك ضارية، هو الذي سمح لجنود «سيبيـون إيمليـان» ـ وكـان يوجـد في مقـدمتهم «تيبـريـوس سمبرونيوس كراكشوس Tiberius Sempronius Gracchus » ـ بفتح ثغرة دخلوا عبرها إلى حي المرافيء، ومنه انطلقوا إلى قلب المدينة.

قلنـا سابقـاً أن العـديـد من الأبحـاث الطبوغرافيةحاول أن يحدد موقع مرافيء قرطـاجـة، وبمـا أنه ليس من اختصاصنا أن نعرض مختلف الإفتراضات، فسنستعيد رأياً مشتركاً ومعروفاً حول هذه المسألة، بانتظار نتائج التنقيبات الجارية التي يمكن أن تقـدم لنـا معلومـات حاسمـة، إن البحيرتين الموجودتين في الطرف الجنوبي للسهل السـاحلي قرب منطقـة (سـالامبو)، وعلى بعد مئة متر من الساحل الحالي، تشكلان بقـايـا (الكوثون)، وهذه الآثار، ذات المظهر المتواضع، هي لأحواض موحلة لانرى حولهـا أيـة بقـايـا تدل على وجـود أرصفة. ففي الشمال، كان يوجد المرفأ الأول وله شكـل غطـاء دائـري، وتقـارب مسـاحتـه الثمانية هكتارات، في وسطه جزيرة تتصل بالشاطيء الداخلي بواسطة لسان أرضي، ومن المعتقد، حسب الأوصاف السابقة،

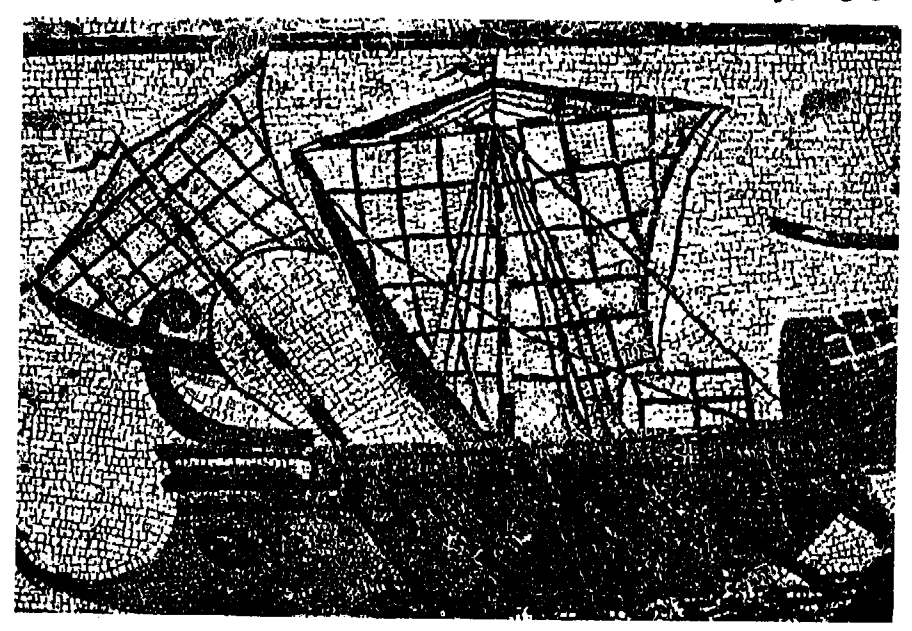
---

* من الأفضـل ترجمتهـا «سـاحـة واسعـة» «وليس كمـا أرادهـا الكـاتب «سهلاً تراكمياً». فاللفظة اليونانية «خوما χῶμα»تعني بالواقع الأتربة المكومة أو الردم، أو السد الردمي والحواجز الردمية وماشابه ذلك. وأرى أن تفسيرها بالسهل التراكمي غير مناسب، وربما كان الأفضل أن نقول «ساحة تكديس البضائع» كالساحات المعروفة حالياً في المرافيء.

المحقق

أنه كان المرفأ الحربي القديم. وكان هذا المرفأ يتصل بمسطح مائي آخر، ذي مساحة مضافة وشكل مستطيل وربما كان المرفأ التجاري، أما القناة القديمة التي كانت تمتد في خليج «كرام» الصغير، فإنها اليوم مغطاة بالطمي.

تبدو هذه الأحواض، دون شك، متواضعة للغاية أمام الشهرة الواسعة التي تمتعت بها مرافيء العاصمة المتوسطية. إن نص المؤرخ «آبيان» الذي أوردناه قبل قليل - يشير إلى أن الميناء الدائري كان يضم مئتين وعشرين حوضاً، ومن المفترض أن يكون العديد منها واسعاً بحيث اتسع للسفن الخماسية الصفوف من المجاذيف، كما يشير «سترابون» (15, 3, VII) أنه خلال آخر حصارٍ تعرضت له المدينة، تمكن القرطاجيون من بناء مئة وعشرين سفينة. ومن هذا نستنتج أن هذه المرافيء كانت تتمتع بمنشآتٍ هامة جداً، إذ ليس من السهل أن يتم تركيز إسطولٍ ضخم كهذا في حوض دائري.



قارب تجاري قرطاجي. [متحف سوسة، تونس]
فسيفساء ترجع إلى بداية العهد المسيحي

ومع ذلك، لايمكننا استبعاد فرضية تطابق المرفأين مع البحيرتين الشاطئيتين، إذ أن علينا أن نتذكر أن حي المرافيء ذاك قد دُمر أولاً حين سقوط المدينة، واستخدم مرة أخرى ورمم في فترة الاحتلال الروماني. حيث تمت إضافة منشآت هامة أخرى إلى الغرب من الحوض المستطيل. إلا أنهـا تعرضت للدمار عام 306 ب. م بفعل زلزال أدى، بكل تأكيد، إلى الإجهاز على مابقي من الآثار القديمة.

لاشك أن أول ماشغل المستوطنين الأول الذين نزلوا في الساحل الأفريقي هو السهر على حماية منشآتهم، لذا كان احتلال التلال المحاذية للساحل والتي كانت تشكل خطاً دفاعياً طبيعياً هو أول عمل توجهوا له. إذ قاموا ببناء حصن دفاعي. ويشير المؤرخون القدامى إلى أنه، وفي زمن الحرب البونية الثالثة، كانت توجد قلعة تحمل اسم «بيرسا» على قمة تل وتشرف على الذرى الشديدة الإنحدار. وعلى العموم، يمكننا القول، وهذا رأي «ستيفان غيزل» أيضاً، أن «بيرسا» القديمة كانت توجد فوق التل الذي عرف فيما بعد باسم تل «القديس لويس St. Louis» حيث بنيت «بازيليكا»(*)، وأصبحت اليوم متحف قرطاجة الوطني - المجاور لتل «جونون». وعلينا الإعتراف أنه إذا كانت قمتا هذين التلّين قد شُغلتا بمدن المقابر وبالأبنية البونية، فإن قمة «سيدي بوسعيد» (129 م) كانت مناسبة بشكل أفضل لإقامة الأكروبول الذي يشرف ليس فقط على المدينة الواطئة وحي المرافيء، بل على المدينة بأسرها مع ضواحيها.

إن الخرائب الآثارية المكتشفة يمكن أن تحمل بعض الإشارات التي تسمح بتوضيح ماذهبت إليه النصوص الأدبية التي تذكر لنا أن موقع «بيرسا» المحصن كان معززاً بدفاعات، ربما كانت سوراً مزدوجاً. ومن الساحة الرئيسية [آغورا Agora، عند الإغريق، أو Forum عند الرومان] كانت تخرج ثلاثة شوارع تحف بها منازل

* أصل الكلمة من اليونانية «Baaxhckos» وتحمل مدلول: الملكي. انتقلت بعدها إلى اللاتينية وصار يقصد بها البناء الرسمي المستطيل الشكل في أحد طرفيه جزء ناتيء نصف دائري، ثم صارت الكنائس (الكاثولوكية خصوصاً) تسمى «Basilica».

المحقق

مؤلفة من ست طبقات، تصعد باتجاه القلعة. وفي موقع مطل على تل «بيرسا»، وفي نهـايـة درج فخم مؤلف من ستين درجـة، كان ينتصب ضمن السور المقدس أجمل وأفخم معابد المدينة، إنه معبد الإله «إشمون».

سيبقى بالتأكيد كثير من النقاط الغامضة حتى يتم رفع أنقاض الأسوار وتحديد موقـع حوض «الكـوثـون» وحصن «بيـرسـا»، مع ذلك، وإذا كانت طبوغرافيا قرطاجة القدمة غير معروف، بدقة، فإن معلوماتنا عن مقابرها وفيرة بما فيه الكفاية.

كانت المـواقـع التي شغلتهـا مدن المقـابر بتتابع القرون تبتعد شيئاً فشيئاً عن المنطقـة السـاحليـة حيث تركـز السكـان أول الأمر. وكانت المقابر تحدد بشكل من الأشكـال حيـاة المـدينـة العظيمـة، بل إنها شاهد على مجدها طوال ستمائة وثمانية وخمسين عامـاً ومن وجـودها. إلا أنه من الأكيد، وهذا ماسبق أن أوضحناه، أن مدينة المقابر الأقدم لم تكتشف حتى اليوم.

كانت المـدافن الـواقعـة حول المـدينـة تتـراجـع تدريجياً أمام امتداد الأحياء السكنيـة، ففي البـدايـة، تراجعت إلى تلي «بيـرسـا» و«جـونون»، ثم إلى الشمال، باتجـاه مرتفعـات «دُعيمس» و«درمِش» وأخيـراً باتجاه منحدرات «برج الحديد» وفوق هضبة (سان مونيك St. Monique) (سعيدة).

ونـورد فيمـا يلي نصـاً لـ«بـول كولكـر» الـذي أمضى أربـع سنوات في أعمال التنقيب ضمن المقـابـر البـونيـة، يقـول فيه: «إن الخرائب التي عملت فيها [. . .] ضمن مدينـة المقـابـر البـونيـة في «درمِش» القريبة من قرطاجة، سمحت لي بتوسيع الحفيـرة التي كنت قد فتحتهـا، سابقـا، من الجنوب إلى الشمال [. . .]، وبمقدار ماكـانت الحفيـرة تبتعـد عن قلب المـدينة، كانت القبور تبدو أحدث، وكانت ميزاتها تتغير بشكل ملموس، أما في الحفر التي فتحتها في الرمال البكر، فقد تتابعت القبور المبنيـة والنـواويس. وكلمـا صعـدنـا باتجـاه مرتفعات «برج الجديد» كانت المدافن تصبح حديثة أكثر فأكثر»[٣٩].

وسيتم التطـرق فيمـا بعد إلى مسألة الشعائر الجنائزية ـ التي تخص معتقدات شعب ما ـ إضـافـة إلى مسألـة القـرابين. وعلينـا أن نوضـح هنـا أنـه إذا كانت «فرت

حدشت» قد ذاع صيتها بقوتها البحرية وحيوية مرافئها (الكوثون)، وإذا كانت هذه العاصمة تحمي ثرواتها خلف أسوارها المنيعة، فإن لها أيضاً مكانة دينية سامية. إن هذه المدينة، ومنذ وصول الملكة الهاربة وحتى المذبحة النهائية، قد اثبتت وبلا توقف اخلاصها لآلهة «صور». ألم يُنشيء القرطاجيون في قلب قلعتها، هناك حيث لم يتمكن العدو من الوصول إلى المدينة إلا بعد تدميرها، معبداً لـ«أشمون» إله الحرب «الأمير المقدس» لمجمع الآلهة الفينيقي؟.

هكذا فإن «المدينة الجديدة» لم تكن فقط قاعدة بحرية واسعة لتجار مغامرين، ولا مركزا تجارياً نشيطاً يديره رجال أعمال أثرياء، بل أيضاً، وربما أولا، كانت معبداً أقامه القرطاجيون لمجد الآلهة القادمة من فينيقيا!...



قرطاجة: غطاء ناووسين من الرخام المحفور،
(ربما يمثلان كاهناً وكاهنة) (القرن الرابع أو الثالث ق.م)

الفصل الثالث

المدينة والناس

«لقد عُرف القرطاجيون بأنهم منظمون بشكل جيد. كما أن دستورهم هو أرقى بكثير، وفي نواحٍ عديدة، من الدساتير الأخرى».

أرسطو

كم كان عدد سكان قرطاجة إبان اصطدامها مع روما؟ قد يكون من غير المجدي أن ننتظر اشارات واضحة حول هذه النقطة. يشير «استرابون» الذي كتب بعد مُضي قرنٍ ونصف ومن الحرب البونية الثالثة إلى أن المدينة نفسها كانت تضم (700) ألف ساكن ينتشرون فوق مساحة لاتتجاوز 250-300 هكتار، إن هذ الرقم مبالغ فيه بالتأكيد، أما فيما يخص ضاحية «المغارة» الواسعة والتى تقارب مساحتها 25 كم٢، فقد كانت الكثافة ضئيلة نسبياً في هذه الرقعة الريفية والفقيرة عموماً، فهل كان الرقم الذي أورده المؤرخ الجغرافي «سترابون» يعني في نفس الوقت سكان المدينة مع سكان العمق الجغرافي الأفريقي حيث استقر القرطاجيون؟ نبقى هنا في

مجال التخمينات. غير أن الشيء المؤكد هو أن عدد مواطني قرطاجة كان كبيرا نسبياً(*).

ونلاحظ في هذاالمجال أن المواطنة، التي كان يحق لكل من تحدر من أبوين قرطاجيين التمتع بحقوقها، كانت، ومثل أماكن أخرى، ممنوعة على العبيد والمحررين. وبالمقابل، كان يوجد عدد كبير من الأجانب من أفريقيين وإيطاليين، ممن سكنوا في المدينة بصفتهم سكاناً أحراراً، إذ حصلوا على حقوقهم المدنية مقابل الخدمات التي أدوها للدولة، كجنود في جيشها بشكل خاص. وفي القرن السابع ق. م، وبعد دمار «صيدون» وخضوع «صور»لسلطة آشور بانيبعل، وجد الكثير من الفينيقيين، الذين تمكنوا من الفرار، أنفسهم مضطرين للقدوم والاستقرار في هذه المستوطنة الغربية التي كانت ثروتها تتزايد بسرعة. ولقد تمتع هؤلاء القادمون الجدد، دون شك، بالحقوق المدنية والسياسية بسهولة.

والآن، هل بمقدورنا أن نكون فكرة عن مؤسسات «قرطاجة» وتنظيماتها؟ يمكننا في هذا الخصوص أن نبدي ملاحظتين: الأولى هي أن الكتاب الذين تطرقوا

---

* هناك مصادر أخرى تعطي تقديرات متواضعة جداً لعدد سكان قرطاجة بحيث تعتبر أن سكان المدينة مع ضواحيها لم يكن ليتجاوز المئتي ألف. وتبرير ذلك أن قرطاجة في المرحلة الحرجة من الحرب وإبان انقطاع المدد لم تستطع أن تضع تحت إمرة «هاملقار» أكثر من عشرة آلاف رجل ومثلها تحت إمرة «حنون» كما أن مجموع الذين دافعوا عن المدينة خلال حصار عام 149 ق. م لم يتجاوز الثلاثين ألفاً.

- K. J. Beloch, Die Bevolkerung der griechisch- Romischen Welt. Leipzig 1886. P. 467.

انظر أيضاً الكتاب المترجم عن الفرنسية:

Ignaz Miller, Karthago, Leben und kultur, Stuttgart 1983, P. 66.

كما أن المعطيات التي تقول أن القرطاجيين زجّوا في الحرب البونية الأولى بأكثر من مئة وخمسين ألف رجل في أسطول مكون من ثلاثمئة وخمسين سفينة، تبررها هذه المصادر باعتماد قرطاجة الدائم على تجنيد المرتزقة الأجانب.

المحقق

لمثل هذه المواضيع قلّة، وهم جميعاً غرباء عن المفاهيم الفينيقية ـ البونية مثلما هم غرباء عن تاريخ المدينة، إضافة إلى أنهم عالجوا هذه المواضيع بمصطلحات لغاتهم الأم، وذلك حين أشاروا إلى مؤسسات محددة لا يمكن أن تماثل ماكان موجوداً في العالمين الإغريقي والروماني. إن مسألة عدم التطابق في عمليات نقل المعلومات هذه ـ والتي كانت أشبه «بترجمات حرفية» ـ لا يمكن لها أن تلقي الضوء على مختلف مظاهر التنظيمات السياسية البونية، حتى أن النصوص التي وصلت إلينا لاتقدم لنا إلّا أفكاراً تقريبية.

أما الملاحظة الثانية فهي أنه من غير الممكن المطالبة باصطناع ترتيب مفصل ما لهذه التنظيمات، كما لو أنه كان يوجد «دستور» قرطاجي بقي دون تغيير منذ نشوء المدينة وحتى دمارها! إن هذا المفهوم الجامد Statique يعني لنا أن أم المدن الأفريقية كانت تبعاً له أداة طيعة في خدمة الارستقراطية التجارية، وهذا يمكن دحضه بسرعة وسهولة، فقرطاجة، في الحقيقة، مثلها مثل روما، أو الدول ـ المدن الإغريقية والفينيقية، عرفت تطوراً سياسياً انعكس على المستويين الاجتماعي والديني وكان على صلة مباشرة بمراحل التوسع الاقتصادي، أي مع مختلف مراحل المد والجزر اللذين شهدتهما العاصمة البونية في المتوسط الغربي.

ومن المحتمل أن «قرطاجة» اقتفت باديء الأمر آثار المؤسسات التي كانت موجودة في الوطن الأم. لقد كان النظام السائد في «صور»، كما في بقية المدن الفينيقية، هو النظام الملكي الوراثي. ومع ذلك، يبدو أنه إلى جانب السلطة الملكية تلك، كان يوجد ماسُمي «مجلس الشيوخ» [Anciens] الذي مُثّلت فيه العائلات الكبيرة. إن «جوستينوس»، في حديثه عن الرحلة العجيبة التي قامت بها الملكة «إليسار» يشير إلى «المواطنين الأول وأعضاء «مجلس الشيوخ» [Senateurs] الذين وقفوا ضد الملك الجديد «بيغماليون».

استأثرت عائلة «الماغونيين» بالسلطة ولثلاثة أجيال متتالية، وكانت أغنى العائلات التجارية في «قرطاجة»، وتتحدر من «ماغون Magon»، وهو قائد عسكري، أقتفى بدوره، على مايبدو، آثار قائد عسكري آخر اسمه «مالكوس

Malckus » وهـو شخصيـة تاريخيـة موضـع خلاف، وتمكنت «قرطاجة» في عهد هذه الأسـرة، التي شكلت سلالـة حاكمـة حقيقيـة، من كبح جماح التوسع الإغريقي في المتـوسـط الغـربي، واحتكـرت المـدينـة لوحـدهـا الإمتيـازات التجارية مع اسبانيا واستثمـرت ثرواتهـا المنجمية الهائلة في ترشيش ـ تارتسوس (ورد ذكرها فيما سبق)، ووسعت قواعدها في سردينيا وعلى جزء من صقلية حيث اصطدمت بعد ذلك بمقاومة شديـدة من حكّـام «سيـراكـوز». لقـد تمكنت «قرطاجة»، آنذاك، من السيطرة على تجـارة السـواحل الأفريقية، بدءاً من خليج «سيرته» وحتى السواحل المغربية، وربما إلى ماوراءهـا ـ ومن الممكن أن يكـون البحّار الشهير «حنون» قد قام برحلته العجيبة التي سيـرد ذكـرهـا فيمـا بعـد، في فتـرة حكم المـاغـونيين ـ لقـد أصبحت قرطاجة أمبراطورية بحرية وتجارية واسعة الأرجاء، كما تمكنت من التخلص من دفع الأتاوة التي فُرضت عليهـا حين تأسيسهـا إلى الأفـريقيين، بل أنهـا فرضت سيطـرتهـا على مناطق غنية وثرية في وسط تونس الحالية وشمالها.

إن معلومـاتنـا عن مؤسسـات السلطـة خلال القرنين السادس والخامس ق. م قليلة، ولكن يبـدو أن المـدينة قد خضعت لشكل من أشكال «الملكية» المبتكرة، إذ أنهـا كانت وراثيـة وانتخابية في نفس الوقت. وفي الواقع، ورغم أن جميع «الملوك» كانـوا يتحـدرون من عائلة واحـدة هي العائلة «الماغونية»، إلا أن تقليدهم مناصبهم كان يتم من قبـل مجلس مازلنـا نجهـل طبيعتـه، وكـان هؤلاء «الملوك» يحتفظـون بالسلطة حتى وفاتهم، ويبدو أن هذا المجلس كان يأخذ بالإعتبار الميزات العسكرية للمرشحين لشغل ذاك لمنصب. إذ تم اختيار «هاملقار» ملكاً، (وهو الذي قتل وهُزِم عام 430 ق. م في (هـيـميـر Himere بصقليـة)، ليس لأنـه كان يتحـدر من عائلة المـاغـونيين فقـط، بل أيضـاً بسبب شجاعته التي ذاع صيتها (هيرودت VII 165) . ا ونضيف أيضـاً أن السلطـة العليـا في الدولة تطورت سريعاً، ونورد في هذ الخصوص نصاً معبراً لـ«جوستينوس» يقول فيه: «ولأن عائلة الماغونيين هذه كانت تضغط على الحـريـات العـامـة وتتـدخـل في سيـر أمور العدالة إضافة إلى حكم الدولة، فقد تم تشكيـل محكمـة وتعيين خمسـة قضاة اختيروا من بين أعضاء مجلس الشيوخ، وكان

على قادة الجيش، بعد كل حربٍ، أن يمثلوا أمامها ليقدموا تقارير عن عملياتهم. وتهدف هذه العملية إلى زرع احترام سلطة الدولة في نفوس القادة، وكي تكون رهبة القضاء والقانون محركاً لهم في سبيل خضوعهم لقرطاجة» (5, 2, XIX) .

وخلال النصف الثاني من القرن الخامس ق. م، قام هؤلاء «الملوك» شيئاً فشيئاً بتخفيف الدور الذي كانت تلعبه المؤسسات الدستورية. فبعد اضمحلال نفوذ «الماغونيين»، انتقلت السلطة إلى عائلة أخرى هي العائلة «الحنونية Hannonides» التي أسسها «حنون الكبير» وإلى منافيسهم من عشيرة «هاملقار». ويمكن أن نرى في محاولة «بوملقار»، الذي سعى لأن يقود عملية اصلاح للسلطة عام 308 ق. م، وطالب بتنصيبه ملكاً، يمكن أن نرى في ذلك رد فعل على التشريعات السائدة، غير أنه صُلب في ميدان قرطاجة، وتمكن، من على صليبه، من توجيه آخر خطبه إلى الشعب (جوستينوس 11, 8,7 XXII) . إن تفسخ السلطة الملكية أدى إلى تشكيل حكم أقلية من العائلات الكبرى التي جنت ثروات هائلة إبان فترة التوسع «الأمبريالي» في عهد الماغونيين، إذ رغبت هذه العائلات، إلى جانب ثرائها الفاحش، أن تمارس السلطات السياسية، ولقد عرض لنا «أرسطو» في كتابه «السياسة» طبيعة الهيئات الدستورية التي تطورت بسرعة والنظام الإنتخابي الذي كان سائداً في «قرطاجة» آنذاك، حيث يقول: «لقد عُرف القرطاجيون بأنهم منظمون جيداً، كما أن دستورهم هو أرقى بكثير، ومن عدة نواحٍ، من الدساتير الأخرى [. . .]، إن عدد المؤسسات في قرطاجة كبير وهذا يدل على الإحترام الذي يحظى به الدستور، لقد ظلت هذه المدينة متمسكة بهيئتها الدستورية بسبب اعتماد الدستور على إرادة الشعب، إذ لم يقع قط أي حدث جدير بالملاحظة كحوادث التمرد أو محاولات الإستيلاء على السلطة» ويضيف «أرسطو» قائلاً:

«إن لهذا النظام هيئات (مجالس) شبيهة بتلك الموجودة في دستور «لاكونيا Laconie »(*)، فالجمعيات السياسية (Hetairies) الموجودة في قرطاجة شبيهة بالـ

* (لاكونيا Laconie)، وأصل الاسم «لاكيديمونيا Lakedaimon »، وهي الأرض الخصبة الممتدة

(Phitidies) الموجودة في «اسبرطة»، كما أن هيئة قضاة الـ«مئة وأربعة» تشبه مجلس Ephores (مجلس حكام اسبرطة)، وأخيراً فإن الملوك القرطاجيين، (أي القضاة Suffetes) ومجلس الشيوخ (Gerousia) يماثلون ملوك ومجلس شيوخ مدينة اسبرطة. إلا أن الميزة التي تتفوق فيها قرطاجة هي أن الملوك (أو القضاة) لم يكونوا منتمين إلى عائلة واحدة أو إلى عائلة بحدٍّ ذاتها. أما في حال وجود عائلة ما قوية، فإن التيار الملوك كان يتم بالإقتراع، بدلاً من أخذ كبر السن بعين الإعتبار[...]، إن الدستور القرطاجي يميل أحياناً إلى الديموقراطية، وأحياناً أخرى إلى الأوليفارشية (حكم الأقلية)، إنه ديموقراطي لأن «الملوك» كانوا، مع «مجلس الشيوخ» أحراراً في أن يعرضوا أو لا يعرضوا على الشعب قضية ما إذا كانوا جميعهم متفقين حولها، وإلا فإن بمقدور الشعب التدخل وحسم مثل هذه المسائل. أما بالنسبة للقضايا التي يتم طرحها على الشعب، فكان «الملوك» ومجلس الشيوخ، يتيحون له، ليس فقط الإصغاء لقرارات الحكومة، بل أيضاً، امكانية الحديث بحرية مطلقة، وكان بمقدور كل مواطن أن يناقش القضايا المعروضة للبحث، وهذا ماليس موجوداً في دساتير أخرى».

«من ناحية أخرى، ترك الدستور لحكومة الخمسة (Pentarchies) وهي هيئة مؤلفة من خمسة قضاة وتبتُّ في القضايا الخطيرة بشكل غير قابل للنقض، ترك لها أن تشارك في عملية انتقاء الهيئة العليا لمجلس المئة. وكانت هذه الحكومة الخماسية تمارس سلطتها لمدة أطول من مدة أعضاء هيئة القضاة (فهم حتى لو تركوا مسؤولياتهم أو كانوا على وشك تحملها، يمارسونها عملياً)، وهذه هي الصفة الأوليغارشية في دستور قرطاجة. إضافة إلى ذلك، توجد في الدستور سمات

طولياً في البيلوبونيز، في منخفض Eurotas، على سفح جبل Taygetas. ويطلق هذا الاسم للدلالة، أحياناً، على عاصمة المنطقة اسبارطة Sparte، ويُدعى سكانها، تخفيفاً، اللاكونيين Lakones. وتبعاً لذلك كانت المنطقة غالباً ماتدعى «لاكونيا».

المحقق

ارستقـراطيـة مثـل القـاعدة التي تنص على أنه لايجب على القضاة بذل أموالهم لقاء توليهم منـاصبهم، ولايتم اختيـارهم بالقـرعـة أوبأي طريقـة مشـابهة، وعلى هيئات القضاة أن تكون لديها إمكانية الحكم في كافة القضايا دون أن توزع الإختصاصات مثلما كان موجوداً في دستور (لاكيديمونيا)».

ويتابع «أرسطو» قائلاً:

«لقـد انجـرف النظـام السيـاسي القرطاجي من الإرستقراطية إلى الأوليفارشية بفعـل ضغـط الـرأي العام الذي رأى أن المعيار الذي يجب اتباعه في عملية انتخاب القضـاة، ليس فقـط جدارة المرشحين بل غِناهم أيضاً. فالمواطن الفقير لايمكن أن يكون قاضياً جيداً، وبهذا أصبح انتقاء القضاة حسب ثرواتهم مبدأ «أوليغارشيا»، في حين أن انتقـاءهـم حسب الجـدارة أصبح يُعتبر مبدأ ارستقراطياً، وأدى هذا إلى وجود تركيب ثالث استنـدت إليـه القواعد الدستورية القرطاجية. لقد أصبح هذان الشرطان يؤخـذان بعين الإعتبـار خلال عمليـات الإنتخـاب وبشكـل خاص انتخـاب القضاة الأرفـع شأنـاً كالملوك والقادة العسكريين. إلا أنه علينا، مع ذلك، أن نفسّر انحراف المبـدأ الارستقـراطي هذا على أنـه خطأ المُشـرِّع. [. . .] ومن الطبيعي أن يعتـاد أولئـك الـذين اشتروا مناصبهم على جني الأرباح منها، إذ أن سبب قوة نفوذهم عائد إلى سعـة ماينفقـونـه من أموال [. . .]. وكان بالإمكان، أيضاً، رؤية شخصٍ واحدٍ يمثل عدة مناصب في نفس الوقت، حتى أن قرطاجة اشتهرت بهذا التقليد. [. . .] ومع أن نظامهم أوليغارشي، استطاع القرطاجيون أن يتحاشوا بواسطة المخاطر وذلك بسبب غنى مواطنيهم، إذ أنهم كانوا يرسلون، وبشكل دوري، قسماً من الشعب إلى المدن التابعة لهم، وبهذا استطاعوا أن يحققوا، رسوخ دستورهم»(٤٠).

وبـاستطـاعتنـا أن نتمم هذا العـرض ذا المحتـوى الفقهي Doctrinale ببعض المقـولات المجتـزأة التي يكن استخـلاصهـامن كتـابـات «ديودور الصقلي» و«تروغ بومبي»، إضافة إلى ماكتبه الجغرافي الإغريقي (ايراتوستين Eratosthene) في القرن الثالث ق.م، الذي كان يلاحظ أن البعض لم يكن يقيم أي اعتبار لأي من الشعوب

البربرية وبشكل خاص «للقرطاجيين الذين كان لديهم هيئات سياسية جديرة بالإعتبار»[٤١].

من مجمل هذه النصوص يمكننا أن نستخلص أنه كانت توجد على رأس الدولة هيئة مكونة من أعضاء مجلس الشيوخ يطلق عليهم اسم Suffetes (القضاة Shofet)، وهي تسمية فينيقية معروفة لدينا بفضل النقوش البونية. نقلها لنا «أرسطو» بمدلول (Basileus باسيلوس = ملك) بيد أن المعنى الحقيقي لهذه الكلمة يطابق تماماً المدلول المستخدم به في «سفر القضاة» التوراتي.

كان يُنتخب قاضيان في كل عام لترؤ س مجلس الشيوخ، وكانا يسيطران ليس فقط على السلطة القضائية التي تهتم بالمسائل الخاصة ـ ومن مسؤوليتهم هذه اشتقت تسميتهم Suffetes ـ وإنما على السلطة السياسية أيضا؛ إذ كان يحق لهما دعوة المجلسين اللذين نص الدستور على وجودهما والإشراف على أعمالهما لإحالة القضايا التي يجب البت فيها إليهما. ومع ذلك، يبدو أن هذين القاضيين قد أُبعدا عن المؤسسة العسكرية التي عُهد بها إلى ضباط كبار «Generaux». ومن ناحية أخرى، لاشيء يسمح لنا أن نظن أن السلطة الدينية كانت بمنأى عنهما.

تحدثنا فيما سبق عن مجلسين كانا يجتمعان بإشراف القضاة. فلقد كان يوجد في قرطاجة هيئة أُطلق عليها اسم «المجلس الكبير Grand Conseil» [بوليبوس Syncletos: 4, 1, XXXVI, 18, 2, X]، أو كما سماه المؤرخ الروماني «تيت ـ ليف» اسم «Senat» ـ وهي تسمية شائعة في العالم الروماني ـ. وكان أعضاء هذا المجلس يجتمعون في بناء واقع على مقربة من ميدان «قرطاجة» الرئيسي. وكان يضم زمن الحرب البونية، هيئة محددة ودائمة، أطلق عليها اسم «مجلس الشيوخ»، ومازال المعلومات حول عملية اختيار الـ «Syncletos» قليلة، ولكن يبدو أن هيئته كانت مقتصرة على ممثلي العائلات البارزة. وكانت اختصاصاته واسعة: مثل القضايا السياسية والإدارية البت في مسائل الحرب والسلام، مناقشة الشؤون الخارجية والسفارات، الإشراف على تنظيم الجيش واختيار المرتزقة، تدريب الضباط القادة ومحاسبتهم بعد الهزائم والحكم عليهم، إضافة إلى كل مامن شأنه

المساس بأمن الدولة وإصدار القوانين المختلفة الخاصة بالضراب والشؤون المالية.

لقد كان هذا المجلس واسعاً جداً بحيث كان ينبثق عنه مجلس آخر هو الـ«مئة وأربعة» الذي تحدث عنه «أرسطو» حين قال أن اختياره كان يتم «حسب الجدارة»، وكان شبيهاً بالمحكمة العليا، ومؤهلاً لمراقبة وتدقيق أي أمرٍ في شتى المجالات. وإضافة إلى صفتهم القضائية الخاصة بالحق العام، كان أعضاء مجلس الـ«مئة وأربعة» غير قابلين للعزل، ومسؤولين عن تحقيق الأمن العام بإشرافهم على شرطة قوية جدا. لقد تحدث أرسطو أيضاً عن «الحكومة الخماسية» [Pentarchies] - المؤلفة من خمسة أشخاص - وكانت مهمتها مراقبة قطاعات الحياة السياسية أو الاجتماعية المختلفة.

بهذا نرى أن حكام قرطاجة أسلموا زمام قيادةالدولة وإداراتها إلى هيئات متعددة بدلاً من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كان كل واحد منهم مسؤولاً عن شأن معين وبصورة مستقلة، الأمر الذي ربما كان سببه الحذر من أية محاولاتٍ طموحة هدفت إلى إدخال الإصلاحات على نظام إسرة الماغونيين، التي استأثرت كلياً بالسلطة، كما رأينا.

كما أوضح لنا «أرسطو» في عرضه المبسط أن مجلساً آخر وكان يوجد في قرطاجة إلى جانب المجلس الكبير، سماه «مجلس المواطنين». وأكد العديد من النصوص القيمة وجود هذا المجلس الشعبي الذي كان يعقد اجتماعاته في الميدان العام، إما بدعوة من القضاة Suffeles، أو من تلقاء نفسه عند وقوع أحداث خطيرة. وكان هذا المجلس يتمتع بسلطات هامة، إذ أصبح من حق هذا المجلس وحده، بدءاً من القرن الثالث ق. م، اختيار قادة الجيش الكبار، ولهذا، كانت مسؤولية الهزائم العسكرية، حين حدوثها، تقع على عاتق الشعب كله. كما أصبح المجلس، زمن هانيبعل برقا، يعين القضاة ومجلس الشيوخ. كما كان يجتمع أيضاً للتشاور في القضايا التي وافق عليها المجلسان السياسيان الآخران، وهي عملية لم تكن بالهيئة، إذ كان لكل مواطن الحق في أن يعبر عن رأيه ويبدي الإنتقادات ويقترح التعديلات التي يراها مناسبة، وتعود إلى المجلس الشعبي هذا مهمة حسم الأمور

بشكـل نهـائي . إلا أن هذه العملية الديمقراطية لم تكن مطبقة بشكل حقيقي إلا في القرن الأخير من حياة قرطاجة .

لقـد ولـدت آمـال عظـام في العـالم البـوني كله إبـان الحـرب البونية الثانية ، وخصـوصـاً بدءاً من عام 202 ق . م ، في زمن الإنتصـار الخارق الذي كان «هانيبعل» يحققـه ، وبعـد النهـايـة المأسـاويـة للحـرب ضد «روما» ، لقد تسارعت وتيرة التطور السيـاسي ، غيـر أن النظـام القـديم لم يكن قد أُعـدَّ العاصمة بشكلٍ جيد لمواجهة منافستها القوية «روما» لذا كان من المحتم استخلاص العبر من كل ذلك . لقد أدت هزيمة «زاما Zama » إلى كشف حقيقة هذا النظام بشكل تام ، وأظهرت بشكل جلي التـوتـرات التي كانت تسـري في المجتمع القرطاجي الذي فقد ، في الواقع ، الكثير من هيبته بسبب تضخمه المتزايد . لقد ذكرلنا «أرسطو» في نصه السابق ، أن الحكومة كانت تلجأ إلى علاجٍ موروث ، بهـدف التحقيق من حدة التنـاقضات الداخلية التي كانت تؤدي إلى الهزات الإجتماعية ، إذ كانت ترسل بشكل دوري قسماً من الشعب إلى المدن «التابعة» . وهكذا ، وبفضل الوظائف التي كان يعهد بها إليهم ، والخيرات التي كانـوا يكتسبـونهـا خلال فتـرة إقـامتهم هناك ، كان يصبح بإمكان هذه العائلات المحـروم من الحظـوة في وطنهـا الأم ، أن تحمل إلى الفئة الحاكمة في العاصمة دماً جديداً ، بحيث كانت ، على الأقل ، تتواءم معها . غير أن هذه العائلات الفقيرة كانت تصبح ، عند خروج المدن «التابعة» عن سلطة قرطاجة ، أولى ضحايا الكوارث التي تحـل بالمـدينـة . لذا سعت السيـاسـات الأكثـر حذراً لإقامة نظامٍ أكثر ديموقراطية ، تستطيع بواسطته إخفاء المشاكل الإجتماعية التي كان تلوح في الأفق . والنص التالي لـ«بـوليبـوس» يقـدم لنـا دليـلاً على ذلـك إذ يقـول : «يبـدولي ، فيمـا يخص الدولة القرطاجية ، أن مؤسساتها مبتكرة جداً ، إذ كان يوجد ملوك [قضاة Suffetes] ومجلس شيـوخ ذو طبيعـة ارستقـراطيـة ويمـارس بعض السلطـات . وكـان بمستطاع الشعب التـدخـل في القضـايا الداخلة ضمن اختصاص هذا المجلس . إن ترتيب السلطات القـرطـاجيـة يشبـه ، بشكـل عام ، ماكان موجوداً في «روما» و«اسبرطة» . غير أن هيبة الـدستـور القـرطـاجي أخـذت تضعف في الـوقت الذي بدأت فيه حروب هانيبعل ،

ليتفوق عليه دستور «روما». إن تطور كل فرد أو منظمة سياسية أو أي عمل إنساني لا بد أن يمر في مراحل ثلاث: مرحلة للنمو، وثانية للنضج وأخيراً مرحلة الشيوخة أو الإنهيار [. . .]. لقد أدرك القرطاجيون وسائل القوة والإزدهار قبل الرومان، ولكن في الوقت الذي كانت فيه روما في أوج قوتها كان القرطاجيون قد تجاوزوا حدود الذروة.

كان صوت الشعب في قرطاجة قد أصبح مسموع في مداولات المجلس، أما في روما فكان مجلس الشيوخ في أوج قوته. كان رأي أكثرية الأعضاء هو المسموع في قرطاجة، في حين كان صوت من انتخبه المواطنون هو الحاسم في «روما»[٤٢].

بهذا الشكل يصف «بوليبوس»، الذي قدم إلى أفريقيا ضمن مجلس قيادة «سيبيون إيمليان»، التغيرات العميقة التي حدثت - والتي يرى فيها دلالة على الإنهيار - غير أن مرحلة التطور الأخيرة هذه، المتأخرة بعض الشيء، إنما كانت دليلاً على الفعالية المتأصلة التي كانت تنفح قرطاجة بالحياة حتى آخر أيامها.

جنـود قرطـاجـة

كمـا ورد في سيـاق أسطـورة تأسيس قرطاجة، التي ذكرها «جوستينوس»، قرر مرافقوا «إليسار» تثبيت موقع مدينتهم بعدمـا أخرجوا من باطن الأرض رأس حصان، وكـان هذا يمثـل، في نظـرهم، رمـزاً لشعب محـارب، رأوا فيـه إشـارة إلى مستقبل سعيد. غير أنه نادراً مايتطابق التاريخ مع ماتعدنا به النبؤات[٤٣].

إن القـرطـاجيين، بكل تأكيـد، أبـدوا خلال حروبهم مع روما، وفي مناسبات عدة، قدرة حربيـة مشهـود بهـا. كما أن مقاومة المدينة، وخصوصاً خلال آخر حصار تـعرضـت له، أثبتت أن جنـود قرطـاجـة كانـوا يوازون جنود روما شجاعة، ويتفوقون عليهم بروح المواطنة التي حملوها، إضافة إلى المآثر الفردية التي قاموا بها. ورغم هذا المثـال الإستثنـائي للحيـويـة والتضحيـة التي قدمها شعب قرطاجة في الظروف المأساوية، فإنه - أي شعب قرطاجة - لم يكن يتمتع بنزعة حربية. إذا كان بمقدورنا أن نتحدث هنا عن «نزعة» - فهذا الشعب لم يُبدِ أي ميل لتذوق هذه الطقوس «البربرية».

إن «قـرطـاجـة» ـ وهي ابنـة «صور» ـ لم تكن تهدف مطلقاً إلى تكريس نفسها كرأس جسرٍ لتـوسيـع المشـاريـع العسكـرية. كما كان هناك اختلاف كبير بين وضع المواطن في الدول ـ المدن الإغريقية وفي «روما» الجمهورية في عصورها الأولى من جهـة، وبين وضـع المـواطن في قرطـاجة من جهة أخرى. فكما نعرف، على سبيل المثـال، كان كل مواطن في رومـا مهيأ لأن يصبـح جنـدياً، حتى أن «جمعيات المئة Comices Centuriates» التي كانت تحتشـد في ساحـة «مـارس Mars»، وهي تمثل الشب المعبأ تحت السـلاح، قد حصلت على امتيـازات سياسية وتشريعية وحقوقية، وبشكـل خاص على امتيـازات عسكرية. في حين لم يكن يوجد في قرطاجة مايشابه ذلك، فالشعب الذي كان يجتمع في «مجلس المواطنين» لم يكن ملزماً بأية واجبات عسكـريـة. وفي «رومـا» أيضـاً، كان القنـاصـل يتقـدمـون طلائـع الفرق العسكرية ويقـودون الحمـلات، أما في «قرطاجة» فلم يكن بمقدور «القضاة»، أن يتدخلوا في سير المعارك، إذ عُهد بهذه المهمة للضباط الذين اختارهم الشعب.

من الواضح أن الفئة الحاكمة في قرطاجة بقيت ولمدة طويلة حذرة من طموح قادة الجيش الـذين كان وجـودهم يفـرض نفسه كضرورة لامناص منها، رغم أن هذه الـوظيفـة كانت غير مألوفة في التقاليد الفينيقية، البونية القديمة. على أي حال، كان «المجلس الكبيـر» يراقب مجمـوعـات الضبـاط هذه بشكـل دقيق. وقـد أكـد لنـا «جـوستينـوس» هذا حينما قال أن محكمة «المئة» قاضٍ أنشئت وكان «على الضباط أن يقدموا لها تقارير عن عملياتهم»، ويبدو أن الهدف من هذا الإجراء كان منعهم من الذهاب بعيداً فيطموحات قد تتعارض مع سلطة الدولة.

نعم، كانت الأوسـاط القـرطـاجيـة الحـاكمـة تخشى من أن يفـرض المرتزقة قانـونهم، كمـا أن مهنـة الحرب هذه كانت بمجملها موضع شكٍ. وحول هذه النقطة يقـول «ديـودور الصقلي»: «إن القرطاجيين الذين يشنون الحروب لايثقون بجنودهم المواطنين» [3, 38, V] .

رغم كل ماتقـدم، كانت توجـد استثناءات لهذا الإتجاه العام. ونورد مثالاً عن «المعـركـة المقـدسـة» التي خاضتهـا فرقة منتخبة من ألفين وخمسمائة شاب يمثلون

أقوى العائلات الأرستقراطية ، وذاع صيتها بمعاركها ضد جيوش «تيموليون Timoleon » ، وقد أبيدت هذه الفرقة عن بكرة أبيها في نهاية الأمر في معركة «كريمزوس Crimisos » في صقلية عام 339 ق . م ، وفي مناسبة أخرى ، اختير عدد من المواطنين القرطاجيين لإعاقة مسير فرق «ريغوليوس Regulus » الذي نزل عام 250 ق . م في افريقيا . كما حدثت محاولات أخرى شبيهة في نهاية الحرب البونية الثانية . مع ذلك ، يلاحظ أن عمليات التجنيد هذه «كانت قليلة وكان يتم اللجوء إليها في الظروف الإستثنائية . وعلينا هنا أن نضع على حدة التحرك الشعبي العام الذي حدث بين عامي 149 -146 ق . م ، إذ أن الأمبراطورية البونية حينئذ كانت قد تضاءلت حتى اقتصرت على المدينة فقط . وفي نهاية مطافنا حول هذه المسألة ، علينا أن نصغي إلى «بوليبوس» وهو يقول لنا : «بالنسبة للحرب البرية ، كان لدى الرومان أفضل الجنود ، لأنهم كانوا يسخرون كل مابوسعهم في سبيل تدريبهم ، في حين كان القرطاجيون يتهاونون في تدريب جنود المشاة ، ولايبالون كثيراً بخيالتهم ، وهذا يفسر لنا سعي القرطاجيين الدائم لاستخدام المرتزقة الأجانب في قوام جيوشهم» . [52, 7, VI]

لقد برز دور الفرق الأجنبية ، وكانت تضم الليبيين بشكل خاص ، في جيش «هاملقار الماغوني» إبان معركة «هيمير» في صقلية والتي دارت عام 480 ق . م . وفيما بعد ، أصبح جيش قرطاجة يضم مجموعات مختارة من الأقاليم التابعة لها - من أفريقيا بشكل خاص - إلى جانب مجموعات مساعدة كان حلفاء المدينة يقدمونها ، إضافة إلى مجموعات من المرتزقة الذين كانوا يتطوعون بشكل إفرادي أو ينضوون تحت زعامة أحد قادتهم .

كانت قرطاجة مضطرة لتجييش الجنود الأجانب ، إذ أن هذه المدينة ، وبعد أن مدّت سيطرتها الاقتصادية على مناطق واسعة جداً ، اصطدمت في مناسبات عديدة بمقاومة بعض الحكام المحليين ، إضافة إلى مواجهتها مع منافسين آخرين كما حدث في صقلية وإسبانيا . ولم يكن باستطاعة مواطني قرطاجة أن يكونوا جيشاً كافياً قادراً على الدفاع عن تلك المراكز . كما أنه لم يكن بالمستطاع ، ارسال مواطني

قرطـاجـة ـ وهم في نفس الـوقت صنّـاع المـدينـة وحـرفيـوها ـ إلى أماكن بعيدة وفي حملات محفوفة بالمخاطر، فلقد كان المواطنون في هذه المدينة ركيزة عظيمة الأمبراطورية.

وبعـد السيطرة على بعض المناطق الليبية (الأفريقية)، التي تشمل حالياً وسط وشمال تونس، وذلك خلال القرن الخامس ق.م، أصبح لقرطاجة مدن كثيرة خاضعة لهـا. إضـافة إلى ذلك، قدم لها حلفاؤ ها أمراء «نوميديا Numidie» وحدات عسكرية هامة. وقد شكلت قرطاجة من هؤلاء الليبيين والنوميديين عدة فرق عسكرية شاركت في مختلف الحمـلات التي وجهتهـا إلى صقليـة وسردينيا واسبانيا وإيطاليا وأفريقيا. ومن بين العشرين ألف جندي الذين وصلوا إلى سهل «البو Po» في إيطاليا عام 218 ق.م، كان مجمـوع الليبيين والأفـارقـة اثني عشـر ألفـاً، ورغم كل ماأصـاب هؤلاء الجنـود من إنهـاك وحـرمـان فقـد كانـوا محـاربين ممتـازين، مع أن تسليحهم كان متـواضعـاً، وغـالبيتـه ممـا كانـوا يغنمـونـه في معـاركهم، كمـا حدث بعـد معـركـة «تـراسيمين». وكـانت تلك الأسلحـة، عموماً، عبارة عن خنجر، حربة وترس صغير مستدير الشكل، وغالبيتهم لم يكن لديه سيف أو خوذة أو درع.

ونشيـر في هذا المجـال إلى أن «قـرطـاجـة»، وبـدءاً من القرن الثالث ق.م، بدأت تولي الفـرسـان النـوميـديين اهتمـاماً كبيراً، وحتى أن معظم الستة آلاف فارس الـذين وصلوا إلى إيطـاليا كانوا منهم. وكانوا يستخدمون خيولاً صغيرة الحجم، قوية وسريعة وكانوا يعتبرون، كما يقول (تيت ـ ليف 5, 34, XXIX) «أفضل فرسان أفريقيا إذ أن تدخلهم في أغلب المعارك كان حاسماً.

وكـان لدى قرطـاجـة جيش آخر، هوجيش «الفيلة»، وهي بمثابة الدبابات في عصـرنـا هذا، وكـانت توجـد بكثـرةٍ في بلاد البـربر، ويقودها في المعارك فيّالة مهرة لتشيـع الـرعب في صفـوف مشـاة العدو. لقد ثبت للقرطاجيين فائدة استخدام الفِيَلة أكثر من مرة، غير أن الرومان، ولكي يتفادوا خطر هجماتها أو يخففوا منها، لجؤا إلى تشكيلات قتالية أكثر مرونة وذلك بتنظيم طرقهم على أرتال متباعدة جداً كانت تتفتح أمـام الفيلة، إضـافـة إلى ذلـك، لم تكن هذه الحيـوانات قادرة على الهجوم إلا في

الأراضي المنبسطة، كما أنها لم تكن دوماً سهلة القيادة، فحينما تُجرح، وتُصاب بالذعر كانت ترتد باتجاه من يستخدمها.

كان جيش قرطاجة يضم، إلى جانب الأفريقيين، وحداتٍ من الإيبيريين والليغوريين والساردينيين والكورسيكيين والغاليين والأتروسكيين والإيتاليين القادمين من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية. كما أسهم الإغريق في جيش المدينة، فحينما نزل «آغاثوكلس» Agathocls حاكم «سيراكوز» إلى أفريقيا عام 310 ق. م (*)، وجد في مواجهته فرقاً تضم مقاتلين إغريق وسيراكوزيين ضمن جيش المدينة البونية. كما تمكن القادة القرطاجيون، بعد نصف قرن، من تحقيق الإنتصار على جيش «ريغوليوس» بفضل خطة رسمها لهم، «اكسانتيبوس Xanthippe» قائد المرتزقة اللاكيديمونيين.

لم يعد في مقدورنا بعد كل ماتقدم، القول أن الفرق البونية كانت تشكل جيشاً وطنياً. غير أن القرطاجيين لم يهتموا بذلك حتى حينما كانوا يدركون مدى الحقد الذي يكنه الجنود المرتزقة إلى الدولة التي يقاتلون في سبيلها. لقد كانوا، أي المرتزقة، دائمي الشكوى من قسوة النظام العسكري ومن ضآلة الرواتب التي تُصرف لهم متأخرة دوماً، وكان قادة الجيش مجبرين على قمع انتفاضاتهم، مثلما حدث خلال التمرد الرهيب الذي حدث بين عامي 241-238 ق. م، وقاده «سبانديوس Spendios» الكامباني، و«ماثوس Matho» الليبي. وأدى هذا التمرد إلى «حرب لاتغتفر» كما وصفها الروائي الفرنسي «فلوبير» في رواية «سالامبو». وأظهر هذا التمرد

---

* تذكر بعض المصادر الأخرى، مثل « Worterbuuch der Antike, Stuttgart, 1989, P 8-7 »أن «آغاثوكلس» هذا، الذي لقب بـ«طاغية سيراكوز» عندما نزل على ساحل أفريقيا، قام بإحراق سفنه كي لايترك لجنوده خياراً آخر سوى النصر أو الموت. واستطاع بذلك احتلال الأراضي التابعة لقرطاجة. وقد مات مسموماً على يد أحد أحفاده. ومن المعروف أنه بعد هذه الحادثة بألف سنة تماماً، حوالي عام (711 ب. م) قام «طارق بن زياد» في عملية مشابهة بإحراق سفنه التي عبر بها مع جيشه إلى أسبانيا.

المحقق

درجة السخط الشديد الذي كان يعتمل في نفوس قادة المرتزقة، بحيث كان «هاملقار برقا» مضطراً لإبادة رفاق الحرب السابقين بمنتهى الشدة.

ونلاحظ في ختام هذا الموضوع، أن مصير المرتزقة الذين كانوا يخدمون في جيش قرطاجة، لم يكن أفضل من مصير الجنود الذين الذين كانوا تحت أمرتها، حتى أنه مهنة الضباط وقادة الجيش كانت أشد خطورة، إذ كان دورهم في خدمة بلادهم صعباً جداً، رغم أن بعضهم كان يتمتع بمواهب فذة. كما أظهر قادة آخرون، مثل «هاملقار برقا» وولديه «هاسدروبعل» و«هانيبعل»، عبقرية حربية مدهشة، ونعلم أن الاثنين الأولين قُتلا في المعارك، في حين أجبر الثالث، وهو الذي كان يتمتع بهيبة واحترامٍ شديدين، على الإعتزال بعد أن تنكر له وطنه.

كان يحكم على القادة المهزومين بالموت صلباً، مما دفع بالكثير منهم، لتحاشي هذه العقوبة الشائنة، إلى الانتحار. أما القادة الرومان من جهتهم فلم يكونوا يجهلون المصير الذي كان ينتظرهم، حين هزيمتهم، فيما لو كانوا يخدمون في جيش قرطاجة. ينقل لنا «تيف ـ ليف» أنه، وبعد هزيمة «كاني Cannes الرهيبة التي لحقت بجيش روما عام 216 ق. م. تم تشكيل وفدٍ يمثل الـ «Paters» لإستقبال القنصل «فيرون Verron » الذي نجى من المذبحة، وقدِم هذا الوفد ليقدم له التهاني على نجاته «ولو كان أحد قادة جيش قرطاجة، يضيف المؤرخ الروماني، لكان تعرض لأشد أنواع العذاب» [15, 61, XXII] .

كان القرطاجيون لايرحمون القادة المهزومين. وحتى لو حقق هؤلاء القادة انتصاراتٍ عظيمة، فإنهم، عندها، يصبحون موضع شبهة على افتراض أنهم قد يقومون بتدبير انتفاضات بغية تدمير المؤسسات الجمهورية. وكان هذا الموقف بنتائجه السلبية على المصلحة العامة دليلاً على التناقض الطبيعي والجوهري أحياناً الذي يوجد بشكل دائم بين السلطة العسكرية والحريات الجمهورية.

الحياة اليومية في قرطاجة

روى لنـا الخطيب الاغـريقي «ديـون كريسـوستـوم Dion Chrysostome» أن شخصاً اسمه «حنّون» غيّر القرطاجيون من صوريين، كما كانوا، إلى ليبيين. فبفضله سكنـوا ليبيـا، [. . .] وحازوا على ثرواتٍ كبيرة وأسواق واسعة [المحاورات XXV]، ولعـل «ديون كريسوستوم» يلمح في هذا إلى الأراضي التي كان القرطاجيون يهيمنون عليها بدءاً من النصف الأول من القرن الخامس ق. م. إن مثل هذه المناطق لا يمكن أن تكون قد ضُمت إلى قرطاجة إلاّ بشكلٍ تدريجي. فلقد كانت في وقتٍ ما مجزأة إلى سبـع أو ثمـان مقـاطعـات ـ ونحن نجهـل تطورها واتساعها في الفترة الواقعة قبل الحـرب البـونيـة الثـالثة. غير أنه فُرض على قرطاجة في عام 146 ق. م أن تتنازل عن أول أقـاليمهـا الأفـريقيـة إلى رومـا، وتم حفـر خنـدقٍ للدلالة على الحدود الجديدة لقـرطـاجة. هكذا كانت قرطاجة آنذاك، بعد ماخضعت لروما قبل نصف قرن، وبعد أن أقتطـع منهـا حليف رومـا البـربـري «مـاسينيسـا Massinissa» أجـزاء واسعة من أراضيهـا بحيث لم تتعـد مسـاحتهـا الخمس وعشـرين ألف كيلومتـر مربع. وأصبح بالإمكـان تعيين حدود الـدولتين ببعض النقـاط[11]: كانت حدودهـا الشمالية تبدأ من مصب وادي (التـوسكـا Tusca) [وادي الكبير] قرب «طبرقا» [على الحدود الجزائرية التونسية حالياً]، وتتجه نحو الجنوب الشرقي باتجاه المراكز التي تعرف حالياً بـ «بيجة Beja» و«تيبـورسـوق Tebou Rsouk». دون أن تضم إليهـا منـاطقهـا، ومن النقطـة الأخيرة تلك، كانت حدود قرطاجة تتحول إلى الشرق، وثم، على وجه التقريب عند «جبـل زغـوان Zaghouan»، تنـدفـع إلى الجنـوب حتى تصـل إلى شاطيء «سـرته الصغير» [خليج قابس]، غير بعيد عن مدينة «صفاقس» الحالية. إن جزءاً صغيراً من هذه الأراضي القـريبـة من العـاصمة والتي كانت قد الحقت بها ـ وهي غنية جداً مثل منطقـة «الـرأس الطيب» ـ كان قد شغله القـرطاجيون تماماً، الذين حازوا هناك على أراضٍ كانـوا يستغلونهـا بواسطة الخدم والعبيد. أما بقية أنحاء البلاد فكانت ملكيتها

تعود إلى الدولة بشكلٍ كامل، وكانت تُدار مع إبقاء الأراضي الزراعية بأيدي السكان الأفريقيين الذين فقدوا استقلالهم - باستثناء بعض العائلات التي حصلت على امتيازات وتمكنت من التكيف بسهولة مع النظام الجديد.

لقد سمح احتلال هذه المناطق لمدينة قرطاجة أن تنمو باضطراد، إذ أصبحت، إلى جانب قوتها البحرية والتجارية، قوة زراعية. ونمت إلى جوار الأقلية التجارية فئة ارستقراطية من ملاّك الأراضي. فهل أُضيف هذا الوضع الجديد إلى التوترات الإجتماعية التي كانت قد أصبحت ملموسة بين مختلف طبقات الشعب الحضري؟ إن هذه الفرضية ماتزال بحاجة إلى اثبات. ورغم نقص الأدلة التي تشير إلى هذه النقطة، يمكننا القول أن توسيع أراضي الدولة القرطاجية حدث باديء الأمر بفضل أولئك الذين استفادوا من زيادة ثرواتهم عبر تنويع مصادرها، أي باستثمار جزء من الأرباح التي تم الحصول عليها من التجارة في الملكيات العقارية. ولهذا رأينا أن الأسرة الماغونية التي سيطرت على مقدرات قرطاجة بدءاً من منتصف القرن السادس ق. م. أي قبل أن يصبح لقرطاجة أراضٍ زراعية خارج أسوارها. هذه الأسرة تمكنت من فرض هيمنتها لأنها كانت في ذلك الوقت أغنى العائلات التجارية في المدينة. وهي التي باشرت فيما بين عامي 475-450 ق. م بتنفيذ سياسة «امبريالية» وتمكنت من إلغاء الأتاوة، التي كانت على قرطاجة دفعها للأفريقيين، إضافة إلى تأسيس دولة بونية على حساب الليبيين. لقد كان «حنون»، الذي اعتبره المؤرخ الإغريقي «ديون كريزوستوم» وراء سياسة الإلحاق هذه، هو ذاته ابن القائد الماغوني «هاملقار» وحفيد «ماغون» ولهذا الأمر دلالته، إذ أن بعض «السادة التجار» القرطاجيين استأثروا بملكية الأراضي التي انتزعوها من السكان الأفريقيين، ومن المحتمل جداً أنه كان في ذلك فوائد عديدة بحيث تركزت الثروات بين أيدي بعض العائلات صاحبة الإمتيازات.

لقد استرعت المزايا التي تقدمها الزراعة انتباه البونيين، ويكفي، لكي نقتنع بهذا، أن نقرأ ماوصلنا ما يمكن أن نسميه دراسة أعدها خبير زراعي قرطاجي اسمه «ماغون»، وربما يكون مؤلفه الذي ضم ثمانية وعشرين كتاباً قد نجا من الحريق الذي أتى على مكتبة قرطاجة عام 146 ق. م بحيث لم يبق أي شيء من الكتب

الأصليــة . ولكن نظــراً لمـا حمله من معلومـات قيمـة برأي الإختصـاصيين، ارتأى مجلس الشيوخ الروماني نقله إلى اللاتينية، وتُرجم بعدها إلى اللغة الإغريقية. لقد فُقـدت هاتـان الترجمتـان أيضاً بحيث لم يصلنا منهما سوى حوالي أربعين استشارة زراعية ـ تشمل أحوال الزراعة والغِراسة وإدارة الأملاك الزراعية ـ وذلك بشكلٍ متناثر وعلى يد عدة مؤرخين رومـان. ويـرى «كوليمل Columelle»، وهو خبير زراعي أيضا ويعرف أهمية كتاب سلفه، أنه يجب اعتبار «ماغون» (أباً للعلوم الريفية).

كانت المنطقــة التي سيطــرت عليهــا قرطـاجـة، وتضم السهـول الـوسطى والمنخفضـة المـوجـودة حول نهـر «المجـردة» إضـافـة إلى التـلال الساحلية «لرأس الطيب» ومنحـدرات أقليم السـاحـل، كانت ذات تربـة خصبة بفضل هطول الأمطار الكـافي، والشـديـد في بعض الأحيان. ومنذ القدم، كان باستطاعة أهل تلك البلاد الحصـول على محـاصيل وفيرة عن الحبوب دون أن يضطروا إلى إراحة الأرض. أما في المنـاطق الجبليـة ـ في جبـال الـ«كـرومير Kroumir» والـ«موغود Mogode» ـ فقد كانت قطعـان الثيـران والأغنـام تمثـل ثروة حقيقية. وبدون شك، لم تستطع الزراعة البـونيـة أن تنتـج ـ بهـذه الأراضي الغنيـة نسبيـاً ـ وكل ماقدمته لاحقاً حينما أصبحت أهراء قمحٍ لروما.

كانت المساحة المزروعة من السعة بحيث تمكنت من تلبية حاجات السكان الأصليين إضافة إلى تغطية احتياجات سكان قرطاجة الكبرى جميعهم. وتظهر على النُصب وقطـع النقـود البـونيـة نقـوش لأشكالٌ مختلفة من المحاريث السكك. ومن البـــديهي أن الليبيين لم ينتظـــروا قدوم الأجـانب إلى أراضيهم كي يستخـدمـوا هذه التقنيـات الـزراعيـة البسيطة، كما أن مالكي الأرض الجدد لم يحاولوا مزاحمتهم في مجال انتاج الحبوب هذا، غير أنهم في المقابل سعوا للتخصص في مجالات زراعية معينة بحيث تمكنوا من احتكار بعض المحاصيل الغالية الثمن. فلقد تخصصت شبه جزيـرة «الـرأس الطيب» والإقليم الشمـالي الشرقي بإنتاج المحاصيل السباخية التي كانت رائجة جداً في أسواق العاصمة، إلا أن المجال الذي حدث فيه توسع كبير كان زراعة الكروم وغيرها من الغِراس المثمرة.

كانت زراعة الكروم تحتاج إلى عناية دقيقة. ويقدم لنا الخبير الزراعي «ماغون» عدة نصائح في هذا المجال فيما يخص الظروف المناخية وأحوال الأرض. إن الخبرة العميقة التي كان القرطاجيون يتمتعون بها جعلتهم يوجهون اهتمامهم إلى انتقاء أفضل أنواع الغراس والعناية بها، إضافة إلى تسميد الأرض بشكل جيد. وفيما يلي نورد مقطعاً يحدثنا فيه خبيرنا القرطاجي عن كيفية صناعة النبيذ من العنب الجاف، وماتزال هذه الطريقة مستخدمة حتى الآن في تونس، وبفضلها يتم انتاج نبيذ لذيذ غالي الثمن:

«نقطف العنب الناضج، وننقيه من الحبات العفنة والفاسدة، ثم نعرضه للشمس فوق عيدان قصب مرفوعة على أوتاد ومذاري غرست في الأرض على عمق أربعة أقدام ورُبطت بعصيٍ طويلة، ونغطيه ليلاً كي لاتبلله حبات الندى. وحينما يجف نفرط حبات العنب ونلقي بها في جرة أو خابية، ونسكب فيها أفضل أنواع المسطار(*) حتى يغمر حبات العنب. وفي اليوم السادس وحين تكون حبات العنب قد تشربت بالمسطار وانتفخت، نضعها في قفةٍ، ثم نكبسها لنأخذ منها عصيرها. بعد ذلك، نهرس الثفل ونضيف عليه المسطار الطازج المستخلص من عناقيد أخرى تُركت ثلاثة أيام تحت أشعة الشمس، ونضع هذا الخليط في المكبس بعد مزجه بشكلٍ جيد. ثم نقوم بوضع السائل الناتج عن وجبة العصير الثانية هذه في أوانٍ مغلقةٍ بإحكام بالطين كي لايصبح النبيذ لاذعاً. وبعد عشرين أو ثلاثين يوماً، حينما يتوقف التخمر، نفرغ النبيذ في أوانٍ أخرى وندهن أغطيتها فوراً بالكلس ثم نغطيها بالجلود»(٤٥).

أما فيما يخص الأشجار المثمرة، فقد بلغ الإهتمام بزراعة أشجار الزيتون شأواً بعيداً. فحسب رواية نقلها لنا المؤرخ «أوريليوس فيكتور Aurelius Victor» ولها دون شك بعض الجوانب الأسطورية، أن «هانيبعل» خشي على جنوده من مفاسد البطالة بعد صلح عام 201 ق. م، فقام بتشغيلهم في الأعمال الزراعية، وبهذه

---

* المسطار: عصير الخمر قبل طبخه.

المترجم

الطريقة «امتلأت أجزاء كبيرة من أفريقيا بأشجار الزيتون» [3, 37, Caes] . لقد كان من السهل تطعيم أشجار الزيتون البرية، كما يفعل السكان البربر حتى أيامنا هذه، إذ كانت تشكل مع شجر المصطكة الجزء الأكبر من الغطاء النباتي لحوض البحر المتوسط، وكانت تكثر أيضاً في منطقة «الساحل». ولم يكتف القرطاجيون بالتطعيم بل قاموا بزرع غراس الزيتون الجيدة، وفي هذاالمجال يقدم لنا «ماغون» نصائح أساسية: إذ يجب تحديد الفصل المناسب للغرس حسب طبيعة التربة، ويجب ترك مساحات واسعة وكافية بين الأشجار، ويضيف بأن اتباع هذه النصائح يجعل بالإمكان الحصول على انتاج وفير.

ومن بين الأشجار الأخرى التي وجدت نقوشها على النصب المكتشفة في «سالامبو» أشجار الرمان والتين. كما انتشرت زراعة نخيل التمر في حدائق وبساتين الدولة كلها، ووجدت رسومها على القطع النقدية والنذور القرطاجية، كما أن «ماغون» مارس لمدة طويلة عملية تهجين البذور وتطعيم الغراس وزراعة أشجار اللوز.

إضافة إلى الزراعة والأشجار المثمرة، كان القرطاجيون يهتمون كثيراً بأهم مصدرٍ كان موجوداً عند الليبيين، ألا وهو تربية الحيوانات، ويقدم لنا «بوليبوس»، الذي زار «سيرتا» [قسنطينة الحالية]، شهادة بارعة تصلح فقط للسهول المتوسطية، ذات المناخ الجاف والمناطق الجبلية في إقليم «التل» حيث كانت الزراعة قليلة الإنتشار، فيقول: «يوجد في أفريقيا خيول وثيران وأغنام وماعز من الكثرة بحيث لاأظن أنه بالإمكان وجود عدد يماثلها في بقية أرجاء العالم المسكون، وسبب ذلك، أن معظم الأفريقيين لايعملون في الزراعة، إذ أنهم يعيشون من قطعانهم ومع قطعانهم» [3, 3, XII] . كما أن تربية الحيوانات كانت لها أهمية كبيرة في الأراضي البونية نفسها، إذ كانت تقدم للسكان مايحتاجونه من الحليب واللحوم. والأدلة على مثل هذا الموضوع كثيرة. فخلال الحملات الرومانية في عام 256 ق.م، اندفع جنود القنصل «ريغولوس» في نهب أقليم «الرأس الطيب»، يقول «بوليبوس»: «إن الجنود الرومان الذين لم يلقوا أية مقاومة، خربوا الكثير من البيوت الفخمة واستولوا على

قطعان كثيرة من المواشي، وساقوا إلى سفنهم عشرين ألف عبد». [29, 1, I] . ونشير أيضاً، في معرض حديثنا عن هذا الأمر، أن المكتشفات الآثارية التي وُجدت في هذا الإقليم ذي الكثافة السكانية المرتفعة والأبنية الجميلة جداً. وخصوصاً بعد اكتشاف المدينة البونية «قِرقوان Kerkouane»، سمحت لنا بإبراز مجموعة من المباني هي بلاشك هامة جداً في تقديم المعلومات من هندسة البناء السكني(٤٦).

هذا الساحل الشرقي تغطيه اليوم البساتين وبيارات البرتقال ويزدان بالتجمعات السكنية البيضاء، في حين كان سابقاً عبارة عن منطقة ريفيةٍ معروفة بثرائها، تسرح في أرجائها قطعان المواشي المكتنزة، إضافة إلى غناه في الحاصلات الزراعية، وكانت لهذه المواشي صفات مختلفة، فمن أجل شراء الثيران، يقدم «ماغون» وصفاً دقيقاً للحيوانات المناسب شراؤ ها. ونستنتج من ذلك أنه كان بالإمكان انتاج حيوانات قوية ذات أصول جيدة بفضل أساليب التربية التي كانت سائدة. أما بالنسبة للخيول، التي تظهر كثيراً على قطع النقود والنصب التذكارية البونية، فيبدو أن القرطاجيين لجأوا إلى استخدام الأفراس المغربية الشهيرة التي كان النوميديون يستعملونها. وعلى بعض النصب الأخرى، تظهر رسومٌ لكباشٍ وأغنام ذات أصول مغربية بأليتها العريضة والسمينة. ونضيف أخيراً، أنه بإمكاننا أن نجد إشارة واضحة عن تربية الحيوانات في الأراضي البونية في «تسعيرة ذبائح القرابين» التي نصّت على الأجور الواجب دفعها إلى الكهنة حسب نوع الحيوانات وطبيعة القرابين(٤٧). وتذكر هذه الوثيقة: الثيران والعجول والكباش والتيوس والحملان والجديان والطيور الداجنة.

لقد أصبحت قرطاجة قوة اقتصادية استطاعت توفير احتياجات شعبها بفضل الحبوب، والمزروعات السباخية والكروم وأشجار الزيتون والأشجار المثمرة المختلفة، إضافة إلى قطعان الماشية. وبفضل المصادر التي كانت تأخذها من القرى والأرياف التابعة لها حيث فرضت الضرائب الثقيلة واختارت الجنود لجيشها وسمحت قرطاجة للسكان الأصليين باستغلال أراضيهم وتربية قطعانهم، كما كانت تتكفل بدفع نفقات إداراتها ومشاريعها هناك. وحين يعالج الأحداث التي وقعت

حوالي منتصف القرن الثالث ق. م بسبب تمرد المرتزقة وثورة السكان الأفريقيين، يعتقد «بوليبيوس» أن وراء هذه الأحداث الأعباء الاقتصادية التي فرضتها العاصمة، إذ يقول:

«كان القرطاجيون يأخذون حاجاتهم من منتجات الأقاليم التابعة لها «الكُوَر Chora»، أما العائدات الضرورية التي تكفل نفقات الدولة للجيش والخدمات العامة فكانوا يحصلون عليها من أفريقيا، [. . .] وخلال هذه الحرب التي انتهت قبل وقتٍ قصير، كان القرطاجيون يعتقدون أن الظروف قد قدمت لهم الأسباب كي يجنوا أرباحاً وفيرة من الشعوب الأفريقية. ففرضوا على جميع الساكنين في الأرياف تقديم نصف محاصيلهم، كما ضاعفوا الأتاوات التي فرضوها سابقاً على المدن، ورفضوا في نفس الوقت أي اعفاء منها، مع الإشارة إلى وجود عدد كبير من السكان المحرومين من أي مصدر رزق» [I, 2, 71, 72] .

إن النشاطات الزراعية، التي كان يعمل بها جزء من السكان في المراكز السكنية وخصوصاً في العاصمة، كانت قد ضاعفت من عدد المشاريع الصناعية والحرفية. وكانت لهذه المشاريع أهمية بالغة في تموين التجارة والداخلية، إذ أن تصديرها كان ضرورياً جداً للقرطاجيين الذين كانوا يبادلون منتجاتهم بالمواد الأولية وخصوصاً بالمعادن الثمينة التي كانت أساس هذا الثراء المدهش الذي لفت انتباه الجميع. ولهذا كان القرطاجيون يظهرون كورثة حقيقيين لأسلافهم فينيقي الشرق.

لقد أشرنا كثيراً إلى أن الصناعة القرطاجية لم تكن ذات شهرة كبيرة، فالقرطاجيون الذين كانت تنقصهم ملكة الإبداع(*)، لم يكونوا قادرين، إلا ماندر، سوى على تقديم المصنوعات الرضعية، ومع ذلك كان يوجد ابداع فني قرطاجي يمثل حضارة أصيلة، بل وراسخة. ويُصر «بيير سانتاس P. Cintas» على «ضرورة

---

* قد يلاحظ القارىء في هذا الكلام بعض التناقض عند المؤلف إذ يجرد القرطاجيين هنا من ملكة الإبداع، ويعود في الصفحات التالية ليظهرهم على أعلى درجات الإبداع الفني.

المحقق

عدم اعتبـار الحضـارة البـونية كنسخة مقلدة عن الحضارة الفينيقيه، إذ أن قرطاجة لـم تكن قرية تابعة لصور»[٤٨].

ولسنـا هنـا في موضـع سيسمـح لنا بجرد ماتحويه المتاحف من قطع تعتبر أكبر دليل على تنوع الذوق القرطاجي. بل يجب علينا أن نذكر المنتجات الرئيسية منها فقط.

علينـا باديء الأمـر أن نحلل تطـور الصنـاعـة المعدنية. فمن بين المهن التي كانت موجـودة في العـاصمـة - إلى جانب مهنـة النجـارة وبناء هياكل السفن - كانت توجـد أيضاً مهنة الحدادة وصناعة الأسلحة. وكان الحرفيون يعملون في زمن السلم في مشـاغلهم الخـاصـة ولحسـابهم الخاص، أما في زمن الحرب، فكان عليهم العمل لحسـاب الـدولـة التي هي بحـاجـة إلى الأسلحة وبكميات كبيرة جداً. إن المدافن البـونيـة تتيـح لنـا جمـع العـديـد من نماذج أدوات العمل التي كانت شائعة آنئذ مثل الفؤوس والمطـارق والملاعق والسواطـير (وُجـد سبعـة عشـر نصـلاً في قبـر صانـعٍ للسكاكين)، وبالمقابل، لم يعتد القرطاجيون على دفن الأسلحة في المقابر، وحول مصنع الأسلحة هذا، علينا أن نذكر مثالاً يعود إلى العام 149 ق. م، وهوبداية الحرب الثالثة مع روما، فبعد أن سلمت قرطاجة إلى عدوتها مئتي ألف قطعة سلاح وحوالي ألفين من الآلات الـلازمـة لصنعهـا. . » لمسنـا بوضوح كم كانت هذه المدينة قوية، كمـا يذكـر «بـوليبيوس» [6, 1, XXXVI]. إلا أن قرطاجة لـم تستسلم لهذه الشروط التي فرضت عليها وقررت أن تدافع عن وجودها، فأُطلق العنان من جديد لتسليح الجيش فكانت ورش تصنيع الأسلحة تنتج كل يوم مئة ترس وثلاثمائة سيف وخمسمئة خنجر ورمح وألف سهم خاص بالمنجنيقات وأكثر مايمكن انتاجه من هذه المنجنيقات.

كانت صنـاعـة النسيـج والصبـاغـة تستحوذ على أيدٍ عاملة كثيرة العدد. ولكن لايـوجـد بين أيدينا سوى وثائق قليلة حول هذا الموضوع. فإلى جانب النساء اللاتي كن يغـزلن وينسجن الصـوف والكتـان في البيـوت للإستخـدام العائلي الخاص - إذ وجدت بعض المغازل في عدد من القبور - ويبدو أنه كان يوجد نساجون يعملون في ورش خاصـة. ولقـد أشيـر إلى هذه المهن في بعض نُصب (سـالامبـو). أما صباغة

الأرجوان، التي كانت فينيقيا قد اشتهرت بها، فكانت شائعة جداً في العالم البوني.
لقد كان «المُرِّيق(*) Murex» ينتشر بشكل واسع في مياه الشواطيء الأفريقي مثل شواطيء «جربة» في تونس، و«كولو Collo» في الجزائر، و«الصويرة» في الشاطيء الأطلسي للمغرب، إضاف إلى شواطيء شبه جزيرة «الرأس الطيب» والمدينة البونية القديمة «قِرقوان».

إلا أن صناعة الخزف كانت الأكثر اتساعاً في العالم البوني، إذ تم استخراج آلاف من القطع الخزفية من العاصمة وحدها، وهي في معظمها أدوات جنائزية، وتعتبر في نظر الباحثين موسوعة متكاملة عن مختلف النماذج والقوالب التي كانت تخرج من أفران خزّافي قرطاجية الذين كانوا دون شك، ينتجون لكل عائلة في قرطاجة ماتحتاج من أدوات ضرورية مثل: الصحون والأطباق والأقداح والجرار





قرطاجة: (مدافن «بومنيجل» و«دُعَيمس»): أقنعة رجال (القرن السابع أو السادس والقرن الرابع ق.م)

* المرِّيق: ضربٌ من الرخويات البحرية تنتج صبغاً أرجوانياً.

المترجم

والخـوابي والقـواريـر والـ Askoi (*) والمصـابيـح . لقـد كانت أواني المائدة هذه معبرة بشكـل كبيـر عن وضـع اجتمـاعي محدد وتطور تقني ما . وكانت صناعة الخزف هذه ذات نوعيـة متواضعة ، كما أن الصلصال الذي يتم شيه بشكل متقن كان يقدم أشياء متينـة . غيـر أن تزيين تلك المنتجـات كان ينحصـر ببعض الخطوط الأفقية أو أشكال هندسية نافرة قليلاً ذات ألوان داكنة ، سوداء أو غامقة .

إن هذه الصناعة الخزفية ، رغم اقتصارها على تلبية حاجات منزلية أو جنائزية ، كانت ، في نظـر المؤرخ المهتم بحضـارة ما ، تعتبـر مفيـدة إلى درجـة معقولة . ففي الحقيقة «أن عامة الشعب الذي هو عادة موضوع الدراسة لأية حضارة كان يكتفي بآنية عادية [. . .] . وهذه الآنية الشائعة جداً نجدها بشكل كبير ، وهي فقط ، التي يمكن أن تكون دليلاً على ماضٍ حقيقي»[٤٩] .

إلا أن صنـاعـة الخـزف القـرطاجية لـم تنحصر في انتاج آنية ذات صفة نفعية . فهنـاك منتجـات أكثـر «خصـوصية» كالتماثيل الصغيرة والتماثيل الجرسية (تاج عمود على شكل جرس مقلوب) والوعائية[٥٠] (تماثيل مصنوعة تتخذ أشكال أوعية متعددة) ، وكذلك تماثيل نصفية من الصلصال الأحمر تمثل نساء وأقنعة رجال .

إن أقنعة الرجال تلك تمثل وجوهاً مُرداً تعلوها تكشيرة تجلب الرعب ، وأشكالاً مشـوهـة تعلوهـا ابتسـامات ساخرة ، متهكمة وهازئة ، وغالباً ماتكون عينا القناع على شكل هلالٍ مقلوب ، أما الأذنان فمكشوفتان ، ويمتليء الخدّان بالندوب ، وأما جبهة القناع فتعلوها أشكالٌ متصالبة . وكان لبعض الأقنعة أشكالٌ مُفرحة ، كما وُجد قناعان متشابهان يمثلان وجهاً تزينه لحية ، له عينان لوزيتان ، يوحي بالذكاء والهدوء ، تعلوه ابتسـامـة غامضـة . وكـانت توجـد ، في عدة أقنعة ، حلقات معلقة في آذانها ، وحُلي ذات قيمـة جمـالية مثيرة للجدال ، إذ لا يمكن أن تكون قد استخدمت كزينة للنساء . إن جميع هذه الأشياء المصنوعة من الطين المشوي كانت ذات خاصية دينية محلية ،

* ليس معروفاً ماذا قصد المؤلف بهذه المادة .

المحقق



قرطاجة: (مدافن «دِرمش»): أقنعة نساء (القرن السابع أو السادس ق. م)

فلقد كانت مخصصة لإبعاد أو إرضاء الأرواح الشريرة، وكانت هذه الأقنعة تعلق في البيوت أو سراديب المقابر، ولهذا السبب كان معظم الخزافين يثقبون هذه الأقنعة بشكل يسمح بتعليقها.

ومن بين الكثير من الأشياء التي كان صانعوا الزجاج البونيون ينتجونها، إضافة إلى الأواني وقوارير العطر والحواجل ـ التي كان بعضها يتخذ أشكال حيوانات أو رموزاً دينية ـ كشف عن بعض الأقنعة الصغيرة المصنوعة من عجينة رمل الصوان المزخرف، وكانت نسخاً مقلدة عن الأقنعة الصلصالية المشوية، إذ أن القصد منها كان حماية من يحملها خلال حياته أو حماية من توضع معه في قبره. لقد كانت لبعض هذه التمائم جاذبية حقيقية، فبعض النماذج فيها من الرقة مايترك في النفس أثراً عميقاً، كما أنها كانت مزينة بزخارف ملونة فخمة تتناوب فيها الألوان: الأبيض والأحمر الفاتح والأسود الكستنائي والأزرق والأخضر والأصفر الفاتح والفيروزي.

لقد بلغ الصاغة والجواهريون البونيون، مثل أسلافهم في فينيقيا، حد الإتقان في أعمالهم. فكانت المجوهرات مزينة بحبيبات كالأساور الذهبية على سبيل المثال، التي صِيغت بشكل حلزون واحد أو اثنين، مع عقود وردية يضاف إليها أحياناً

اللازورد، ومن أجل صناعة الرقائق الذهبية الخاصة بعصابات الرأس، كان الصاغة البونيون يلجأون إلى عملية الطرق. والواقع أن عمل هؤلاء الحرفيين جدير بالإعجاب وخصوصاً حينما نرى بعض أواني الخمر البرونزية المزينة والتي تمثل نماذج مختلفة كالوجوه البشرية ورؤوس السنانير، والتي كانت ذات جمال نادر.

لقد أتاحت لنا التنقيبات الآثارية جمع عدد كبير من هذه الحلي، وهي بمعظمها ذات استعمالات نسائية، غير أن قسماً منها كان قد جلب بالتأكيد من فينيقيا ومصر واليونان، ومنها مثلاً، الجواهر المعلقة بسلاسل، والحلي البيضاوية الشكل المحفورة والتي ترمز لأمور دينية مثل «قارورة المعبد» أو الهلال، إضافة إلى المشابك المزينة برسوم هندسية، والخواتم الذهبية ذات الفصوص الثابتة المنقوشة والتي تمثل أختاماً أو أشكالاً حيوانية أو رسوم أبطال أسطوريين، كما أن العقود كانت غالباً مصنوعة من كريات ذهبية أو زجاجية مشكوكة بالتناوب مع تماثيل صغيرة متعددة الألوان من الخزف أو العظام أو العاج أو الصوان، وكانت هذه التماثيل الصغيرة تمثل عناصر نموذجية مأخوذة من العالم المصري مثل الآلة «بتاح» و«توث» و«ايزيس» و«الصقر حورس»، إضافة إلى الأقنعة البونية ذات الوظيفة الدينية، وكانت هذه العقود تحوي على عناصر مختلفة مثل: هلالٍ من الفيروز، أو أقراص من الصفير أو أنواط ذات أشكال مختلفة مرتبة بشكل متناظر(٥١).

وتجدر الإشارة أيضاً إلى بعض الأشياء المعدنية المنقوشة والتي كانت مخصصة لأغراض السحر مثل الأغلفة الطلسمية ذات الأشكال المصرية حيث كانت تُكتب نصوص تلك الطلاسم على رقائق ذهبية أو فضية، وكانت هذه الأغلفة تدفن مع الأموات، وقد وُجد عددٌ كبير منها يمثل أشكال بلطات صغيرة تنتهي بساقٍ على شكلِ عنق التِّم. وكانت شفرات تلك البلطات الصغيرة مزينة بأشكال مصرية أو فينيقية بونية ومنقطة أو منقوشة برموز دينية أو حيوانية أو بأشكال نباتية مثل النخيل والورود. ويضاف إلى المتاع الجنائزي أيضاً المرايا المصنوعة من أسطوانات برونزية طُلي أحد وجوهها بطبقة من الفضة وكان لبعضها ساعدٌ من الخشب أو العظام أو العاج، وبعضها الآخر زُود بثقبٍ، وكان بدون شكٍ مجهزاً بسلسلة. وتم أيضاً

اكتشـاف عـدد كبيـر[٥٣] من قشـور بيض النعـام الملونة بالأسود والأحمر، وإضافة إلى أشيـاء كثيـرة من العظـام أو العـاج مثل الأساور وعلب المجوهرات والتماثيل الصغيرة المختلفة، كما كانت الأمشاط الصغيرة والكبيرة تصنع من العاج وتزخرف أحياناً بالنقوش.

ونـذكـر أخيراً، وليس آخراً بطبيعة الحال، المختارات الفنية جداً من الجُعلان المكتشفـة بالمئـات في قبـور قرطـاجـة، إن هذه الطلاسم صنعت، حسب العصور والبلدان، من عجينـة مزخـرفـة في البـدايـة، وثم من اليشب أو العقيق الأحمر، كما صنعت أيضـاً، وإن بشكـلٍ قليـل من اللازورد أو من العقيق، وكان الجزء المستوي من هذه الطـلاسم محفـوراً برسـومٍ غائرة. ولهذه الجعلان قصة، إذ أن أقدمها صُنع في مشاغل مدينة «نوكراتيس Naucratis» [وهي مدينة في دلتا النيل]، وكانت تحمل أشكـالاً متأثـرة بالفن المصـري أو الفينيقي (السـوري). وبعـد اضمحـلال الـدولـة المصرية في القرن الخامس ق.م، أصبحت الجُعلان المصنوعة في سردينيا البونية هي السـائـدة، وتتسم خصـوصـاً باستعمـال اليشب الأخضر الغامق الذي يقترب من اللون الأسود، كما أن من المؤكد وجود صناعة خاصة بالجعلان في قرطاجة ذاتها. مع ذلـك نلاحـظ، أورغم المـواضيـع المختلفة ظاهرياً، أن الجُعلان المصنوعة في العـالم البـوني بإمكـانهـا إعـادة نسخ الصـور التقليدية مثلما نمنمها الفن الإغريقي وطبعهـا بطـابعه. بهذا الشكل كانت تبدو هذه النماذج الرائعة المكتشفة في «أوتيكا» و«قـرطـاجـة»، ومنهـا جعـلان مصنـوعة من الكريستال الصخري نقشت عليها صور «محاربين» بخوذهم وسيوفهم وتروسهم.

ستكون لدينا فيما بعد مناسبة للحديث عن النصب والنواويس. ولايسعنا قبل إنهـاء هذه اللمحـة المـوجزة عن الإنتاج الفني في العالم القرطاجي إلا أن نستعرض هذه النصـوص التي كتبهـا «بـول كوكلر» في نهاية القرن الماضي، يدفعنا من خلالها إلى التأثـر الـذي شعـر به هو حينمـا اكتشف في أطلال مقبرة «برج الجديد» قبراً مليئاً بالأدوات الجنائزية:

«كـان الهيكـل العظمي، وهـو لامرأة من المحتمل أنها كانت كاهنة، ممدداً.

وكـانت الجمجمـة ملتفتـة إلى الجهة الشرقية، نحوباب المدفن. وفي يدها اليسرى توجـد مرآة برونـزيـة وفي اليمنى صنـوج ثقيلة برونـزيـة أيضاً، وكان معصمها الأيسر مغطى بأسـاور اللؤلؤ والجُعـلان والتمـاثيـل الصغيـرة المختلفة، وتنتظم في ذراعها اليمنى عدة حلقـات فضيـة وعاجية، أما أصابعها فكانت مزينة بخواتم فضية، إضافة إلى خاتم ذهبي يحمـل فصـه نقشـاً لرؤوس أربعة كلاب. ويتدلى من الأذن اليسرى قِرط ذهبي على شكـل حرف T ، وفي رقبتهـا عقـدٌ كبيـراً من الذهب المصمت صيغ بأربعين شكـلاً مختلفـاً، رتبت بشكـل متناظر في طرفي سيخ يمثل هلالاً من الفيروز يتهدل على قرصٍ من الصغير».

ويضيف: «وتكتمـل زينـة تلك المـرأة بعقـد آخر من الفضة. كما وجدت في القبر أيضاً، أشكال من الأريبال والمرمر ذات مسحة فنية كورنثية، وقارورة عطرٍ كبيرة من المينـا مغطـاة بأوراق الـذهب، وتمثـال خزفي متعـدد الألـوان، وجميعهـا متأثـرة بأسلوب الفن المصري. ووجدت، عدا عن ذلك، أطباق من بيض النُعام الملوّن، وأوان خزفية إضافة إلى مصباح.

ثم يقول: «وبالنهاية، فإن هذه التنقيبات التي تمت في أقدم مدافن قرطاجة، تضعنـا في أجـواء حضـارة غريبـة، تبـدو نقيـة أحيـانـاً، بيـد أنـه سرعان ماتظهر فيها المؤثـرات السـوريـة والمصـرية، إذ أن هذه الحضارة لم تكن قد تأثرت بعد بالعالم الغـربي الـذي دخلت معـه فيمـا بعـد في صراعٍ مريـر. هنـا تظهر لنا بالتأكيد معالم قرطـاجـة الفينيقيـة بكل أصالتها المبكرة وقبل أن تتحول إلى مدينة بونية غيرتها بشدة المؤثرات الإغريقية»[٥٤].

وإذا كان بمستطـاع القـرطـاجيين تجميـع ثرواتٍ هائلة، فإنمـا يعود ذلك إلى حركـة التجـارة الكثيفـة التي مارسـوها. فالشعوب الأفريقية المجاورة لم تكن تملك سوى قطعـان ماشيتهـا وزراعتهـا التي كانت تسد رمقها[٥٥]. كما أن المتروبول البوني كان، خصـوصـاً، مركـزاً لتجـارة المعـادن الثمينة، فلقد كانت العاصمة البونية، في الحقيقة، تستعمل الكثير الكثير من الذهب والفضة.

لقـد عرفنـا بوجـود سبـاكي الـذهب في قرطـاجـة بفضل بعض النذور التي تم

اكتشافها. كما وُجد منذ عهد قريبٍ جداً في قلب المدينة القديمة نقشٌ يذكر هذه المهنة(٥٦)، فمن بين المجموعات الست التي ذكرت في هذا النقش، نلاحظ وجود مجموعة «سباكي الذهب» و«صانعي الأواني». وهذا الإصطلاح الأخير لا يشمل الفاخوريين فقط بل جميع من كان يصنع الأواني(٥٧). مهما كان نوع منتجاتهم، ومن بينهم بالطبع الصاغة الذين كانوا يصهرون ويزينون طسوت البرونز المطلية بالذهب، والكؤوس والأباريق التي اكتشف بعضها، والتي ذهب معظمها كغنائم استولى عليها الرومان خلال حروبهم مع قرطاجة.

لقد كانت بيوت العامة ومنازل العائلات الكبيرة في قرطاجة مزينة بشكلٍ يدل على ثراء فاحش، وقد لفت هذا الترف أنظار الرومان. ويذكر «بليني الأقدم» (18, XXXIII) أن هذه الزخارف الفخمة المذهبة شوهدت للمرة الأولى في كابيتول روما بعد تدمير العاصمة البونية. ويشير هذا المؤرخ أيضاً إلى الملاحظات التي كان السفراء القرطاجيون يذكرونها بدهشة وخبث في نفس الوقت، إذ كان أولئك السفراء معتادين في قرطاجة على السكن في بيوت واسعة مجهزة بأوان فضية، لذا كانوا يُظهرون فيما بينهم تململهم من رؤية نفس أواني الطعام التي كان مضيفونهم يضعونها أمامهم في جميع البيوت التي دعوا إليها» (50, XXXIII).

لقد كانت الثروات التي جمعتها مائة عائلة قرطاجية كبيرة للغاية. فعندما هاجم «سيبيون الأفريقي» قرطاجنة في عام 209 ق. م ـ والتي كانت الأسرة البرقية تعتبرها عاصمة الأمبراطورية الإيبرو ـ بونية ـ استولى من أعدائه على كميات ضخمة من الذهب والفضة. كتب المؤرخ وتيت ـ ليف»: «كان من بينها مئتان وستة وسبعون طبقا من الذهب، يزن كل واحد منها قرابة ليبرة واحدة، وثمانية عشر ألفاً وثلاثمائة ليبرة من الفضة المشغولة والمسكوكة، إضافة إلى عددٍ كبير من الآنية الفضية، وتم وزن وإحصاء كل هذا. [7., 47, XXVI] ». وفي اسبانيا أيضاً، وحينما اجتاح «لوكيوس ماركيوس Lucius Marcius » معسكر «هاسدروبعل»، شقيق «هانيبعل»، استولى على كمية ضخمة من الغنائم وكان من بينها تروس فضية (أو ذهبية كما يروي «بليني

الأقـــدم») تزن مئـة وسبعـاً وثـلاثين ليبـرة (أي حوالي خمسـة وأربعين كيلوغرامـاً)، وجميعها تحمل صورة القائد البرقي.

لـم تكن، بكـل تأكيـد، الأراضي الأفـريقيـة البسيطة التي انتزعت من الليبيين هي التي قدمت للبـونيين كل هذه الثـروات، لكن قرطـاجة مثل صور، التي قال عنها «حزقيال»: «في أعالي البحار تمتد أراضيك».

الفصـل الـرابـع

امبراطـوريــة البحــر

«لقد ابتكر البونيون التجارة»
«بليني الأقدم»

شهد القرن الثامن ق.م اضمحلال قوة المدن الفينيقية التي كان «أشعياء» قد خاطبهـا قائـلاً: «وحيٌ من جهـة صور. وَلْوِلي ياسفن ترشيش لأنها خربت حتى ليس بيت حتى ليس مدخـل... اخجلي ياصيـدون لأن البحر حصن البحر نطق قائلاً لم أتمخض ولا وَلَـدْتُ ولا ربيت شبـابـاً ولا نشَّأت عذارى... من قضى بها على صور المتـوجـة التي تجـارها رؤساء. متسببوها موقرو الأرض. ربُّ الجنود قضى به ليدنس كبرياء وكل مجدٍ ويهين كل موقري الأرض..» (23-1, 2, 4, 8, 9) [*].

---

* إن من يستعـرض أسفـار العهـد القـديم في كافـة المراحل الزمنية التي كتبت بها يلاحظ أن الإله «يهوه» كما تصوره العبرانيون وكما دعوه غالباً «رب الجنود» لم يكن له من شاغلٍ سوى الحقد على الشعـوب الأخـرى وضـربهـا وتـدميـرها. هذا الحقد الذي انصب خاصة على الكنعانيين والـذي جاء دائمـاً على لسـان كتّـاب اليهود وأنبيائهم. وهذه الأقوال الواردة هنا إضافة لما مر في ←

لقد حافظ القرطاجيون بشكلٍ تام على التقاليد الفينيقية. فكانت شهرتهم كتجار ليس لها مثيل. كتب «بليني الأقدم» [VII, 57, 9-8] : «إن للمصريين الفضل في الإصلاحات التي ادخلت على النظام الملكي، أما الإصلاحات الديموقراطية فالفضل فيها يعود إلى أثينا، في حين، يضيف الكاتب الروماني، ابتكر البونيون التجارة».

مع ذلك، لم تجلب هذه العبقرية التجارية التي اعترف بها الأقدمون للبونيين، لم تجلب لهؤلاء سوى حسد الشعوب الأخرى. ففي أحد فصول مسرحيته الشهيرة «Poenulus» - وهي مسرحية مستوحاة دون شك من الأدب الأغريقي - يرسم الشاعر «بلاوتوس Plautes»(*) صورة ساخرة لشخصية «حنّون»، حيث يصوره كتاجر نزل بـ«كاليدونيا Calydon»، في ولاية «ايتوليا Etolie»(**)، وهي كلمة ساخرة استعملت للدلالة على القرطاجيين، كان شخصاً ورعاً وأباً طيباً، غير أن الكاتب قدمه لنا على أنه شخصٌ حاذق وماكر: «كان يفهم جميع اللغات، غير أنه كان يتظاهر عن خبثٍ بأنه لايعرف منها شيئاً. إنه قرطاجي حقيقي، وهذا كل مايمكن أن نقوله». ونكتفي في هذا السياق باقتطاع جزء من حوار المسرحية بين «آغاراستوكلس Agarastocles» وعبده «ميلفيون Milphion» حينما لمحا «حنّون» وصحبه:

ميلفيون: ولكن، من هو هذا الطائر الذي حط عندنا بملاءاته؟ هل سُرقت ثيابه وهو يستحم؟

← فقرات سابقة من أقوال «حزقيال» ليست سوى أمثلة على هذا الحقد الذي من أسبابه الرئيسية الغنى والإزدهار عند الكنعانيين. ومن طبع اليهود في كل زمان ومكان كراهية الغنى والرفاه عند غيرهم.

المحقق

* شاعر كوميدي لاتيني (254 - 148) ق.م.

المحقق

* * منطقة يونانية كانت على عداء دائم مع مقدونيا.

المحقق

آغاراستوكلس: وحق الآلهة! إن شكله يشبه القرطاجيين.

ميلفيون: إنه «gugga» (*)ولديه، باعتقادي، عبيد عُجزّ على حافة قبورهم.

آغاراستوكلس: وكيف عرفت ذلك؟

مليفيون: ألا تراهم يلحقون به وقد أحنوا ظهورهم بأحمالهم الثقيلة؟ أتصور، إضافة لذلك، أنه لاتوجد أصابعٌ في أيديهم.

ونحن لانعرف إن كان الإغريق والرومان بالمقابل موضع سخرية وهزء أيضاً في الجانب الآخر من «المتوسط»، عند خصومهم السعداء. وحينما نقرأ ماكتبه «بلوتاركوس Plutoraque» نفهم أن القرطاجيين لم يكونوا مولعين بمثل هذه الدعابات. يقول هذا الكاتب: «إن هذا الشعب تغلب عليه الخشونة، نكد المزاج، يخضع لمن يحكمه، يستعبد الشعوب التي يحكمها، يصبح أكثر تواضعاً حينما يشعر بالخوف، أما حينما يثور فإنه يتحول إلى شعبٍ شرس، وهو شعبٌ حازم في قراراته، وقد أدّت صراحته إلى ابتعاده عن الدعابة والمزاح»(٥٨). هذه الصورة ولاشك قاتمة، ولكن الشيء الصحيح هو أننا لاننتظر أبداً أن يكيل الأغريق الإطراء على الشعب القرطاجي الذي حرمهم من التوغل في البحار خلال عدة قرون، هذه البحار التي أطلق عليها الرومان اسم «البحار الصورية Maria Tyria».

إن البحار الصورية هذه لم يُقصد بها فقط الحوض الغربي للمتوسط بدءاً من شاطيء «سيرته»، بل تمتد أيضاً إلى ماوراء أعمدة هرقل. فحتى القرن الثالث ق.م، كانت الدولة القرطاجية تحتكر لنفسها التجارة في جميع هذه المناطق.

لقد عقدت (كما نعرف من المراجع التقليدية)، أربعة اتفاقات بين قرطاجة وروما. ويُرجِع «بوليبوس» تاريخ أول اتفاقية بين الدولتين إلى عام 509 (٥٩)، وتحدد المنطقة التي كانت حكراً للقرطاجيين.

«للرومان وحلفائهم حرية الملاحة في ماوراء منطقة «Beau- Promontoire» [أي إلى الجنوب من رأس «فارينا Farina»، أورأس «سيدي علي المكّي» إلى

* كلمة ساخرة استعملت للدلالة على القرطاجيين. المحقق

الشمـال الغـربي من قرطـاجـة]، إلا إذا تعـرضت سفنهم للعواصف أولسفن معادية منعتهم من ذلك. وإذا جنحت سفينة رغماً عنها فيما وراء هذا الرأس، فمحرمٌ على بحـارتهـا أن يبيعـوا أويشتروا شيئاً، إلا مايكون ضرورياً لإصلاح السفينة الجانحة أو مايلزم لتقديم قربان. ويجب أن تكون السفينة جاهزة للإقلاع خلال خمسة أيام».

«وإذا قدِم تجـارٌ ليبيعـوا بضـائعهم، فيجب الإمتنـاع عن عقـد أية صفقة مالم يحضر العملية كاتب رسمي. أمـا فيما يخص تنظيم عمليات الشراء المنفذة بحضور ذاك المـوظف الـرسمي، فإن الـدولـة تضمن حقـوق البـائـع ـ وهذا البند بخصوص عمليات البيع المنفذة في سردينيا وأفريقيا...

«وكل روماني رجع إلى سردينيا، في المنطقة الخاضعة لنفوذ قرطاجة، يحظى بنفس الحقوق التي يتمتع بها الآخرون.

«يمتنـع القـرطـاجيـون عن القيـام بأيـة عمليـات عدائية ضد «آردي Ardee» و«آنتيـوم Antium» و«لـورانتوم Laurentum» و«سيسِّي Ciceu» و«تيراسينا Terracina» وجميـع المـدن اللاتينية الخاضعة لروما. أما المدن المستقلة، فعلى القرطاجيين أن يتحاشوا مهاجمتها، وإذا اضطروا لاجتياح إحداها، فعليهم أن يسلموها بشكل كامل للرومان.

«على القـرطـاجيين ألا يبنـوا أي حصنٍ في «لاتيـوم Latium»، وإذا حدث ودخلوا مسلحين إلى الأراضي الـلاتينيـة، فعليهم الإنسحـاب منهـا قبـل مُضي ليلة واحدة على دخولهم» [22, 1, III].

إضـافـة إلى ذلك، لاحظ المؤرخ «بوليبوس» أن هذه المعاهدة «تدل على أن القـرطـاجيين كانـوا يعتبرون سردينيا وأفريقيا مجالاً خاصاً بهم وحدهم، غير أنهم لم يميلوا إلى هذا الإتجـاه في جزيـرة صقليـة حيث كانـوا يميزون بدقةٍ الجزء الذي كان خاضعاً لهم. (23, 1, III).

ويـذكـر لنـا «بوليبيوس» اتفاقيتين أُخريين، تعودان إلى عامي 348, 279 ق. م، يشير من خلالهما إلى أن حقوق الرومان التجارية كانت ماتزال مقيدة:

«لقـد أدرج القـرطـاجيـون في هذه المعاهدة الصوريين [يقصد دون شك هنا

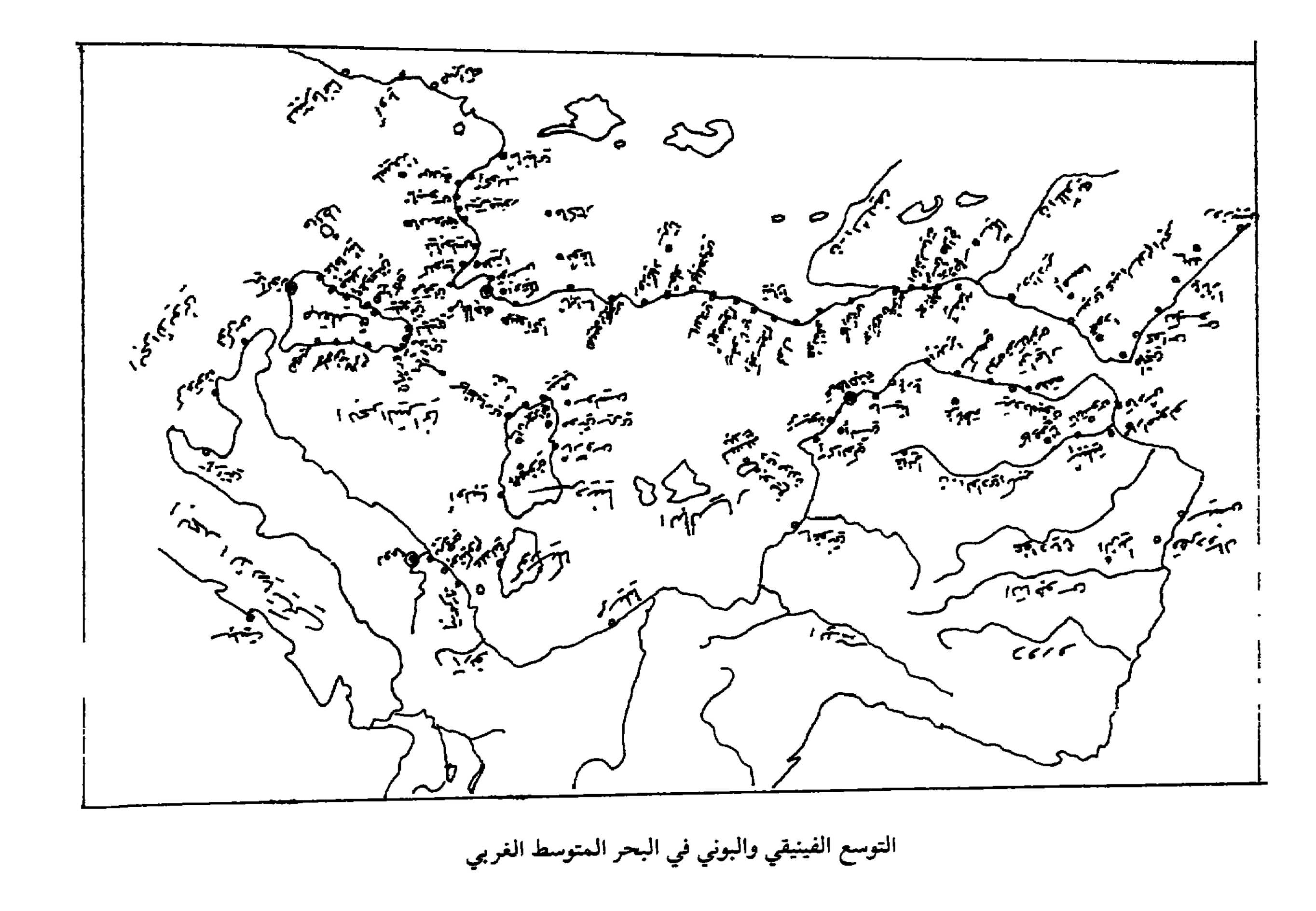
المـراكـز الصورية وبشكل عام الفينيقية الموجودة في الغرب] وسكان «أوتيكا» أيضاً .
ثم «ماستيا تارسيون Mastia Tarseion » [وتقع على الساحل الاسباني دون شك، في أعـالي رأس «بـالـوس Palos » إلى الشمـال من «المريه Almeria » حيث كانت توجد قبيلة «الماستيانيين Mastianoi » الذين كانوا على علاقة مع «الترشيشيين Tarseioi » أهـل المنطقـة الغنيـة بالمناجم المسماة «ترشيش ـ تارتسوس Tarsis- Tartessos »]، إلى جانب منطقـة «بـو ـ برومنتوار Beau- Promontoire (الرعن الجميل)»، على أنها حدود حُرِم على الرومان أن يمارسوا فيها أعمال القرصنة أو تأسيس المدن . [. . .] .

«يُحـرم على الـرومـان تحت أي ظرفٍ ممـارسـة التجارة أو تأسيس المدن في سردينيا وأفريقيا، ويسمح لهم فقط التوقف فيها للتزود بالأقوات واصلاح سفنهم، أما من يضطـر منهم إلى اللجـوء إلى سواحـل هذه المنـاطق بسبب العـواصف، فعليـه الرحيل منها خلال خمسة أيام .

«أمـا في صقليـة القـرطـاجيـة وفي قرطاجة ذاتها، فإن الرومان يتمتعون بحرية التجـارة وممـارسـة بقيـة النشـاطات مثلهم مثل كافة المواطنين. ويتمتع القرطاجيون بنفس الحقوق في «روما» (III, 1, 24) .

لقد تأكدنا مما سبق أن قرطاجة أصبحت وارثه لـ«صور». لا بل إنها شغلت في الـواقـع مكـانـاً متفـوقـاً بين المستوطنات التي أسسها المتروبول القديم في الغرب . وبـورود اسم السـاحـل الجنـوبي لـ«الـرأس الطيب» الـذي يضم المـراكـز التجارية الموجودة في «سيرته» الصغرى، فإن المعاهدة الأولى كانت تشير إلى الحدود الشرقية للأمبـراطـورية البونية طور التكوين، وكانت أداة دبلوماسية شديدة الدقة. إن المجال الـذي تمكن القـرطـاجيون من مدِّ نفوذهـم فيه بحريةٍ كان يشمل حتى الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبرية التي كان الإغريق قد طردوا منها في وقتٍ سابق.

وممـا تجـدر إضـافتـه، أن العاصمة البونية، كي تحفظ حقوقها في هذا البحر الـذي اختصت به لمـدِّ شبـاك تجـارتهـا، لم تركن فقـط إلى هذا التحـالف المعـزز بالقـوانين إذ كانت تدرك أنـه لن يصمـد طويـلاً أمـام طمـوحـات منافستها روما. لذا عمـدت قرطـاجـة إلى تعزيز أسطولها الحربي الذي كان يشكل القوة الأولى في تلك



التوسع الفينيقي والبوني في البحر المتوسط الغربي

المنـاطق، وكـانت سفن هذا الأسطـول تراقب بحـرص جميـع محاولات المغامرين الـذين يودون الإبحـار في الميـاه المُحـرّمـة عليهم. ويـذكـر نصٌ لـ«سترابون» هذا الموضـوع فيقـول: «علينـا أن لاننسى أن القـرطـاجيين أغـرقوا بلا رحمة كل سفينةٍ صادفوها تُبحر في مناطقهم وتتجه إلى سردينيا أو إلى أعمدة هرقل» (19, 1, XVII) .

لقـد كانت المـراكـز التي أسسهـا الفينيقيـون أول مادخـل تحت سلطة العالـم البـوني. وبعـد الهجـرة الأولى قام البـونيون. كما أصبح اسمهم - بإنشاء مستوطناتٍ أخـرى داخـل المناطق الواقعة تحت نفوذهـم. وكما رأينا في فصول سابقة، ليس من السهل علينـا أن نميز بين المنشآت التي تعود إلى العصور الأولى وتلك التي أسسها القرطاجيون أنفسهم.

علينـا في هذا السيـاق أن نشيـر إلى المـراكـز التجـاريـة التي كان يضمها هذا «المثلث البوني»[٦٠] الذي كانت تتشكل زواياه من قرطاجة وأراضيها الليبية وصقلية وسردينيا.

ففي صقليـة، حيث كان الإستيطـان الفينيقي قد تركـز قبـل زمنٍ سابقٍ، لـم يتمكن القـرطـاجيـون من الإستقرار إلا في جزء صغير من أراضي شبه الجزيرة. فبعد «موتيي Motye» [San Pantaleo]، كُشف عن عدد كبير من القطع الآثارية في مواقع أخـرى تدل على وجـود القـرطاجيين، مثل جبل «إيريكس Eryx» [حيث يوجد حالياً موقـع «إيـريس Erice»، على بعـد خمسـة عشـر كيلومتـراً من «تـراباني Trapani»] و«ليليبي Lilybee» «مـرسـالا Marsala]، وجميـع هذه المـواقـع توجـد على الطـرف الغـربي للجـزيـرة. أمـا على الشـاطيء الشمـالي، فقد كشف عن آثار قرطاجية في «بانورموس Panormos» [باليرم Palerme]، و«سولويس Soleis» [سولونتي Solunte][٦١]. ويبقى أنه كان على القرطاجيين، خلال صراعهم مع الإغريق الذين كانت لهم قاعـدة أسـاسيـة في «سيراكوز Syracuse»، كان عليهم أن يحدّدو منطقة نفوذهم في الإقليم الـواقـع إلى الغـرب من خطٍ يصـل بين «هيميـر Himere» بـ«سيلينـونتي Selinonte».

ورغم المصـاعب التي كان القـرطـاجيـون يواجهـونها خلال توسعهم في تلك

الأراضي، فإنهم سعوا لإقامة علاقاتٍ مع الجزء الآخر من الجزيرة الذي أفلت من قبضتهم. فخلال الحروب التي دارت بينهم وبين منافسيهم، نشطوا بتوسيع تجارة قوية مع «صقلية» الإغريقية، وكان البونيون يسعون للإتجار ليس فقط في «سيلينونتي»، بل أيضاً مع «أغريجانتي Agrigente». التي كانوا يحملون إليها النبيذ والزيت - إضافة إلى «سيراكوز» حيث أنشئت مستعمرة لتجار قرطاجة الأغنياء في هذه المدينة القوية.

كان باستطاعة السفن المنطلقة من العاصمة البونية باتجاه «موتيي» أو جنوب سردينيا، وتبعد المنطقتان نفس المسافة عن قرطاجة - أن تصل إليهما خلال رحلة يوم كامل. وفي سردينيا، وخلافاً لما كان قائماً في صقلية، كان باستطاعة قرطاجة أن تمد في كافة أرجاء الجزيرة شبكة من المراكز التجارية، إذ أنها تتمتع بحقوق الإحتكار الكامل لأسواق هذه الجزيرة كما رأينا. وانتشرت الوكالات التجارية Emporia، وخصوصاً على طول الساحل الجنوبي الغربي في مرافيء أو مواقع تتمتع بميزات أساسية للمنشآت الفينيقية البونية مثل «كاراليس Caralis» [كالغاري]، «نورا Nora». «بيثيا Bithia»، «سولسيس Sulcis»، و«ثاروس Tharros». إضافة إلى المركز الموجود في الجنوب الشرقي وهو «أولبيا Olbia». وعلينا أن نلاحظ أن حركة الإستيطان تلك لم تكن مقتصرة على المراكز المبعثرة في المناطق الساحلية. فمعقل «مونتي سيري Monte Sirai»[٢٦]، بمعبده الموجود في محيط الـ«توفه Tophet» وسوره وقلعته المرتفعة، كان يبدو كمكان مشرف. وفي هذا دليل على أن البونيين كانوا يرغبون السيطرة تماماً على مجمل أراضي هذه الجزيرة، التي كانت تتمتع بأهمية عظيمة من أجل استمرار سيطرتهم على البحر المتوسط. وعلى الرغم من تأسيسهم العديد من المعاقل في داخل الجزيرة، إلا أنهم لم يتمكنوا من إخضاع جميع السكان الأصليين. يقول «ديودور الصقلي»: «رغم أن القرطاجيين كانوا في أوج قوتهم وأصبحوا سادة هذه الجزيرة (سردينيا) إلا أنهم لم يتمكنوا من إخضاع سادتها السابقين، «الأيوليين Ioleens»، الذين التجأوا إلى المناطق الجبلية. ومع أن القرطاجيين كانوا يهاجمونهم بجيوشهم الضخمة، فإنهم - الأيوليون - كانوا يفلتون

دوماً ويختبئون في معاقلهم المنيعة أو في سراديب يعرفونها» (15, V) . إن هذا الصدام بين القـرطـاجيين والسـردينيين، الذين استبسلوا في الدفاع عن حضارتهم الخاصة، يُعـد أحـد أبـرز النقـاط في تاريـخ العصور القديمة. وفيما بعد، في عام 238 ق. م، قامت روما، التي استغلت الأزمة الخطيرة التي نجمت في قرطاجة عن تمرد المرتزقة والتي هزت العـالم البـوني كله، قامت بضم سردينيا وكورسيكا إلى مجال نفوذها بعد أن أبعدت حليفتها السابقة عما كان لها من قواعد.

كانت الأمبـراطـوريـة القـرطـاجيـة تضم أيضـاً، إضـافـة إلى صقليـة الغربية وسـردينيـا، جزر «مـالطـا» و«جـوزو Gozzo» و«لمبيـدوزا Lampedusa» و«بانتالاريا Pantelleria». وقد سبق للفينيقيين، كما رأينا، أن أسسوا في هذه الجزر مراسي مؤقتة[٦٣]، كانت بمثابة نقاط ارتكاز لمراقبة مدخل المتوسط الغربي. وحسب مايقوله «ديودور» (16, V) قام القرطاجيون في عام 654 ق. م، أي بعد قرن ونصف من تأسيس مدينتهم، بالإستيطـان في جزيـرة «بيتيـويـز Pityuse» [إيبـزا Ebiza]. أما في جزيرة «مينورقا»، فتلاحظ أن مدينة «ماهون Mahon» [ماغو Mago] قد حافظت على اسم أصبح شهيراً جداً فيما بعد ألا وهواسم العائلة الماغونية. وتقع هذه الجزيرة على بعد مئـة وثمـانين ميـلاً من السـواحـل الغربية لسردينيا. وحينما كان البحارة ينطلقون من الموانيء السردينية في طريقهم إلى اسبانيا، كانوا يصادفون في طريقهم جزر «الباليار Baleares» بمراسيها المهمة.

«التوسع» البوني في أفريقيا

لم يكن بمقـدور العـاصمـة البـونية التي وطدت نفوذها في أفريقيا أن تتجاهل الأسـواق التي كانت مهيأة على طول السـواحـل الأفـريقيـة والتي كانت تسيطر عليها بشكـل مطلق. ولم يكن عليهـا سوى متابعة عمليات التجارة التي بدأت إبان التوسع الفينيقي، إذ تم تعـزيـز المـراكز التجارية القديمة، كما افتتحت مراكز أخرى، فعلى طول السـاحـل الممتـد من خليـج «قـابس» إلى «طنجـة» أسست قرطـاجـة وبشكل

تدريجي ومنتظم محطـات تبعـد الـواحدة عن الأخرى حوالي أربعين كيلومتراً بهدف تعـزيـز التجارة الساحلية والمسافة المذكورة (40 كيلومتراً) تعادل مايمكن للسفن أن تقطعـه في اليـوم خلال إبحـار متـواصل وفي ظروف مناخية جيدة[٦٤]. لقد كان مفيداً للبحارة بالتأكيد أن يتعرفوا على المراسي، مهما كانت متواضعة، والتي كان بالإمكان انشاؤها في الخلجان الصغيرة المحمية من الرياح أو في مصبات الأودية، من أجل الإبحار قرب الشاطيء. ومع ذلك، فإننا لانستبعد أن البحارة كانوا كل مساء يسحبون زوارقهم إلى اليابسة، الأمر الذي تطلب وجود مرافقين مخصصين لأعمال التحميل والتفريغ[٦٥].

إن التنقيبات الآثارية على السواحل التونسية والجزائرية والمغربية قد سمحت بالكشف عن العـديـد من الآثـار البـونية. ونلاحظ أيضاً أن العديد من المرافيء التي اشتهرت في الحقبة الرومانية، كان يحوي في تسميته على البادئة السامية «Rus» - فـي العربيـة (رأس Ras) - وفي هذا دلالة على أن هذه المواقع أنشئت حيث كانت توجـد المستـوطنـات الفينيقيـة. البونية. وفيما يلي بعضٌ من «رؤوس الجسور» تلك التي كانت منتشرة على ساحلٍ يقارب طوله الألفي كيلومتر.

تم الـكـشـف في تونس عن آثـار استيطـانٍ بوني في «تـايـنـاي Thaenae» [«هانشيرثينا» إلى الجنوب من صفاقس]، وفي «آكولا Acholla» [رأس بوتريا Botria]، و«غـومي Gummi» [المهـديـة]، و«ثـابسـوس Thapsus» [رأس ديمـاز] حيث اكتشفت مدينـة للمـدافن، و«ليبتس مينـور Leptis Minor» [لمتـا]، و«هـادرومـانتوم Hadrumentum» [سـوسـة]، و«نيـابـوليس Neapolis» [نيـابول]، و«كلوبيا Clupea» [قليبيـة]، و«قـرقـوان Kerkouane» و«رأس الدرك» و«رأس فورتاس»، [هذه المواقع الخمسـة الأخيـرة توجـد في منطقـة «الرأس الطيب»[٦٦]. وبعد «قرطاجة» و«أوتيكا» يوجـد «رأس سيـدي علي المكيّ» [قـرب «بورتوفارينا Farina»]، و«هيبّو آكرا Hippo Acra» [بيزرت]، وتوجد على الحدود التونسية الجزائرية الحالية «ثابراكا Thabraca» [طبرقة] بجزيرتها الصغيرة المسماة «غاليت Galite».

ومن المعـروف أن الإستيطـان القـرطـاجي لم يقتصـر فقـط على القطـاعـات

الساحلية وحدها. ولاشك أن «سترابون» كان يبالغ ـ لأغراض دعائية ـ حينما كتب: «في ليبيا (ويقصد هنا أفريقيا الشمالية كلها)، استطاع الفينيقيون أن يسيطروا على جميع الأراضي الحضرية. ونتيجة احساسهم بقوتهم تلك، فرضوا مدينة «قرطاجة» كمنافس لروما. وشنّوا على الشعب الروماني ثلاث حروب رهيبة، لقد أظهرت هذه الحروب الثلاث بوضوح ضخامة مصادرهم [. . .]، فحينما بدأت هذه الحروب، كانت تتبع لقرطاجة ثلاثمائة مدينة، كما أن العاصمة البونية ذاتها كانت تضم على الأقل سبعمائة ألف ساكن» (15, 3, XVII). وعلينا الاعتراف أن الوجود البوني في أراضي تونس الحالية كان قد وصل إلى أعماق هذه البلاد. فقد استوطنوا في «سيكا Sicca» [الكاف]، وفي أواسط وادي نهر المجردة حيث أصبحوا سادة منطقة «السهول الكبرى Campi Magni»، في المناطق التي تسمى حالياً «سوق الخميس» و«سوق الأربعاء»، وكان هذا أحد أسباب الصراع الذي نشأ بين القرطاجيين والنوميديين بين عامي 193-152 ق. م، إذ أن «ماسينيسا Massinissa» النوميدي كان يطمح لإعادة نفوذ أسلافه فوق تلك الأراضي.

إن تغلغل القرطاجيين هذا بين المجتمعات الأفريقية أسفر عن تمازج أدى إلى رابطة إثنية وثقافية وثيقة، فعلى سبيل المثال، وفي زمن القديس «أوغسطين» كانت شعوب تلك المناطق ماتزال تتحدث بلهجة هي مزيج من الليبية والبونية[٦٧]. لقد فرضت حضارة قرطاجة نفسها شيئاً فشيئاً، كما أن بعضاً من عادات السكان الأصليين ومعتقداتهم الدينية أثّر في عادات ومعتقدات أولئك الفينيقيين الذين أصبحوا ليبيين ـ فينيقيين[*] أُعطيت هذه التسمية للفينيقيين الذين سكنوا في مستوطنات الساحل الأفريقي، وفيما بعد شملت الليبيين الذين أخذوا بالعادات البونية، ويعتقد أن هذه التسمية أصبح لها مدلولٌ حقوقي وإداري للإشارة إلى مواطني المدن البونية الذين تمتعوا بالحقوق نفسها التي كانت لسكان العاصمة.

---

* لو أردنا استخدام تعبير أخف لقلنا «أفروفينيقيين».

المحقق



قرطاجة ملتقى الحضارات المتوسطية

وبـإختصـار، نهلت هذه الحضـارة القـادمة من الشرق من أفضل المصادر في الأراضي التي اختارتها. إن عملية «الأفرقة Africanisation»، تلك، والتي ساهمت في إغنـاء الحضـارة البونية تنتهي، بشكل شرعي إلى الإرث الثقافي لشمال أفريقيا. يقول «جيروم كاركوبينو Jerome Carcopino»: «إن هذه المستوطنات كانت عبارة عن مراكـز لحضـارة مختلطـة Mixte، انتشـرت فيمـا بعـد على طول السـاحل، وباتجاه المحيـط، وتفـوقت على أفـريقيـا الشمالية كلها. ويضيف: أن هذه الحضارة كانت تمثـل روح قرطـاجـة»(٦٨). وعلى هذا، فإن الدولة التونسية الحالية تحظى من جهتها بالجزء الأكبر من هذا الإرث العظيم.

لقد كان عدد المستوطنات البونية كبيراً على السواحل الجزائرية. فمن الشرق إلى الغـرب كانت توجـد مستـوطنـات. «هيـوريجيـوس Hipporegius» [عنـابـة]، و«روزي كاد Rusicade» [سـكيكـدا]، و«كـولّـو Chullu» و«إيجيلجيلي Igilgili» [جيجـل]، و«سـالـداي saldae» [بـوجـاية]، و«روزازوس Rusazus» [الزيفون]، و«ايونيوم Iomnium» [تجزيرت]، و«روسغونياي Rusgunioe» [برج البحري، وقديماً كان يسمى «رأس ماتيغـو»]، و«ايكـوزيـوم Icosium» [الجزائر]، و«تيبازا Tipasa»، و«ايـول Iol» [شـرشـال]، و«غـونـوغو Gunugu» [غرّية]، و«كارتينّاس Cartennas» [تينس]، و«بـورتـوس ماغنـوس Portus Magnus»، [«بيثيـوا»، قديمـاً «سـان لو»]، و«الأندلسيات»، «مرسى مدّاخ»، «بوزجار» [وتوجد المواقع الثلاثة الأخيرة إلى الغرب

من «وهـران»]، وأخيراً، «راشغون Rachgoun »[٦٩]، تلك الجزيرة الصغيرة التي تبلغ مسـاحتهـا حوالي خمسين هكتـاراً، وتبعد ميلاً واحداً عن الساحل، وتقع أمام خليج صغيـر يصب فيـه نهـر «التفنـا»، وبمـواجهـة بلدة «سيغـا Siga » عاصمة «سيفاكس Syphax »، ملك «المـازايـزيليين Masaesyles »، الخصم العنيـد لـ«مـاسينيسـا Massisnissa ».

ونتوقف قليلاً في جزيرة «راشغون» التي ترتفع هضبتها عن سطح البحر حوالي خمسين متـراً، وهي دائمـة التعـرض للريـاح المحملة بالـرذاذ، وكـان من الممكن الـوصـول إليها عبر طريقٍ شديد الإنحدار، حُفر في الجرف الوعر. إن التنقيبات التي أجريت فيها فيما بعد كشفت عن وجود أبنية إضافة إلى مدينة مدافن تضم مئة وأربعة عشـر قبـراً ـ ومعظمهـا استخدم لحرق الأموات ـ إضافة إلى تجهيزات هامة. وجميع هذه اللقى تعـود إلى ماقبـل القـرن الخـامس ق. م، ولـوحـظ، في أسفـل سطحهـا الشـرقي، وجـود حوضٍ صنعي، مستطيل الشكل (طوله عشرون متراً وعرضه خمسة عشر)، مجهز بخليج صغير بحيث كان بالإمكان الدخول إليه عبر شقٍ عرضه أقل من مترين. وفتح هذا الشق في قلب الصخور (صورة الغلاف). لقد كان سكان الجزيرة يقـودون زوارقهم إلى هذا الخليـج الصغيـر، دون شك، حين عودتهم من الشـاطىء حيث كان عليهم. مثلهم مثـل جميـع المقيمين في المراكز التجارية البونية الموجودة على السـاحـل. أن يقيمـوا علاقات تجارية مع السكان المحليين أو من أجل التمون بالأقوات والمياه العذبة.

إن «كـوثـون Cothon » [مـرفأ] «راشغون» هذا، الواقع في هذه التخوم القصية من شواطىء المتـوسـط، ورغم حجمـه الصغير جداً، والذي صُنع بأيدٍ بشرية، أمام جرف جزيـرة شاطئيـة هجـرهـا الجميـع، إن هذا المـرفأ كان يبدو تعبيراً مدهشاً عما توصلت إليـه مغـامـرة هذا الشعب الصغيـر القـادم من سوريـا واستقـر هذه السواحل الموحشة. لقد كان هذا الشعب البوني مستعداً دوماً للمواجهة، مستبسلاً في الدفاع عن مراكزه، بيد أنه كان قليل التأثر بميول الحياة الناعمة، وكان يمكن أن يفقد الثقة بقَدَره الخاص، هذا القَدَر الذي اقتضى أن يواجهه دوماً بجرأة وإرادة صلبة.

طــرق الثـروة

أقـام البـونيـون أيضـاً مراكـز تجـارية على شاطيء المغرب المتوسطي، فلقد أُنشئت مدينـة «روزاديـر Rusaddir» [مليلة] في بقعة محمية من رأس «الثلاث شُعَب Trois-fourches» غير بعيد عن مصب نهر «الملوية»، وبعدها كانت توجد بلدة «إمسا Emsa» ثم «سيدي عبد السلام البحّار» و«تمودا Tamuda» [قرب تطوان] وأخيراً «طنجة».

ورغم أن الـوجـود القرطاجي كان كثيفاً على طول السواحل الأفريقية، فلايبدو أن السبب الأسـاسي لهـذا الـوجـود كان فقـط إقـامـة علاقـات تجـارية مع الشعوب المجاورة لهذا الإقليم. إن مثل هذه العلاقات كانت موجودة بالتأكيد، ولكنها لم تكن تثمر عن صفقاتٍ تجارية رابحة، إذ لم يكن لدى السكان الأصليين سوى القليل من البضائع التي كانوا يبادلون بها المنتجات المصنوعة في «قرطاجة»، يضاف إلى ذلك أنهم كانـوا يغـزلـون وينسجون ملابسهم الصوفية بأنفسهـم، وكما أن الحرف المحلية عنـدهم كانت تُصنّـع أدواتٍ بدائيـة تفي بالحـاجـات الـزراعيـة، لكل ذلك لم يكن ضروريـاً اللجـوء إلى المصنـوعـات الأجنبيـة. ومـع ذلـك يمكن أن نستثني بعض المصنوعات الكمالية مثل المجوهرات والعطور والسيراميك الدقيق والأواني الزجاجية والأقمشـة الفـاخرة والأسلحة، التي كان القادة وأبناء العائلات الثرية يحصلون عليها من المراكز التجارية المتواجدة على الساحل. ومن بين هؤلاء النوميديون والمغاربة الذين خدموا سابقاً في جيوش قرطاجة وتذوقوا طعم حضارتها ومن ثم تعودوا على مظاهرها.

وفي الحقيقـة، كمـا أوضحنـا في مقـاطـع سابقة، كان السبب في إنشاء هذه المراكز البونية أنها كانت محطات استراحة على الطريق إلى الأقاليم الغنية بالمعادن

الثمينة(*). وعلينا أن لاننسى أن رخاء قرطاجة كان مردّه استيرادها المعادن كالحديد والنحاس والقصدير والفضة والذهب. وأصبحت الدولة البونية بفضل هذه التجارة الأغنى في المتوسط الغربي. كتب «بليني الأقدم» أنه «لكي يشار إلى صنف حجر العقيق الأحمر النفيس، كان يطلق عليه اسم «القرطاجي» وذلك بسبب وفرته في قرطاجة العظيمة» [1, 25, XXXVII] .

وكما رأينا فيما سبق، كانت تجارة المعادن تلك هي أكبر مصدرٍ للأرباح بالنسبة لصور وبقية المدن الفينيقية، ويقارن البعض هذه الثروات بتلك التي جلبها الغزاة الاسبان من أمريكا وأغنوا بها بلادهم. إلا أن «الألدورادو» تلك التي ذهب الإسبان للبحث عنها في مجاهل الأمازون، كان الفينيقيون وبعدهم القرطاجيون قد وجدوها في أسبانيا نفسها.

هناك في بلاد «تارتسوس Tartessos» الواقعة في حوض نهر «الوادي الكبير» كانت «سفن ترشيش» تملأ عنابرها بالفضة والعروق المعدنية المستخلصة من جبال «مورينا Morena» قبل أن تقفل عائدة بإتجاه الشاطيء السوري. وهناك أيضاً بنيت «قادس» قبل أن ترى قرطاجة النور، بينما كان الفينيقيون يواصلون تأسيس المراكز التجارية على طول السواحل الأوسط لإسبانيا.

لقد كانت عائدات هذه الأسواق من الأهمية بحيث قامت قرطاجة، بعد أن

---

* في الواقع، لايكفي أن نعتبر هذه المراكز محطات استراحة فحسب، إذ أن هناك أسباباً أهم من ذلك عبر عنها «فرانتس كارل موفرز F. K. Movers» في «تاريخ الفينيقيين» بقوله: «وكان تأمين المواصلات التجارية سبباً أساسياً لنشأتها... كانت الرحلات البعيدة التي قام بها التجار والصغار ليبادلوا السلع التي حملوها في سفنهم مع السكان المحليين، كانت غالباً مصحوبة بالصعوبات... بالنسبة للسلع المستهلكة بكثرة لم تكن مخزونات السفن منها كافية... وبالنسبة للسلع القليلة الإستهلاك، وخاصة في حال وجود منافسين، كان يدوم الإنتظار أحيانا حتى السنة على السواحل ريثما تنفذ البضاعة، علماً أن التاجر المتجول في القارة كان يلاقي متاعب مشابهة... وهكذا نشأت المستوطنات ومخازن البضاعة في البلدان الغربية....».

المحقق

ورثت نفـوذ صور وصيـدون ، بفـرض احتكـارها على منطقة المعادن الغنية تلك التي كان اغـريقيـو «فوسيه Phocee » هم أول من استثمرها. لقد أقفل القرطاجيون مضيق «جبـل طارق». وبهـذا الخصـوص، كتب الشاعر الإغريقي «بينداروس Pindare » : «لم يكن من السهـل الـدخـول إلى البحـر الموجود فيما وراء أعمدة هرقل التي رفعها هذا البطـل للإشـارة إلى خاتمـة رحلته البعيدة» (Nemeennes III, 20-21) . ويبدو أن القـرطـاجيين، كي يراقبـوا هذا المضيق الـذي كانت له أهميـة عظيمة لتجارتهم في اسبانيا وشواطيء الأطلسي، قاموا بتأسيس قاعدة بحرية في خليج «الجزيرة Algesiras » الصغيـر حيث كانت توجـد مدينـة «كـارتيـا Carteia » القديمة «سترابون، 7,1,III » وإلى الشرق أيضاً، قاموا بإنشاء مستوطنات هي : «ملقا Malaga » ، و«سيكسي Sexi » ، و«أبـديـرا Abdera » ، و«بـاريـا Baria » [فيـلاكـروز][٧٠]. ومع ذلك، فلا توجد أية معطيـات تمكننـا من الجـزم بأن الفينيقيين البـونيين. حتى القـرن الثـالث ق. م، قد تجاوزوا القطاع السـاحلي هذا وتوغلوا إلى عمق البلاد.

لقد استقر هذا الوضع في تلك النواحي حتى تولى «هاملقار برقا» أمورها وبدأ في تأسيس امبـراطـوريـة حقيقيـة في اسبانيا. ولقد عملت العائلة «البرقية» الشهيرة، حسب بعض المـرويـات[٧١]، على تأسيس «منطقـة نفوذ برقية» كي تتمكن من فرض سيـاستهـا الإنتقـاميـة بعـد أن تمكنت رومـا من ضم صقليـة وسـردينيا وكورسيكا في الظـروف التي نعـرفها. ومهما تكن واقعية هذه الأسباب، فإن «هاملقار» أعلن مايشبه «الثورة» في سياسة بلاده. فخلال عشر سنوات بين 237-228 ق. م، توجت مشاريعه النـاجحـة بتأسيس مدينة «أكرالوكي Akraleuke » [«آليكانتي» الحالية Alicante] التي مثلت ذروة أعمـالـه. وحينمـا مات، بطـريقـة عنيفـة، خلال حصار مدينة «هيليكي Helike » [إلشي Elche] ترك لصهـره أرضـاً تشمـل جميـع الجـزء الجنـوبي من شبـه الجـزيـرة الإسبـانيـة، وتـابع «هاسدروبعل» سياسة سلفه تلك، إذا قام بتأسيس أكبر المـدن البـونيـة في اسبـانيـا، «قـرطـاجنـة Carthagene » وتعني «قـرطاجة الجديدة» [Carthago Nova] في موقع مدينة «ماستيا Mastia » القديمة، الواقعة قرب منطقة غنية بمنـاجم الفضـة (سترابـون 10,2,III). إلا أن «هاسدروبعل» اغتيل عام 221 ق. م.

فتـولى «هـانيبعل» ابن «هاملقار» زمام الأمور وكان في سن السادسة والعشرين. وتابع القـائـد الجـديـد عمليات الفتح بحماسة شديدة حتى وصل إلى وادي نهر «التاجوس Tage». ومـع ذلـك، كانت السيطـرة البـونيـة هشـة باستثناء المناطق المسماة حالياً «الأندلس» و«موريسي Murice» و«فالانسيا Valence» إذ اصطدمت بالقبائل الكلتو - إيبـريـة المحاربة. غير أن القائد القرطاجي اللامع واصل، رغم ذلك، تقدمه في عام 219 ق. م، وفـرض الحصـار على مدينـة «سـاغـونتي Sagonte» ليعبـر بعد ذلك نهر «الإيبر Ebre» [٧٢]، ويبدأ مسيرته الشهيرة نحو روما.

لم تكن اسبـانيـا الجنـوبيـة بالنسبـة للقـرطـاجيين مصـدراً للمعادن فقط، بل سمحت لهم أيضـاً بالإنطـلاق إلى دروب الثـراء، وكـان «أرسطـو» قد أشـار إلى دور المـدن «التـابعـة» في ثراء المواطنين القرطاجيين، إذ أن الوضع الإجتماعي والمالي لتلك المـدن كان معقـولاً، وكـانت سواحلها مفتوحة على المحيط الأطلسي ومحمية من أي تسلل غريب محتمـل، وكـانت تضم، بفضـل موانئهـا الهـامة مثل «قادس»، قاعدة انطلاقٍ ممتازة لعمليات البحث البعيدة عن المعادن الثمينة.

إن البحـارة البـونيين كانـوا ولاشـك سباقين في الوصول إلى بعض الشواطيء البعيدة وإقامة علاقات تجارية فيها، كما أن وجود هذه الأقاليم خارج الطرق البحرية المعروفة وعدم اعتياد سكانها الأصليين على عمليات بيع منتوجاتهم يمكن أن يفسر سبب تأخر القرطاجيين في سكّ نقودهم الخاصة التي ضُربت للمرة الأولى عام 404 ق. م في صقليـة وليس في العـاصمـة، حيث اعتـاد المواطنون على استخدام النقود الأجنبية التي كانت سائدة قبل ذلك التاريخ، أو كانوا يستعملون أيضاً سبائك مصنوعة على شكـل قضبـان ذات أوزان مختلفـة. وبـالمقابل، كان القرطاجيون يلجأون في معـامـلاتهم التجارية مع البلدان «المتخلفة» إلى عادتهم القديمة التي اشتهروا بها، وهي المقايضة. يروي لنا «هيرودت» إحدى عمليات المقايضة الصامتة تلك فيقول: «يـروي القـرطـاجيـون هذا أيضـاً، إذ توجد خلف «أعمدة هرقل» بلادٌ تابعة لـ«ليبيا» يسكنها ناس يعرجون عليهم، حيث يقومون بإنزال بضائعهم ويعرضونها بشكل دقيق على شاطيء البحر، ثم يعودون إلى سفنهم ويشعلون ناراً لإعلام أهل البلاد الذين

يقتربون من الساحل عند رؤية الدخان، ويضعون بجانب السلع ذهباً، ثم يرجعون، وبعد ذلك، يهبط القرطاجيون من جديد ويعاينون الذهب الذي تركه هؤلاء، فإن وجدوا أن كميته توازي قيمة السلع فإنهم يحملونه ويرحلون بسفنهم إلى عِرض البحر، وإلا فإنهم يعودون إلى سفنهم وينتظرون مرةً أخرى. أما الأهالي فإنهم يعودون بدورهم ليضيفوا ذهباً، وهكذا حتى يحوذوا على رضى القرطاجيين. ولايحدث خلال هذه العملية أي تلاعب، فالقرطاجيون لايلمسون الذهب قبل أن يروا في كميته مايوازي قيمة سلعهم، والأهالي بدورهم لايلمسون السلع قبل أن يأخذ القرطاجيون الذهب»[٧٣].

إن لنص «هيرودت» هذا أهمية خاصة. فمقابل المعادن النفيسة، كان التجار القرطاجيون يعرضون سلعهم مثل: منتجات الصناعة القرطاجية، إضافة إلى منتجات كانت ترد من اليونان وإيطاليا وسوريا وكان أولئك التجار يتقاضون مقابلها عمولات كبيرة. لقد تمكن القرطاجيون بإتباعهم هذا «التقدم التقني» أن يستحوذوا على الأسواق التي كانوا يصرفون فيها سلعهم والتي كانت في نفس الوقت مصدراً للمعادن الثمينة التي خلقت ثرواتهم. وهذا النظام الإقتصادي، يشبه حالياً، تجارة الدول الصناعية مع دول العالم الثالث.

أين يوجد بالضبط ذاك السوق النفيس الذي قال عنه المؤرخ اليوناني أنه يقع خلف أعمدة هرقل؟ إن حملات البحارة البونيين قليلة، فالنصوص القليلة التي وصلتنا لاتفي بالغرض كما أنها صعبة التفسير، إذ أن المكتشفين والتجار القرطاجيين لم يبوحوا أبداً بسر طرقهم البحرية، بل على العكس كانوا يسعون إلى عرقلة أية محاولة من جانب أية جهة أخرى لاكتشاف هذه الدروب بنشرهم حكايات أسطورية عن تلك البحار التي كانت سبيلهم إلى الأراضي البعيدة.

ومع ذلك، لم يكن كل شيء أسطورياً، إذ أننا نعلم أن التجارة البحرية البونية تمكنت من الوصول إلى منطقتين تم اكتشافهما في «رحلات بحرية» [Periples] ويعني هذا المصطلح عمليات الإكتشافات البحرية المنظمة لحساب الدولة، وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م. ففي تلك الفترة أصبحت العلاقات

حكـوميـة (شعبيـة Publiques)، بشكـل جزئي وذلـك بعد حدوث «تسويات»، ولقد وصلنا بفضـل الكتـاب الكـلاسيكيين بعضٌ من أخبار هذه «الرحلات البعيدة» التي دشنت خطوط الملاحة التجارية.

لقـد نظم «هـاميلكـون» القـرطاجي رحلة بحرية سلك فيها خط سير قديم كان بحارة بلاد «تارتسوس»، دون شك، قد افتتحوه، حيث انطلق من السواحل الإيبيرية باتجاه الشمال. ولقد خصص المؤرخ الروماني «فستوس أفينوس Festus Avienus» مقطعـا من كتـابـه «Qra Martima» لرحلة «هـاميلكـون» هذه. فبعـد أربعـة أشهر من انطـلاقهم من «قـادس»، وإبحـار صعب جداً «كانت حقول الطحالب تعرقل السفينة كأنهـا سيـاج»، إضـافـة إلى القيعـان القليلة العمق والضبـاب الذي لا يمكن اجتيازه والـوحـوش الـبحـريـة المخيفـة، رغم كل ذلـك تمكن البحـارة من بلوغ بلاد «الأوستـريمـانيين Oestrymnides» الغنيـة بالقصدير والرصاص، ولقد نوقشت مطولاً عمليـات التجـارة مع «الكـاسيتـريين Cassiterides» في الإغـريقيـة «Kassiteros» قصـديـر - فبعض الفـرضيـات حاولت مطـابقـة «جـزر القصدير» مع مجموعة الجزر الصغيـرة المبعثـرة في الشمـال الغـربي من إسبانيا، بين «فيغو Vigo» و«رأس فينستر Finisterre»، أو اعتبارها إلى الشمال أيضاً في المياه البريطانية ومطابقتها مع أرخبيل «سـورلانغ Sorlingues» [جزر شيلي Scilly] في عرض رأس «لاندز إند Lands End»، أو أيضـاً، في جزيـرة «آرمـوريـك Armorique» في خليـج مغطى الآن بالطمي كان يقع أمام مصب نهر «اللوار». غير أن بإمكاننا أن نطرح المسألة بشكل مغاير، فحينما تحدث الكتاب القدماء عن «الكاسيتريين»، فربما كانوا يشيرون بهذا المصطلح إلى المـراكـز المعـروفـة بأنها أسواق معدن القصدير، وليس إلى تسمية جغرافية محددة - تلك الأسـواق التي ربمـا كانت مستودعات للمنتجات المنجمية ولا تقع بالضرورة في مناطق المناجم ذاتها[٧٤].

لقـد كتـم الـقـرطـاجيـون معـرفتهم للطـرق التي كانت تؤدي إلى جزر «الكـاسيتـريين» بهـدف المحافظة على احتكار العمليات التجارية معها. وقد حاول الـرومـان خلال الحـرب البـونية الثانية الخروج من البحر المتوسط، حيث ظلوا حتى

تلك الفترة محصورين فيه وذلك بهدف الشروع في عمليات تجارية مشابهة. إلا أن «قرطاجة»، التي كانت قد فقدت اسبانيا وجميع جزر المتوسط، وبفضل شجاعة بحارتها ومقدرتهم ومعرفتهم التامة لتلك الطرق البحرية، استبسلت في الدفاع عما تبقى من امبراطوريتها العظيمة. يروي لنا «سترابون» قصة طريفة عن تلك المعركة الخفية التي كان هدفها المحافظة على «الإرث القديم»:

«كان سكان الجزر الكاسيترية، وهم يعيشون بشكل بدائي، يملكون مناجم قصدير ورصاص ويبادلون بذلك بعض المنتوجات، كما يبادلون جلود الحيوانات التي يربونها بالمصنوعات الفخارية والملح والمواد البرونزية. وسابقاً، كان الفينيقيون وحدهم يرسلون سفنهم لهذه التجارة انطلاقاً من «قادس»، وكانوا يكتمون بشكل تام معرفة الطرق المؤدية إليها. وذات يوم لحق بعض البحارة الرومان بإحدى تلك السفن لمعرفة تلك الطرق، إلا أن قائد السفينة الفينيقية، وكي يحافظ على سرية الطريق البحري، حوّل اتجاهها وجنح بها في المياه الضحلة كي يجر مطارديه إلى نفس المنطقة ويكبدهم نفس الخسارة، أما هو فتمكن من الخروج سليماً، وسددت الخزينة العامة ثمن سفينته» (11, 5, III).

كانت طرق الفضة والقصدير والذهب تتجه إلى الجنوب أيضاً. إذ قاد البحارة البونيون سفنهم على طول السواحل الأطلسية لأفريقيا. وقد وُجد على نقش كان يزين معبد «بعل حمّون» في قرطاجة (يقابله عند الإغريق «كرونوس»)، وُجد نص يحكي قصة الرحلة الطويلة التي قام بها «حنّون»، وبما أنه ليس بمقدورنا أن نتوصل إلى الأصل المكتوب باللغة البونية، فإن بين أيدينا ترجمته اليونانية[٧٥] التي تبدأ على هذا الشكل:

«قصة الرحلة التي قام بها ملك القرطاجيين «حنّون» حول الأقاليم الواقعة فيما وراء أعمدة هرقل، نُقشت على ألواح وعُلقت في معبد «كرونوس».

وتُعد هذه القصة إحدى أغرب القصص والمذكرات التاريخية التي كانت شائعة في العصور القديمة. إذ يوجد فيها أحياناً الكثير من المتناقضات. كما أن نقصان التوثيق والترجمة الإغريقية لم يوصلا لنا سوى القليل القليل من أصل القصة.

وأي محاولة لتفسير أسماء الأمكنة التي وردت فيها يجعل عملنا افتراضياً[٧٦]. وحينما نقرأ قصة هذه الرحلة، يمكننا أن نرى أن هدفها كان مزدوجاً:

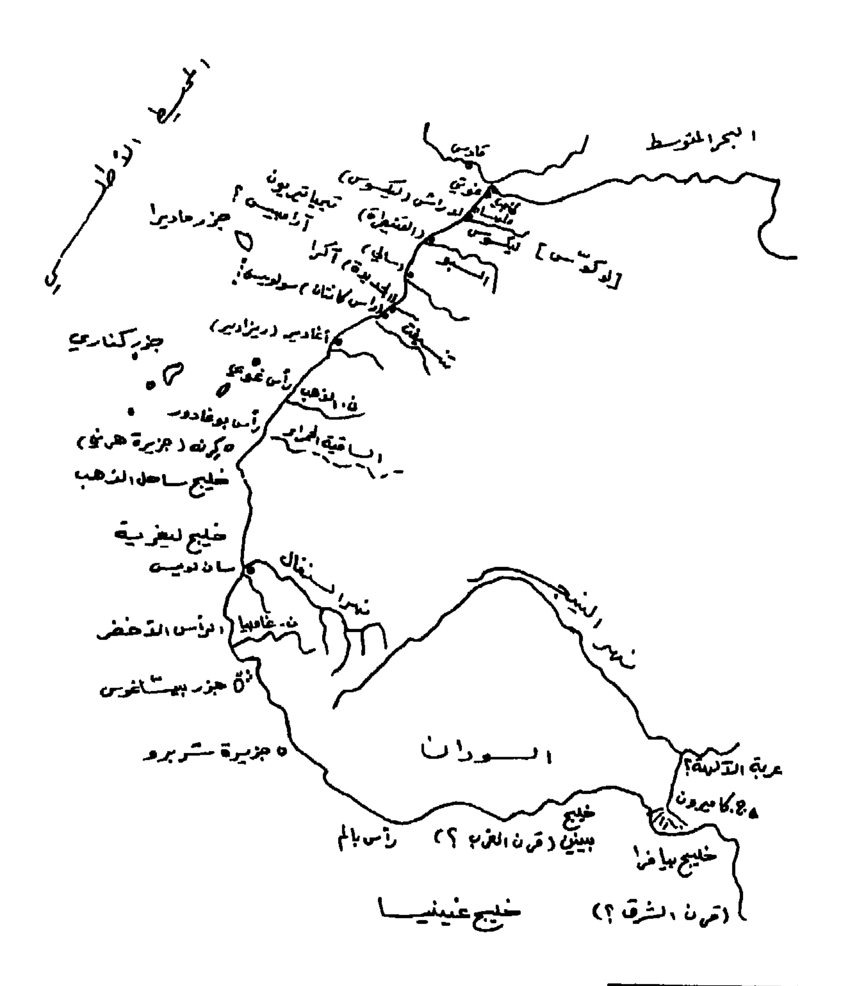
«قرر القرطاجيون أن يقوم «حنّون» بالسفر إلى ماوراء أعمدة هرقل بهدف بناء مدن قرطاجية. فأقلع مع 60 سفينة خماسية المجاذيف، مصطحباً معه حوالي 30,000 رجلاً وامرأة، إضافة إلى المؤن وكل مايلزمه لهذه الرحلة. وبعدما تجاوزنا أعمدة هرقل، وأبحرنا طوال يومين كاملين، بنينا أول مدينة أسميناها «ثيميا تيريون Thymiaterion» وكانت هذه المدينة محاطة بسهلٍ واسعٍ. توجهنا بعد ذلك إلى الغرب، إلى أن وصلنا إلى «سولويس Soloeis» وهي نتوء صخري على الشاطيء، مغطى بالأشجار حيث بنينا عليه «معبداً» لـ«بوزيدون»، بعد ذلك، واصلنا الإبحار باتجاه مطلع الشمس، وبعد نصف يوم وصلنا إلى بحيرة شاطئية تقع على مقربة من البحر يغطيها البوص، وتمر فيها الأفيال وكثيرٌ من الحيوانات الأخرى. وبعد تجاوزنا هذه البحيرة الشاطئية أبحرنا لمدة يومٍ كامل، وأسسنا على البحر مستوطنات أطلقنا عليها اسماء: «لومير كاريان Mur Carrien»، «جيتي Gytte»، «مِليتا Melitta»، و«آرامبيس Arambys».

وبعد أن غادرنا تلك الجهات وصلنا إلى نهر «ليكسوس Lixos» الكبير، القادم من ليبيا، وكان «الليكسيتيون Lexites» البدو يرعون قطعانهم على ضفافه. أقمنا معهم بعض الوقت وأصبحنا أصدقاء لهم. وفوق الماء، كان شعب «السود Ethiopiens»، وهم غير مضيافين، ويسكنون أرضاً مليئة بالوحوش المفترسة، تخترقها جبال عالية يخرج منها، كما قولون، نهر «ليكسوس». ويقولون أيضاً أن شعباً له صفات خاصة يعيش حول هذه الجبال، يطلقون عليه اسم «تروغلوديتيين Troglodytes»، ويضيف «الليكسيتيون» قائلين: أن أبناء هذا الشعب أكثر سرعة في عدوهم من الخيول، وبعد أن استمعنا إلى بعض الشروح منهم، واصلنا إبحارنا بمحاذاة الصحراء باتجاه الجنوب لمدة يومين، ثم بإتجاه مطلع الشمس طوال يومٍ واحد، فوجدنا في قلب أحد الخلجان جزيرة صغيرة يبلغ محيطها خمس غلوات، فأطلقنا عليها اسم «كِرنه Cerne» تركنا فيها بعض المستوطنين، وقدرنا أنها تقع،

حسب وجهة سفرنا، إزاء قرطاجة، لأن الوقت الذي استغرقناه للإبحار من قرطاجة إلى أعمدة هرقل يعادل الوقت الذي احتجناه من الأعمدة إلى «كِرنه».

كما رأينا، كان هدف المرحلة الأولى من الرحلة اصطحاب مهاجرين إلى الساحل المغربي وساقية الذهب، حيث أسس القرطاجيون قبل ذلك بعض المستوطنات. وهذه المستوطنات السبع التي أسست أو عُزِزت بطلائع المهاجرين الجدد، كانت تمتد على الساحل المغربي، بدءاً من وادي « لوكّوس» [ليكسوس كما ورد في الرحلة]، أي في السواحل الواقعة بعد «طنجة». وحسب تسميات المواقع الواردة في النص، حاولنا معرفة مختلف المراكز المعاصرة مثل: «لاراش» الجديدة [مازاغان سابقاً]، «صافي»، غير أن تحليلاتنا تبقى قائمة على التخمين. وبالمقابل، يمكن أن تكون جزيرة «كرنه» هي الجزيرة الواقعة في خليج «ساقية الذهب» الصغير المحمي بنتوء صخري طويل بُنيت فوقه «فيلا سيسنيروس Villa Cisneros» [الدّخْله] ـ وكان يُشار إلى هذه الجزيرة في بعض البطاقات القديمة باسم «جزيرة هيرن Herne»، التي نزل فيها «حنّون» مصطحباً معه بعض الليكسيتيين، على بعد ألفٍ وثمانمائة كيلو متر إلى الجنوب من «قادس». غير أن القائد القرطاجي لم يكن ليبحر بشكل عشوائي، فمن الواضح أنه ومنذ انطلاقه كان يعرف إلى أين كانت سفنه تتجه، وفي جزيرة، «كِرنه» ـ حيث كان يوجد بلا شك مركز تجاري ـ ترك آخر المستوطنين الذين حملهم معه.

إن هذه القاعدة البعيدة التابعة لقرطاجة، كانت مكاناً ممتازاً لإقامة صلاتٍ مع الباحثين السود عن الذهب. فهذا المعدن النفيس كان يوجد في الحقيقة، ليس فقط في وادي نهر «النيجر»، بل أيضاً إلى الغرب منه، في وادي نهر «السنغال» وبالتحديد في مثلث منطقة «بامبوك Bambouk»[٧٧]. وكانت جزيرة «كِرنه» توجد إذن في المنفذ الطبيعي للذهب الغيني. إن هذا المركز كان الهدف الأول للرحلة ـ مع أننا نرى أن المقطع السابق قد أهمل ذكر السبب التجاري لوجود مستوطنة «كِرنه». وكان على «حنّون» بعد ذلك أن يواصل رحلته الاستكشافية بهدف التحضير لإنشاء مراكز تجارية في إقليم «السودان» وعلى مقربة من أماكن الإنتاج. وتتواصل الرحلة على هذا الشكل:



من الممكن أن تكون المراحل الأساسية لرحلة «حنّون» كالتالي:

1 ـ من «قادش» إلى «تيميا تيريون» [مصب وادي «السبو»، بالقرب من الموقع الحالي للقنيطرة].

2 ـ من «تيمياتيرون» إلى «سولوميس» [رأس كنتان] وإلى «ميركاريان» [صافي] العودة على مراحل إلى «جيتّي» و«مليسّا» في إقليم «طنجة»]، وأخيراً توقف طويل في «ليكسوس» [لاراش] على الموقع الحالي لـ«وادي لوكّوس».

3 ـ من «ليكسوس» إلى جزيرة «كِرنه» [خليج ساحل الذهب].

4 ـ حملة استطلاع في جزيرة «كِرنه» حتى داخل دلتا «نهر السنغال» ثم العودة إلى «كِرنه».

5 ـ من «كِرنه» إلى عرض خليج «غينيا» [حتى سواحل الكاميرون].

«من هنـا، من «كِـرنه»، مررنا بنهر كبير هو نهر «كريتس Chretes» فوصلنا إلى بحيـرة يوجـد في وسطها ثلاث جزر أكبر من «كِرنه». وانطلقنا من هذه الجزر لنصل، بعد إبحار يوم كامل، إلى وسط احدى البحيرات التي تشرف عليها جبال عظيمة تعج بالمتـوحشين الـذين يرتـدون جلود الحيـوانات، فأخذوا يرموننا بالحجارة ومنعونا من الرسو. من هناك، دخلنا في نهر آخر، كبير وعريض، مليء بالتماسيح وأفراس النهر، بعدها قفلنا عائدين إلى جزيرة «كِرنه».

إن هذه الـرحلة الإستكشـافيـة التي وصـل فيهـا «حنّـون» إلى مقـربـة من نهر السنغـال «كـريتس» لـم تعـطِ أيـة نتـائج. لذا قرر القائد البوني، الذي عاد إلى قاعدة إتصـالـه المتقـدمـة، أن يواصـل إبحـاره إلى الجنـوب. فبعـد أن وصل إلى «الرأس الأخضر Cap vert» [وهو خاصرة الجبل المرتفع المغطى بالأشجار التي تحدث عنها النص] وبعـد المنطقـة السـاحليـة التي تشـرف عليهـا القمة البركانية جبل «كاكوليما Kakouulima»، وصـل البحـارة البـونيـون إلى خليـج «بينين Benin» [القـرن الغربي Corne de L'Occident]، ثم شاهـدوا من بعيـد جبل «الكاميرون» [عربة الآلهة Char des Dieux]، وصلوا أخيـراً إلى «القـرن الجنوبي Corne du Sude» [من الممكن أن يكون خليج «بيافرا Biafra»]. إن هذا القسم الأخير من الرحلة حدث في جو غريب جداً اقتـرنت فيـه الأعاجيب بالخيال. ففي لقطاتٍ متلاحقة، يصور الكاتب المواقف الرئيسية التي تضمنتها هذه الرحلة الطويلة. إن رحلة «حنّون» القرطاجي هذه تروي لنا مغامراته في أفريقيا «بلاد المتوحشين».

«أبحـرنـا من هناك، من «كِرنه»، صوب الجنوب ولمدة اثني عشر يوماً بمحاذاة الشـواطيء التي يسكن فيهـا «السـود» الـذين كانـوا يختبئـون عنـد وصـولنـا. وكانوا يتحـدثـون بلغـةٍ غيـر مفهـومـة حتى بالنسبة لليكسيتيين الذين رافقونا. وفي آخر يومٍ اقتربنا من جبالٍ مرتفعةٍ مغطاة بأشجار ذات أخشابٍ ذكية الرائحة ومختلفة الألوان. وبعـد أن قمنـا بالإلتفـاف حول هذه الجبال ولمدة يومين، وصلنا إلى خليج واسع في شاطئـه الآخـر سهـل فسيـح. رأينا هناك، في الليل، ناراً تشتعل في كل الجهات من وقت لآخـر، وكـانت هذه النـار تشتـد وتخمد من حين لآخر. وبعد أن تزودنا بالماء،

واصلنا إبحارنا بمحاذاة الشاطيء ولمدة خمسة أيام، وصلنا في نهايتها إلى خليج واسع كان مرافقونا يطلقون عليه اسم «القرن الغربي»، وتوجد في هذا الخليج جزيرة كبيرة فيها بحيرة تحتوي على جزيرة أخرى، وحين نزلنا فيها، لم نرَ أثناء النهار سوى غابة، أما في الليل فكنا نشاهد نيراناً كثيرة، كما سمعنا أصوات عزف الناي وضجيج الصنوج والطبول، تملكنا الخوف، فأمرنا العرّافون بترك الجزيرة.

نحن الآن بعيدون جداً عن المدينة الأم القوية التي خرج منها القاضي «حنّون» مع ثلاثين ألف بوني كانوا مهاجرين إلى شواطيء الأطلسي. إن وصولهم إلى نهاية العالم - حتى لو لم يقم القرطاجيون بتأسيس مراكز جديدة فيما وراء «كرنه» الواقعة على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر عن العاصمة - إن وصولهم إلى هذه النقطة يُمكِنّنا من إدراك مدى الإتساع التي بلغته هذه الأمبراطورية البحرية التي أسهب المؤرخون القدامى في الحديث عنها. فالمؤرخ «بوليبيوس» [10, 1, I] حين يستعرض الموقف عشية الحرب الأولى بين قرطاجة ومنافستها روما، يلاحظ أنه، وأمام الإتساع الهائل للهيمنة البونية وخصوصاً على البحر المتوسط، كان الرومان قد باتوا يخشون أن تلجأ جارتهم الخطيرة التي تسيطر على الساحل الأفريقي وجزء واسع من اسبانيا وكافة جزر بحر سردينيا والبحر التيراني، أن تلجأ إلى تطويقهم بغية تهديد الأراضي الإيطالية ذاتها. أما المؤرخ «آبيان» فقد كان يقارن امبراطورية قرطاجة بأشهر الأمبراطوريات التي كانت موجودة في العصور القديمة فيقول:

«تمكن القرطاجيون الأقوياء، في البداية، من فرض سيطرتهم على ليبيا. ثم مدّوا امبراطوريتهم بعيداً في البحار، وحملوا أسلحتهم في صقلية وسردينيا وباقي جزر البحر وفي اسبانيا، وأسسوا مستوطناتهم في كل مكان. إنهم يوازون بقوتهم الإغريق، وبثرواتهم يوازون الفرس» [Libyca, 2].



الفصـل الخـامـس

الآلـهـــة

[إلى الربة «تعنيت» وجه «بعل» والإله «بعل حمّون»]

إذا كان من الصعب علينـا أن نغـوص في موضـوع المؤ سسـات السياسية في قرطـاجـة ، فإن مسعـانـا سيكون أكثر صعوبة حينما نحاول الإحاطة بمختلف نواحي الحيـاة الـدينيـة للشعـوب البـونيـة . إن المشكلة الأسـاسية ، في الحقيقة ، تنتج عن المصـادر التي يمكن الإعتمـاد عليها ، إذ أنها مختلفة وهامة بشكلٍ واضح ، كما أنها لاتحمل سوى اشارات متباينة ومحدودة، عدا عن أن تفسيرها يبقى افتراضياً .

وأول هذه المشـاكـل هي قلة المعـابـد البـونيـة التي نستطيع أن ندرس آثارها بدقـة ، إذ أن عددهـا لايتجاوز الإثني عشر معبداً ، موزعة في أرجاء العالم القرطاجي في البحـر المتـوسط . كما أن هذه المعابد ، من جهة أخرى، ومن وجهة نظر تاريخية تصنيفية ، متباعدة بشكل شاسع بحيث يكون من المتعذر تقديم دراسة إجمالية تحيط بما كانت تتميز به هندسة البناء الدينية .

أمـا فيمـا يخص النقـوش، فإن علينـا أن نشيـر إلى الكتـابات التي تتعلق ببناء وترميم المعابد، وكذلك إلى آلاف النذور التي أقيمت لمجد الآلهة . كما يجدر بنا أن

نشير أيضاً إلى الفائدة التي يمكن أن تقدمها لموضوعنا الأسماء المركبة مع أسماء الآلهة، ولهذا دلالات في التسميات السامية، إذ أن لها مفهوم «الإرتباط» والأبوة، أو أيضاً، التواصل المستمر بين الآلهة والناس. ومن بين هذه الأسماء: «عبد إشمون»، «عبد ملقارت» [اشتق منها «هاملقارت» أي «خادم ملقارت»]، «أمة بعل»، خيمِلْك» [أخو الملك]، «خوتالّات» [أخت اللات]، «هانيبعل» [الذي يحظى بعناية «بعل»]، «هاسدروبعل» [الذي يعينه «بعل»]، «إشمون حنّو» [«إشمون يرعاه]، «إشمون ناماس» [الذي يقوده «إشمون»].

أخيراً، يمكننا الاعتماد على المراجع الأدبية الكلاسيكية، للإحاطة بموضوع الآلهة البونية، ففيها توجد بعض الإشارات عن مجمع الآلهة (البانثيون) البوني. ومع ذلك، لم يكن بمقدور الكتاب الإغريق والرومان الحديث إلا عن جهلٍ في دينٍ لايعلمون عنه سوى بعض مظاهرة الخارجية، إضافة إلى كونه غريباً في أصوله وفي تطوره، كما أنهم، في حديثهم عن آلهة قرطاجة اعتادوا الإشارة إليها بأسماء شائعة في لغاتهم الأصلية. وإنتقال هذه الأسماء مَترجمة إلى الإغريقية أو اللاتينية، ينتج عما سبق أن أسماء آلهة قرطاجة قد تطابقت مع أسماء آلهة «الأولمبوس» أو روما، فأصبح «بعل حمّون» يسمى «كرونوس ـ ساتورنوس Kronos- Saturne» والسبب في هذا أن الإله القرطاجي كانت تقدم له قرابين من الأطفال، ولأن الإله الإغريقي، كما تحكي الإسطورة، الْتَهَم ذريته. (ديودور، 7, 14, XX).

علينا، مع ذلك، الإعتراف أن القرطاجيين أنفسهم مارسوا أحياناً بعض عمليات الترجمة التي تحدثنا عنها، ومثلنا على ذلك، اليمين الذي ختم به «هانيبعل»، في عام 215 ق. م، نص المعاهدة مع «اكزينوفانس Xenophanes» سفير «فيليب الخامس» المقدوني. فالآلهة التي ابتهل إليها في تلك المناسبة، باسم الدولة القرطاجية، كانت جميعها بونية، بيد أن الوثيقة الدبلوماسية تُرجمت إلى الإغريقية من قبل مترجمين قرطاجيين، وبما أن هؤلاء كانوا يعرفون تماماً آلهتهم الخاصة المذكورة في النص الأصلي، فقد قاموا بإجراء مطابقة مع مايقابلها مع البانثيون الإغريقي. وهاكم نص اليمين:

«أمــام «زيــوس» و«هيــرا» و«أبـولـون» ، أمــام حــامي القـرطـاجيين ، وأمـام «هيـراكلس» ، و«أيـولاوس» أيضــاً ، أقام «آرس» و«تريتون» و«بوسيدون» ، أمام الآلهة التي تواكب الجيش في الحروب ، أمام آلهة الشمس والقمر والأرض أيضاً ، أمام آلهة الأنهـار والبحيـرات والماء ، أمام جميع الآلهة الذين يحمون قرطاجة [. . .] ، هكذا قال «هـانيبعـل» قائـد الجيـوش ، وقـال ذلـك معه جميع شيوخ قرطاجة والقرطاجيين أجمع [، . . .] . » . (بوليبيوس VII ,3 ,9) .

إن هذه الـوثيقـة تطـرح العـديـد من المشـاكل ، أما نحن ، من جهتنا ، فنبقى أسـرى التخمينـات حينمـا نحـاول أن نجد تأويلاً مالها . «فالثلاثي» الأول «زيوس ، هيـرا ، أبـولـون» يمكن أن يتطابق مع «بعل شمين» [رب السموات Dominus Caeli] مثلمـا أشـار القـديس أوغسطين ، ومـع «تعنيت» إلهـة قرطـاجـة الكبـرى ، و«رِشف» [المضيء] إله النار والصواعق .

وإذا كان علينـا أن ننتبـه إلى لعبـة المقـارنـات المـوجودة في النصوص الأدبية الكـلاسيكيـة ، فإن بإمكـانـنـا أن نلاحـظ ، رغم ذلـك ، أن أسماء الآلهة الإغريقية أو الرومانية ليست بالضرورة نقلاً يراد به الإشارة إلى آلهة العالم الفينيقي البوني ، إذ أن هذا العالم ينفتح على العديد من الآلهة الأسطورية الغريبة . فالقرطاجيون بإتصالهم مع مصر وأفريقيا وأتروريا واليونان ، ومع صقلية بشكل خاص التي يبدو أنها لعبت دور إقليم الإختبـار أو الـوسيـط بالنسبـة للآلهة ، لم يكن بمقدورهم إلا أن يتأثروا بهؤ لاء الجيران ، وأن يحاولوا هم أيضاً استمالة عطف القوى العلوية أو السفلية الشهيرة منها بشكل خاص .

لقـد كانت أسطـورة «إيـزيس» و«أوزيـريس» مثالاً بارزاً على العلاقات الدينية التي كانت قائمة بين مصر وفينيقيا ، ففي قرطاجة نفسها ، استخرج من مدافنها العديد من الجعلان التي ترمز للآلهة المصرية كانت تستخدم كطلاسم[٧٩] ، كما نلمس في التمائم المكتشفة وجود عناصر ترجع إلى الإرث الديني للدلتا ووادي النيل .

كما كان تأثير اليونان ، من جانبها ، قوياً ، بسبب انتشار عبادة الإلهة «كورِ Kore » [بيـرزيفـون] ، والإلهـة «ديمتـر Demetre » . فلقد اعتمدت طقوس هاتين الإلهتين

رسمياً في عام 396 ق.م، حينمـا شدد القـرطـاجيون الحصار على مدينة «سيراكوز» وحـدثت كارثـة كان سببهـا، دون شك، انتشـار وبـاء أهلك قسمـاً من جيوش القائد «هيملكـون»، وكـان الجنود قد نهبوا معبدين للإلهتين الإغريقيتين أمام أسوار المدينة المحاصرة. فاعتقد القرطاجيون أن سبب مصيبتهم يعود إلى الغضب الإلهي وقرروا إصلاح مادنسّوه. يقول «ديودور»: «حتى تلك اللحظة، لم يكن القرطاجيون يؤمنون بهاتين الإلهتين، إلا أنهم، بعدما حدث، طالبوا من خيرة مواطنيهم أن يصبحوا كهنة «كورِ» و«ديمتر» ورسموهم في المدينة باحتفال عظيم» [5, 77, XIV].

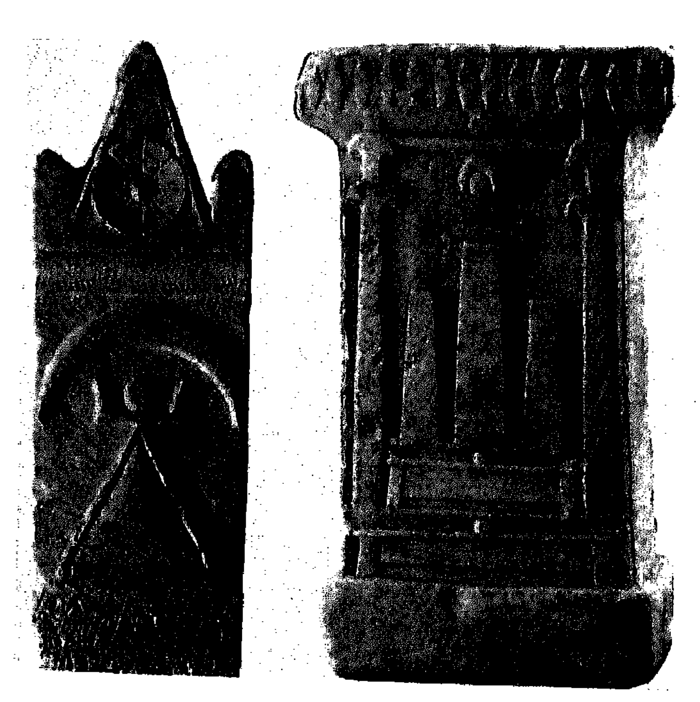
وإذا كان العـالم البـوني قد تطور بنتيجة بعض العوامل التاريخية، فقد لايحق لنـا أن نتحـدث عن حدوث ثورة في هذا المجـال. وإذا كانت النُصب المكتشفة في «سـالامبـو» تمثـل على الأغلب مواضيـع شائعة جداً في العالم البوني الإغريقي مثل «صـولجـان هرمس» و«البـاطيـات» و«رمـوز باخوسية [خمرية]» أخرى، فهذا لايعني سيـادة المفـاهيم الهلينيـة على المعتقدات والشعائر القرطاجية. إن سبب انتشار هذه الـرمـوز عائـدٌ في حقيقـة الأمـر إلى الأصول الأولى للإرث الفينيقي البوني. أما فيما يخص الآلهـة القليلة الأجنبيـة التي شاعت عبادتها في المدينة، فمن المحتمل جداً أنهـا خضعت هي أيضـاً إلى عمليـة «نقـل بونيـة»، وعلى أيـة حال، كانت العقـائـد الشعبيـة تجهلهـا تمـامـاً. وخلاصة القول، أن الدين القرطاجي، الذي لم يكن أبداً واقعاً تحت سيطرةآلهة مهاجرة من مكان آخر، يمثل كلاً مركباً، ولكنه متماسك جداً.

لقـد واصـل البونيون تقديس الآلهة الفينيقية. إذ شُيد معبد للإله «أشمون» في أكـروبـول مدينـة «بيـرسـا»، كمـا كان يوجـد الكثير من مواطني قرطاجة الذين كانت أسمـاؤ هم تؤكـد المحبـة الشعبيـة لهـذا الإله ـ الذي يماثل «اسكالوب» ـ، كما أن «مِلقـارت» [رب المـدينـة] كان مقدساً ومشهوراً أيضاً، وهويماثل «هرقل». وقد بقي القـرطـاجيـون ولعـدة قرون يرسلون كل عام سفـراء لتقـديم الهـدايا إلى رب «صور» الأكبـر، وبنـوا لمجـد هذا الإله معابد انتشرت في «قادس» وحتى «ليكسوس»، وكان البـانثيـون البـوني يضم آلهـة أخـرى، مثـل: «عشتارت»، «رِشف»، «صِيد» [الذي يماثل أحياناً «تعنيت»، أو «ملقارت»][٨٠]، «أريش Arish»، «حنّون». ولكن لم يكن

أيٌّ منهم يحظى بالتبجيـل أكثـر من الـربـة «تعنيت» والإلـه «بعـل شمـون»، إذ يرد اسمـاهمـا على آلاف النصب(٨٠) المقامة من الأحجار الجيرية المكتشفة في قرطاجة وأراضيهـا البـونية. وكانت هذه النصب، وهي عبارة عن أعمدة لا قاعدة لها ولا تاج، في معظمهـا تنتصب فوق مرامـد تحتـوي على بقايا الضحايا المحترقة، وتضم أيضاً مسكناً صغيراً خُصص للإله.

إن هذه النقـوش التي تتبـع نمـوذجـاً مفتقراً للأصالة، كانت عبارة عن تكريس لهـذين الإلهين العظيمين، إضـافـة إلى اسم صاحب النـذر وأسماء أسلافه، وكانت توجـد أحيـانـاً إشـارة إلى مهنتـه، وتختتم في الغالب بدعاء لطلب البركة. ولدينا هنا نموذجان، الأول استخرج من «هادروميت» [سوسة]، والثاني من «سالامبو»:

قرطـاجـة: نصبٌ من «تـوفيت» «سـلامبـو» يمثـل رمز «تعنيت» يعلوه الهلال المقلوب، وفي لوحة الجبهـة المثلثـة يوجد نقش على شكل وردة (القرن الرابع ق.م)، عمودٌ نذري (مدافن «دِرمش») يمثل ثلاثة نصبٍ ـ ركائز على معبدٍ (القرن السادس ق.م)

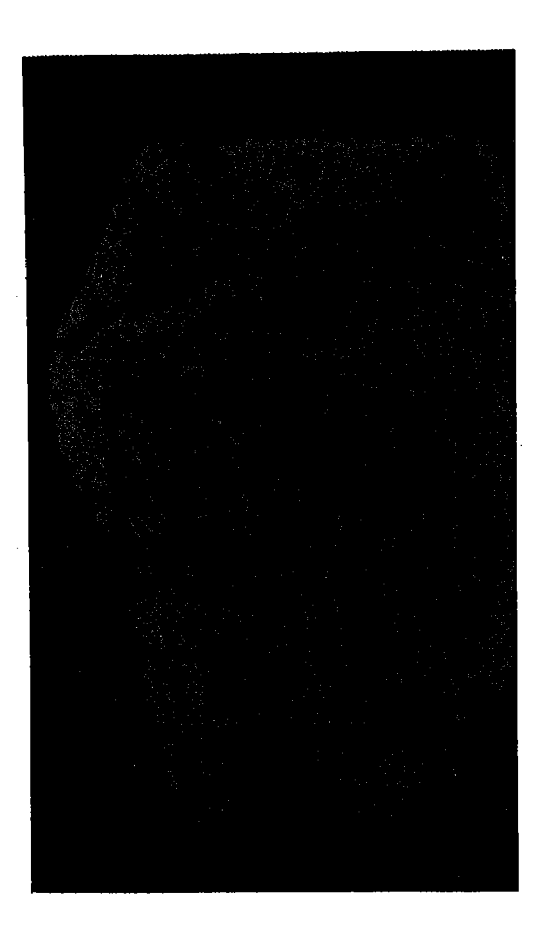


«إلى الربـة «تعنيت» وجـه الإلـه «بعل حمّون»، هذا مانذره «بود ملقارت» بن «زركِش» بن «آشـال»، ولأنهم سمعـوا صوتـه فلتحـل عليـه بركـاتهـم». «إلى الـربة «تعنيت» وجـه الإلـه «بعـل حمّـون» مانذرته «أريشات بعل» ابنة «قرقين Qrqyn » لأنه سمع صوته، فلتحل عليها بركته»(٨١).

لم يكن أي من آلهـة فينيقيا يحمل اسم «تعنيت» التي كانت عبادتها قد ارتقت في بدايـة القـرن الـرابـع ق. م، وفي أواخر حكم العائلة «الماغونية»(٨٢). ومع ذلك، لايـوجـد أي سبب، كما يفترض البعض، لأن نُرجع أصول الربة «تعنيت» القرطاجية إلى ليبيـا. وإذا كنـا لانـزال نجهـل المكان الذي ابتدأت منه، فإننا على الأقل نعرف أنهـا تقلدت جميـع مهام الربة الكنعانية «عشتار»، إلهة الخصوبة، كما كانت مماثلة لـ«هيـرا» التي لعبت دوراً شبيهـاً في إيطـاليـا الجنـوبيـة، كمـا اعتبرها الرومان مثيلة لـ«جـونـون ـ كايليستيس Junon- Caelestis » ربـة المستعمرة القرطاجية التي نظمها «كايوس كراكشوس Caius Craechus ».

كانت «تعنيت» في البداية تمثل «الأم» مانحة الخصوبة، إذ اكتشـف في منطقة «الحفـرة» [قـرب «قسنطينـة»] نُصبٌ نقـرأ عليه: «إلى بعل وتعنيت وذريتهما»، وهذا يفسـر، دون شك، سبب الإحتـرام البـالغ الذي كانت تلقاه الربة «تعنيت» في جميع الأوساط الإجتماعية في قرطاجة.

أمـا بالنسبـة للإشـارة التي تقـول «إلى تعنيت»، والتي مُثلت بنصب أحادي أو ثلاثي واسطـوانـة تستنـد إلى هلال و«قـارورة مقـدسـة»، وكـانت تحتـوي على أحد العناصر الشائعة جداً في رسوم الأعمدة والنصب القرطاجية(٨٣)، «فقد لايكون لها أية علاقة خاصة مع الربة المذكورة. لقد شُكل هذا التركيب الهندسي من ثلاثة عناصر: مربـع منحـرف أو مثلث متساوي الساقين وأسطوانة يفصلهما حاجز أفقي ينتهي طرفاه غالباً بفرعين يتجهان بشكل عمودي. إن هذه الصورة بشكلها التام تجعلنا نفكر فوراً بامـرأة ترتـدي ثوبـاً طويـلاً، وهي ترفـع ذراعيهـا(٨٤)». هل بإمكـاننا أن نفهـم من هذا الشعار الأيقوني ـ، وحتى من صور الإسطوانة والهلال ـ رموزاً لعقيدة شمسية؟(٨٥) ألا يمكن أن تكون هذه الرموز مجرد نقوش وثنية؟ لقد كان الفينيقيون ينقشون هذه الرموز



«بعل سوسه» في معبده (حوالي القرن الرابع ق.م)

على عتبات بيوتهم لإيمانهم بقدرتها على حمايتهم). ورغم ذلك، فإن هذه المسألة لازالت موضع نقاش، فمع أنها استخدمت كطلسم سحري، فلا شيء يمنعنا من القول أن إشارة «تعنيت» في الرمز الديني كانت عبارة عن فِكرة ترجمت المفهوم القرطاجي للربة العليا في علاقاتها مع العالم لتوضح الميزات العلوية والسفلية لمثل تلك الرموز.

كان «بعل حمّون» أعظم آلهة قرطاجة، بل هو أسمى تلك الآلهة. ولجأ القرطاجيون، مثل كافة الشعوب السامية، ولكي يتحاشوا الإشارة بشكل مباشر إلى الإله «إيل» باسمه الذي يحمل قوة هائلة، لجأوا إلى تلك التسمية «بعل حمّون»، إن أول كلمة من هذا الاسم تعني «السيد»، أما المقطع الثاني، ونظراً لصعوبة تحديد

أصل جذره، فيمكن أن يعني «هيكل العطر» (بالعبرية التوراتية يرد اسمه «حمّان»)، وربما كان يعني «الحرارة» أو «الجمر ـ النار»، وبهذا يكون «بعل حمّون» هو «سيد النـار»[٨٧]. وهـذه «النـار» ربمـا كانت تعني نار الحفـرة الخاصة بالقرابين حيث كانت تُلقى الضحـايـا، وربمـا كانت تشيـر إلى «الشمس» المتأججـة التي كانت صورتهـا منقـوشـة على شكـل إسطـوانـة إلى جانب صورة الهـلال. وفي هذا تأكيـد آخر على الطابع الفلكي لهذه الديانة.

ومما يجـدر ذكـره أن الفينيقيين، مثلهم مثـل بقيـة الشعـوب السـاميـة، كانوا يمـارسـون طقـوس ديـانـة موَجـدة دون أن يروا ضرورة للتخلي عمـا يدل على تعدد الآلهة. وفي المنظور الديني والطقسي، اعتبرت الآلهة الفينيقية البونية بمثابة رموز، انعكـاسـات أو تجليـات لرب السمـاوات (وتشبـه في ذلـك الـ «Numina» أو أيضـاً «Indigitamenta» في الـديـانة الرومانية)، وعليه فإن عبارة «وجه بعل» كانت تعني أن تلك الربة هي انعكاس للإله.

بهذا الشكل كان «بعل حمّون» يظهر في الرموز المصورة التي وصلت إلى أيـدينـا[٨٨]. وخصـوصـاً على النصب الخـاص الشهيـر الـذي اكتشف في بنـاء معبد «هادروميت» [سوسة] البوني، والذي يرجع إلى القرن الرابع أو الثالث ق. م[٨٩]، وفيه تظهر رسوم تمثل شخصاً متعبداً، أمرداً ـ ربما كان أحد الكهنة ـ يضع على رأسه قبعة كانت قمتها ترجع إلى الخلف، ينتصب واقفاً، وذراعه اليسرى تلتصق بجسده على ثنيـات ردائـه، رافعاً يده اليمنى المفتوحة إلى محاذاة وجهه كتعبير عن الخضوع التام للإلـه. أمـا ذلـك الإلـه فكان ذا لحية طويلة وعلى رأسه قلنسوة ذات شرائط، يجلس فوق عرش ذي مسندٍ مرتفع، وقد حُفِرت على كل متكأ صورة «سفنكس Sphinx»(*)، ممسكـاً بيـده اليسرى سنبلة قمح لها ساقٌ تشبه عصا الرمح، ويرفع يده اليمنى ويدير كفهـا ناحيـة المتعبـد في إشـارة إلى مبـاركتـه، فمن أجـل الحصول على بركة «بعل حمّون» كان المؤمنون يضحّون بأغلى مالديهم.

---

* سفنكس: كائن خرافي له جسد أسد، وأجنحة، ورأس امرأة وصدرها. ـ المترجم ـ.

مولوك «مولوخ» وتوفت(*)

أشرنا إلى أن النصوص الأدبية الكلاسيكية والوثائق المنقوشة قد ذكرت بعض المعابد التي بُنيت لمجد آلهة قرطاجة. وبالمقابل، فإن الآثار التي كشف عنها في التنقيبات كانت قليلة العدد. كما أن التغيرات وتوضع طبقاتٍ أبنية جديدة تعود إلى فترة الحكم الروماني تجعل أية محاولة لإنشاء مخطط أولي عملاً يقوم على التخمين.

لقد تمكن العلماء، في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، من دراسة آثار معبدين صغيرين يقعان في محيط مدينة «قرطاجة» وفيما بعد، في عام 1966، تمت عمليات تنقيب في منطقة «رأس الدريك»، في نتوء صخري يمتد حتى الطرف الشرقي «للرأس الطيب» وقد سمحت هذه التنقيبات باكتشاف أساسات معبد على مقربة من احدى القلاع التي تعود إلى القرن الخامس ق. م، ويبلغ طول هذه الأساسات أحد عشر متراً وعرضها ثمانية أمتار، وهي مبنية فوق الصخور مباشرة وبشكل يشرف على البحر، كما تمكن علماء الآثار، بفضل العمليات المتواصلة في مناطق مختلفة من حوض البحر المتوسط، أن يكتشفوا أطلال أبنية دينية بونية أخرى، مثل تلك الموجودة في «تاسيلغ Tassilg» في جزيرة «مالطا» حيث انتشرت عبادة الربة «عشتار»، وكذلك في جزيرة «صقلية» في مواقع مدن «موتيي» و«سيلينونتي»

---

* لفظة «ملك» بالأصل مشتركة في مايدعى باللغات السامية، إلا أنها بهذه الصيغة «مولوك/مولوخ» اتخذت مدلول الألوهية. لذا فإن الأضحيات من نوع «مولوك» موضوع هذه الفقرة تتميز بكونها أضحيات إلهية على أعلى المستويات.

أما كلمة «توفت»، فأصلها غير واضح، ولكن قُصد بها بشكل عام مكان التضحية وبشكل أدق «المحرقة». وقد ذكرت في عدة أماكن من النصوص التوراتية تشير إلى أن العبرانيين كانوا قد استخدموها. ولايستبعد كما يرى البعض أن تكون مأخوذة عن الآرامية القديمة. المحقق

وفي إقليم «بالرما» أيضاً، وفي جزيرة «سردينيا» في مواقع مدن «كاغلياري» و«نورا» حيث يبدو أنه كان يُعبد فيها الإله «اشمون ـ اسكالوب»، وفي رأس «سان ماركو» قرب «ثارّوس Tharros» التي كان معبدها القديم مؤلفاً من ثلاثة أقسام متتالية: رواق ـ قاعة وسطى ـ وقاعة ذات هيكل. وفي موقع «آنتاس» حيث وجدت نقوش تذكر الإله «صِيد»، وأخيراً فوق أعلى نقطة من جبل «مونتي سيري Monte Sirai» التي كان يوجد فيها معبد ربما ارتقى إلى القرن السادس ق.م، ويشير مخططه الثلاثي إلى الميزة الأساسية لفن البناء الديني الفينيقي.

إذا أخذنا بعين الإعتبار هذه الآثار القليلة التي وصلت إلينا، فمن الصعب علينا تصور الثراء الهائل الذي كانت تحويه بعض تلك المعابد. يذكر «أبيان» أن «سيبيون»، وقبل يومين من سقوط قرطاجة، شن هجوماً بأربعة آلاف رجل لإقتحام معبد «أبولون» [ربما يقصد هنا الإله الفينيقي «رِشف»]، ويضيف المؤرخ الإغريقي: «وفور دخولهم إلى المعبد، قاموا بتجريد تمثال «أبولون» من أغطيته الذهبية، كما جرّدوا بيت الجسد الذي كان يحوي التمثال من أوراقه الذهبية التي تزن ألف تالان» [Libyca, 127].

كان رجال الدين الذين يقومون بتلك المهمة كثيري العدد. وتشير شواهد القبور والنذور البونية إلى هؤلاء الكهنة، كما يشار في مواضع أخرى كثيرة إلى كاهنات، وتشير النقوش في بعض الحالات إلى المسؤولية التي كان يتحملها رجال الدين مثل كهنة «بعل شمون»، كاهنات «ريتنا»، وتذكر تلك النقوش أيضاً بعض مراتب التسلسل الديني، مثل «رئيس الكهنة» أو «الكاهن الأكبر» ـ ويمكن للمرأة إن كانت زوجة الكاهن الأكبر أن تحمل هذا اللقب ـ و«الكاهن الثاني». لقد كانت البنى الكهنوتية منظمة بشكلٍ جيد، واستأثرت العائلات الكبيرة أحياناً بالمناصب الدينية أو كانت هذه المناصب تنقل كحقٍ وراثي من الكهنة إلى أولادهم. ومع ذلك، لاشيء يدل على أن جماعة الكهنة قد شكلوا، رغم الإمتيازات الكثيرة التي تمتعوا بها، طبقة مغلقة ضمن جهاز الدولة. لقد كان الكهنة والكاهنات يعيلون أسرهم ويشاركون في

حياة المدينة العامة، غير أن وظائفهم لم تكن تخولهم أية امتيازات في مجال العمل السياسي.

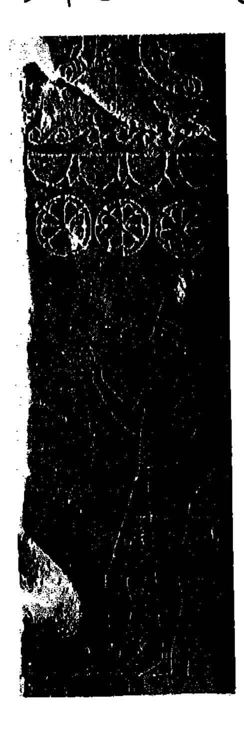
كان الكهنة يرتدون ملابس كهنوتية مؤلفة من قبعة عالية اسطوانية الشكل تشبه الطربوش ورداء طويلاً من الكتان، ويضعون في بعض الأحيان شالاً مزركشاً على الكتف الأيسر. وكانت مهمة هؤلاء الكهنة هي الإهتمام بإقامة الشعائر الدينية ومراقبة تنفيذها في أدق تفاصيلها، وكان يساعدهم في تنفيذ أعمالهم أشخاص متفرغون مهمتهم القيام بعددٍ من الوظائف، كمنشدين وصنّاجين وموكلين بالشمعدانات وقصابين. وكان الكهنة يكسبون قوتهم مما يجنونه من الهيكل إذ كانوا يأخذون قسماً كبيراً من «التعريفات القربانية» التي ورد العديد منها في النقوش البونية. وكانت هذه التعريفات مكرّسة للقرابين المقدمة وبحسب طبيعة كل واحد منها، كما نرى في المثال التالي:

«إذا كان العجل قربان تكفير أو تقرّب أو مَحرقه، فللكهنة عشر [مثاقيل] فضة على كل ثور. وبالنسبة للقرابين التكفيرية يحق لهم فوق ذلك أن يتقاضوا ثلاثمائة [مثقال] من اللحم. أما في القرابين التي تُبذل تقرباً من الآلهة فيحق لهم أن يأخذوا الصدر والفخذ [الأيمن]. أما الجلد والأضلاع [؟] والأرجل وماتبقى من اللحم فهي لصاحب القربان». كانت تعريفة «مرسيليا Marseille»، هذه معلقة في معبد «بعل صُفّون». كما توجد تفصيلات أخرى تتناول أتعاب الكهنة من مختلف أنواع الحيوانات الداجنة أو البرية مثل «الأيل، الرِشاء، الطيور». وتذكر هذه «التعريفة» أيضاً «البواكير المقدسة» لبعض الهدايا مثل: الطحين، الزيت، الحليب، الفطائر...» أما إذا فرض الكهنة أتاوات أخرى على المُضحّين، فإن الوثيقة تتابع: «إن كل كاهن يجبي ضريبة أخرى [؟] غير تلك المثبتة في اللوحة ستفرض عليه ضريبة».

وإضافة إلى هذه التقدمات القربانية ـ المَحْرقَة وفيها يتم حرق الأضحية بالنار بشكل تام، وأضحية التقرب التي يبتغي المُضحي بها «الالتصاق» بالإله بأن يأخذ قسماً منها، والأضحية التكفيرية التي يحق للكاهن وحده أن يأخذ قسماً منها،

والنـذور وأضـاحي النبـوءات ـ إضـافـة إلى هذا، كان على الكهنـة أيضاً أن يمارسوا شعائر «مولوك»، التي كانت تتضمن طقوس حرقٍ رهيبة، غير أن هذه الشعائر لم ترد أبداً في أي من النصوص والآثار البونية.

لقـد كانت عادة التضحيـة بالأطفـال موروثـة عن «صـور»، وكان النبي «إرميا» يوبـخ العبـرانيين لأنهم، هم أيضـاً، كانوا «يبنون المرتفعات للبعل التي في وادي بن هِنـوم ليجيـزوا بنيهم وبنـاتهم في النـار لمـولَـكَ» [إرميـا، 32 ,35]. لقـد كان تقديم القـرابين البشـريـة عادة شائعـة في العصور القديمة، غير أن خصـوصية «مولوك» تعود لكونها تتعلق بشعائر قربانية خاصة بعبادة «بعل حمّون». والسؤ ال الذي يواجهنا هو: لم كان الفينيقيون والبونيون يقدمون مثل تلك الأضاحي؟ ألأنهم اعتقدا أنهم بعملهم هذا يعيـدون الحيـويـة للآلهـة المنهكـة؟ إن أي افتـراض في هذا المجال يبقى مثار نقاش، لذا علينا أن نحترس من إطلاق التعميمات، ولكن من المؤ كد على الأقل أن المؤ منين كانـوا يضحـون «بأفضل أولادهم» ـ مع أن النصوص لم تأتِ على ذكر أول



قرطاجة: نصبٌ من «توفيت» «سلامبو» (تفصيل) يمثـل كاهنـاً يمسـك بين ذراعيـه طفـلاً منـذوراً كقربان لـ«مولوك» (القرن الخامس أو الرابع ق.م)

المـواليـد من الـذكـور ـ وينتظـرون لقـاء ذلك أن ينالوا حظوة استثنائية توازي العمل العظيم الـذي أدوه للآلهـة . غيـر أنـه لم يرد في أي من النصـوص مايفيـد أن طقوس «مـولـوك» كانت اجبارية أو أنها كانت بمثابة عُرفٍ كي نستخلص أن الأسر كان عليها أن تضحي بشكلٍ منتظم بواحدٍ من أبنائها[٩٠].

يحكي لنـا نصٌ لـ «ديـودور الصقلي» عن قربـان من هذا النوع . ففي عام 310 ق . م ، وخـلال الحـرب التي شنها «آغاثوكلس» ، نسب القرطاجيون المشدوهون من رؤ ية فرق الغازي السيراكوزي تهدد عاصمتهم ، نسبوا مايحدث إلى عصيانهم للإله «كـرونـوس ـ بعل حمّون» : «كانوا يظنون أن «كرونوس» يعاديهم ، فأخذ أولئك الذين ضحـوا في وقتٍ سابق بأفضـل أبنائهم ، أخذوا بشراء الأطفال سراً ، وشرعوا بتغذيتهم ومن ثم أرسلوهم للتضحية . وبعد التحقق من هذا الأمر، أُكتشف أن بعض الأطفال الـذين ضُحي بهم كانـوا بدلاء عن أطفال آخرين ، لكن القرطاجيين ، الذين شاهدوا العـدو يخيم على مقـربـة من أسـوار مدينتهم ، تملكهم خوف شديـد ، إذ ظنـوا أنهم بعملهم هذا كانـوا يخـالفـون التقاليد الرفيعة المتوجبة للآلهة . فأرادوا أن يكفروا عن خطيئتهم ، فأختـاروا مئتي طفـل من بين أفضـل أطفـال المـدينـة وضحّـوا بهم باسم الـدولـة ، أمـا الأطفـال الـذي جيء بهم إلى العمليـة المـذكـورة سابق ، وعـددهـم ثلاثمـائـة ، فقـد استسلمـوا للأمـر وحـدهـم . وكـان يوجد في قرطاجة تمثال برونزي لـ«كـرونـوس» ماداً يديه بشكل منحني نحو الأرض ، وراحة كفيه إلى الأعلى ، بحيث كان الطفل الذي يوضع فيها يدور ليسقط في حفرة مليئة بالنار» [4, 14, XX] .

لقـد أشـار كتـابٌ آخرون مثل «بلوتاركوس» و«تيرتوليان Tertullien » إضافة إلى العديد من الإشارات الموجودة على النقوش البونية إلى عمليات أخرى لتقديم قرابين بشرية بالنيابة ، وحملت لنا بعض الإيضاحات عن الإجراءات المتبعة في تنفيذ هذه الطقوس الدموية التي كانت ، على مايبدو، تتم ليلاً . فلقد كان عازفوا الناي وقارعوا الطبول يجلسون أمام الحفرة ، وكان على آباء الأطفال (الذين سيضحى بأبنائهم) أن يحافظوا على رباطة جأشهم ويمتنعوا عن البكاء ، إذ أن البكاء والدموع لايليقان برفعة الطقـوس الهـادفـة إلى تقـديم أُعطيـة كاملة إلى الإلـه . وعلى الأم ، هي أيضـاً ، أن

تداعب طفلها بحيث لا يُصدر أي نحيب، وفي اللحظة الموعودة، تقوم بتسليمه إلى أحد الكهنة الذي يرتدي كامل حلته، فيحمله بين ذراعيه، كما يوضح لنا نُصب اكتشف في قرطاجة يمثل هذا القربان، وبدون شك، كان يتم ذبح الضحية أولاً وفق طقوسٍ سريةٍ كانت سائدة قبل ذلك عند الفينيقيين، ويوضع الجسد بعد ذلك على يدي التمثال ليدور ويسقط في الأتون.

وبدءاً من القرن السادس ق. م، حدث تطور في إقامة هذه الشعائر، حتى توصل القرطاجيون في أواخر عهدهم إلى تبديل عقيدة «المولوك» بعقيدة تقوم على القرابين البديلة - مثل التضحية بحَمَل Molchomor، أو كانوا يلجؤون إلى حيلة حقيقية بتقديمهم «أجنة مجهضة»، ولكن الطريقة القديمة لم تتلاشَ، إذ تورد المكتشفات الأثرية أدلة على استمرار تلك الطقوس حتى سقوط العاصمة البونية، ويذكر بعض الكتاب أنها استمرت سراً خلال فترة الحكم الروماني، وبالنسبة لقرطاجة التي تمكنت من نشر حضارة نيّرة خاصة بها، فإن مثل لتلك الطقوس التي تبدو لنا أكثر همجية وإثارة كانت تتم وسط احتفالات تحرق فيها مئات الضحايا، وخصوصاً في أوقات النكبات الوطنية أو الهزائم الحربية حيث كانت السلطات تلجأ إلى «المولوك» التقليدي كما لو كان إحدى المؤسسات الحكومية. ومما تجدر الإشارة إليه أن الرومان، ورغم كل حقدهم على «هانيبعل»، فإنهم لم يتهموه أبداً بممارسة تلك الطقوس.

كان رماد الضحايا المقدمة إلى «بعل حمّون» و«تعنيت» يجمع في مرمدة توضع في غرفة واسعة بدون سطح، يطلق عليها اسم «توفت Tophet»، ولم يجد أحدٌ أية كتابة أو نقش أو لُقى فينيقية - بونية تدل على هذه التسمية، ولكنها ترد في عبرية العهد القديم (كما في سفر «أشعيا» 33, 30، حيث يشير إلى العلاقة الموجودة بينها وبين ذبائح المولوك» وكذلك في سفر «إرميا» 7 ,31 ,14 ,11، وفي سفر «الملوك الثاني 10, 23»(*).

---

* انظر بداية الفقرة.

واستمــر هذا الغمــوض حتى عام 1921 ، حيث اكتشف «تـوفت» قرطـاجـة . ويمتــد بشكــل مواز للشـاطيء الغـربي «للمـرفأ التجـاري» البـوني ، على شاطيء سالامبـو، في المكـان الـذي كانت «إليسار» وصحبها قد نزلوا به . فهناك أيضاً ، قدم أولئك المهاجرون ، بعد تأسيس المدينة ، أول قرابينهم ، وكان هذا المعبد يبدو شبيهاً بفناء مستطيل الشكل لم تكن أبعاده قد حُددت بعد ، وربما يبلغ مئة وخمسين متراً في الطــول وستين في العـرض . ولقـد قام العـديـد من علمـاء الآثـار بالتنقيب في تلك المنطقـة إضـافة إلى إجراء عدة عمليات سبر في نقاط أخرى وصلت إلى عمق سبعة أمتـار في الأرض ، ومـع أن الأقسـام الأكثـر قدمـاً لم تكتشف حتى اليوم(٩١) ، فإن هذا الـ«توفت» قد كشف عن آلاف المرامد التي كانت تحتوي على بقايا الأطفال الذين كانت أعمـارهم تصـل حتى سن الثـانيـة عشـرة ، ولكن أغلبهم كان في سن الثـانيـة ومادون ، إضافة إلى وجود بقايا لبعض الأطفال الذين ضُحي بهم بعد ولادتهم ببضعة أيـام . ولم تكن القـرابين البـديلة (كالطيور أو الحيوانات الصغيرة) قليلة . ففي بعض الفتـرات ، وخصـوصاً في القرنين الخامس والرابع ق . م ، تزايدت نسبة هذا النوع من القـرابين . ومـع ذلـك ، ورغم تزايـد عدد السكـان الحضـر ، وهـذا يعني تزايـد نسبة المـواليـد ، بقي عدد الأطفـال المُضحّى بهم هو نفسـه كمـا في السـابق . وفي هذا



قرطاجة : نُصب وجرار مرامد في «توفيت» «سلامبو»

مقيـاس «للمنـاخ» العـام الذي كان يسود المدينة : التطور الديني ، الموقف السياسي والإجتماعي والإقتصادي .

يعـود الـ«تـوفت» المكتشف ، دون شك ، إلى بدايـة تاريـخ قرطاجة كمدينة ، وتواصلت فيه ممارسة هذه الطقوس حتى عام 146 ق . م . مع ذلك باستطاعتنا أن نميز عدة مستـويـات متعـاقبـة تتشـابك فيه . إذ لم يكن يوجد أي قربان في مكان بعيد عن الفنـاء المقـدس . وحينمـا كان المكـان يضيق بالمـرمـد ، كان يُردم القسم المطلوب بحيث تتشكـل أكمـة توضع عليها المرامد الجديدة وتتجمع فوق سابقتها . وبدراستنا لمختلف نمـاذج الفخـاريـات التي تحوي رماد الضحايا يمكننا أن نميز ثلاث مراحل رئيسيـة في عمليـة التنفيذ تلك ، فالأقدم ، كانت فيها الآنية مغطاة بكومة من الحجارة الصغيرة والحصى الملساء والثانية تعود إلى الفترة الممتدة بين منتصف القرن السابع وحتى القـرن الـرابـع ق . م . وتضم مرامـد وضعت تحت حجـارة لها أشكال مسلات وأعمـدة ونُصب ذات نمـاذج مختلفـة . أما المرحلة الأحدث فإنها تتميز بوجود نُصب مستـويـة ذات قمم مثلثيـة الشكل تدعم أحياناً بقواعد حجرية ـ ونحن نعرف أن هذه النُصب كانت تقام لمجد الإله «بعل حمّون» والربة «تعنيت» . ورغم هذا التطور في تقـديم العطـايـا ، حافـظ الـ«تـوفت» على وظيفته الأساسية التي كانت ، وبشكل من الأشكـال ، تتعـارض مع وظيفـة مدينـة المـدافن «Necropole» . ففي المقـابر كانت جثث الأموات ـ حتى ولو كان الميت رماداً ـ تدفن بشكل تقليدي تحت الأرض ، في حفـر بسيطـة أحيـانـاً أو في معـاظم صغيـرة ، وأحيـاناً أخرى في غرفٍ محفورة تحت الأرض أو في جدران الآبـار ، أو أيضـاً في سراديب يمكن الـوصـول إليهـا عبـر دهليز منحـدر ذي درجـات يفضي إلى صالـة جنـائـزيـة ثقبت جدرانهـا بفتحـات صغيرة . وبـالمقـابـل ، كانت المـرامـد التي تحتـوي على بقـايـا الضحـايا الذين طهرتهم نار «المـولـوك» تدل على المحـرقـة المقـدمـة للإله وترتبط به بشكل قطعي كما ترتبط به النفـوس الشـابـة . نقـرأ على النـذور عبارة «سمع صوته ، وباركه» ، بهذا الشكل كان المُضحي يعلن أنـه نال الـرضـا الإلهي المطلوب ، أو أنـه مايزال يلتمس هذا الرضا ، ولكي يبـالـغ في التمـاس العطف الإلهي فإنـه كان يستخـدم زمنـاً فعليـاً يدل على

الماضي كما لو أن القدر السعيد قد تم فيما مضى . وكذلك، فإن «التوفت»، المنفتح دوماً على الهواء الطلق والشمس الساطعة والذين يضم بين جنباته المرامد التي كانت بمثابة مذاخر موجودة تحت نُصبها، كان يذكر الناس دوماً بالأهمية الأبدية لـ«مولوك».

وكان يوجد الـ «توفت» في أماكن أخرى من الأمبراطورية القرطاجية، ففي افريقيا أيضاً، كان يوجد واحد في «هادروميت» [سوسة]، وآخر في «موتيي» بصقلية، أما في سردينيا فكان يوجد واحد في كل من مدن: «نورا»، «كاغلياري»، «سولسيس»، و«مونتي سيري»، كما أن أكبرها كان يوجد في «ثارّوس». وهذا يدل على أن ممارسة هذه الطقوس كانت شائعة في كل مكان لتمجيد الآلهة العليا، وأن تلك القرابين كانت دون شك عنصراً أساسياً ومميزاً للديانة البونية.

«تصورات مابعد الموت»

إذا كانت تلك القرابين تثبت إيمان البونيين «بالآلهة» أوحتى بإله فائق القدرة، فهل يمكننا تبعاً لذلك أن نعتقد أنهم كانوا يؤمنون بحياة أخرى «للروح» فيما بعد؟ ونجيب فوراً بأنه لم تكتشف حتى الآن في جميع أنحاء العالم القرطاجي أية أدلة مكتوبة تلمح إلى مثل هذه المواضيع. لذا علينا أن نحلل الميزة التخمينية للإعتبارات، التي يمكن أن تُطرح في هذا الخصوص.

لقد بدأ بعض المؤرخين بدراسة الأمتعة الجنائزية المكتشفة في مدن المقابر البونية مثل: «الجرار، القوارير ذوات العروتين، الأباريق وآنية أخرى كانت تُملأ بالأغذية والمشروبات، واستخلصوا منها أن القرطاجيين كانوا أكثر بساطة كي يؤمنوا بحياةٍ مادية للميت في قبره، أوعلى الأقل بنوعٍ من الوجود السُباتي يمكن أن يتواصل، ويحتاج الميت بسببه إلى أشياء وتُحفٍ وطلاسم كانت تشكل جزءاً من عالمه خلال حياته. ألا يمكن لتلك البساطة أن ترتكز على تصور أن أولئك الذين لجأوا إلى ذلك المتاع الجنائزي تمكنوا من اعطائه قيمة حقيقية نفعية و«وظيفية»؟

وقد تكون مفارقة تاريخية أن نفهم أن البونيين تمكنوا من بلوغ بعض

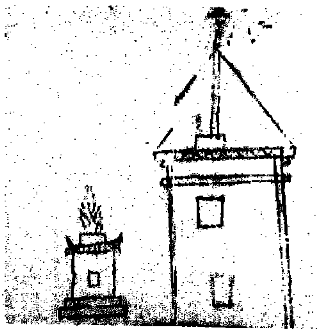
التصورات الأخروية التي كان تكونها البطيء ناتجاً عن اسهامات مختلف شعوب البحر المتوسط، وخصوصاً الساميين والمصريين والإغريق. ويبقى أن كل مايتعلق بالشعائر الجنائزية. كتوضع مدن المقابر ونماذج القبور والأمتعة، وطرق الدفن كاللحد أو حرق الأموات - يمكن أن تُعبر دون شك عن حقيقة عميقة تثبت وجود تصور «لاهوتي» ترسخ فيما مضى بقوة، وفهم هذه الشعائر على أنها تجسد بشكل مادي بسيط المفاهيم الميتافيزيقية «الفطرية» قد يسقط في التبسيطية التي تميز قسماً كبيراً من الفرضيات المخصصة «للعقليات البدائية».

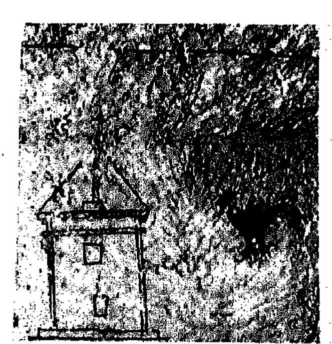
وفي الحقيقة، وبدلاً من طرح تأويل ماعلى مستوى الحقائق التي وصلتنا عبر التنقيبات الآثارية. وهذا قد يؤدي بنا بالضرورة إلى تفسير «مادي» - سيعتقد مؤرخو الأديان اليوم أنهم يرون في تلك الأمتعة الجنائزية وثيقة يجب تفسيرها. ومثل أية «كتابة» أخرى، فإن هذه الوثيقة لايمكن أن تكون ذات مغزى إلا ضمن القياس الذي يدرس فيه الباحث تطور الأشكال والتراكيب. ويمكننا على هذا الأساس أن نطرح عدة ملاحظات. في البداية، وبينما كانت الأمتعة الجنائزية كثيرة العدد ونفيسة أحياناً في القبور التي ترجع إلى القرنين السابع والسادس ق.م، فإنها تصبح، ودون أن نتمكن من ردٍّ الأسباب إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة، تُصبح قليلة ونادرة حتى تكاد أن تختفي في بعض الأماكن. واستناداً إلى هذه الندرة التي تبدو واضحة في مدن المدافن العائدة إلى القرن الخامس ق.م، نشير إلى انتشار طريقة حرق الأموات التي طبقت بشكل واسع. فبدلاً من تلك الأقبية الواسعة التي كان الميت يوضع فيها فوق مِقعدٍ صغير، وبقربه مؤونة وفيرة وسراج مشتعل، «فقد أصبح الميت (كما يتبين من مدن المدافن المتأخرة الموجودة في منطقة «الأوديون» في قرطاجة) يُحرق قبل أن يُسَلم إلى الأرض. وتوضع بقاياه في علبة حجرية أو قارورة أو توضع ببساطة في الغرفة الجنائزية التي لم تكن مخصصة لشخص واحد فقط، بل لمجمل أفراد العائلة، وتكون أحياناً مشتركة فيها الرماد والأواني بشكل عشوائي»[٩٢]. إن هذا التطور في ممارسة الشعائر يثبت وجود تطورٍ في المعتقدات، ولكن من المحتمل أيضاً أنه يُثبت عكس ذلك.

وفي الـواقـع ، وإن كان الإيمـان بحيـاة الـروح أو المبـدأ الأسـاسي قد «تمت الإشـارة إليـه في البـدايـة بأبهـة باهظـة وحول جسد الميت ذاته . وهذا يفسح مجالاً للغمـوض - فإن التأكيـد على هذه الحيـاة الآخـرة يعبـر عن نفسه بالإتجاه إلى عملية ترميز تتيجه عناصرها إلى أن تصبح بسيطة أكثر فأكثر، لتقتصر في النهاية على شكلها الأبسـط وهـو الأمتعة الجنائزية إضافة إلى الإتجاه إلى عملية حرق الأموات . وعملية التـرميـز تلك تتحـاشى أيـة محاولة لبذل الشعائر المادية للموتى ، وتعتبر هذه العناصر الروحية التي تقر بحياة ترتقي على حياة الجسد دليلاً على نضوج ملحوظٍ عند البونيين .

وهـذه الـرحلة بإتجـاه المـاوراء - وهي رحلة يرمز إليها أحياناً بالذخيرة الأيقونية التي تأخـذ شكـل فارس أو حيـوان بحري خرافي أو زورق تشرع الروح المحررة فيها كي تصـل إلى «المـدينـة» المحميـة جيداً ، مثل مدينة صور أو صيدا ، حيث يبدو أن البونيين كانوا لايزالون يحافظون على حنين غريب إلى تلك البلاد . وهذا مايظهر في بعض القبـور المكتشفـة في جبـل «مليزا»[٩٣] في «الرأس الطيب» ، إذ وجدت تزينات تشيـر إلى رحلة الـروح المقـدسـة باتجاه وطنها[٩٤] . فعلى الجدران الجانبية والجدار الداخلي تتالى ثلاث لوحات كما لو أنها تسرد قصة مصورة ، بحيث يمكننا أن نتصور على أساسها الصورة الرابعة الموجودة على الجدار الذي يحوي باب المدخل ، وتشير بشكل واقعي إلى يوم الدفن ، حينما يتخطى الجسد عتبة الغرفة الجنائزية . وفي هذا







«جبـل مليـزا» (الـرأس الطيب) : رسـوم جداريـة في القبـر رقم 8 ، على الجدران الموجودة يمين ويسار المدخل ، وعلى الجدار الداخلي (القرن الرابع والثالث ق . م)

التركيب ذي الأهمية البالغة، تُمثل الروح. التي تأخذ شكل ديك ـ وهي في طريقها نحو مدفن يوجد على مقربة منه معبد قرباني تُوقد فيه النار، وتدل هذه الصورة الأولى على المـوت الـذي ينتظـر الإنسان على الأرض. وبعد الموت، يتخطى الجسد هذه العتبـة كي يستقـر في ذلـك المـدفن ويبقى محبـوساً فيه، وهذا ماتمثله اللوحة الثانية المـوجـودة على يمين باب المـدخـل حيث لاتـرى فيها سوى المدن ومعبده. غير أن الروح ليست أسيرة القبر، فنحن نجدها في لوحة على الجدار الأوسط تواصل طريقها نحـو الملكـوت الـذي يُرمز إليه بصورة مدينة تحميها حصون ذات أبراج تشكل سوراً نصف دائـري. وهـذه اللوحـة تستعيـد ذكـريات الدول ـ المدن الفينيقية التي كانت محـاطـة بالأسـوار من الجهات البرية فقط في حين بقيت مفتوحة على البحر، وكانت بالنسبة للبونيين «ملكوتهم» الحقيقي. لقد كانت المدينة الإلهية تعني لأولئك البحارة آخر مرفأ يمكن أن يرسوا فيه.

الفصل السادس

الحروب والمواجهة مع روما

من الوفاق الودي إلى الحرب:

لقد مضى زمن طويل على تحالف القرطاجيين والأتروسكيين الذي أسفر عن توحيد قواهم في سبيل طرد المستوطنين الإغريق من كورسيكا. ففي القرن السادس ق.م - تعود هذه العملية في الواقع إلى عام 530 ق.م - عمل هذا التحالف بين الدولتين المتوسطتين ليس فقط على التدخل المسلح للحفاظ على مصالحهما المشتركة بل امتد أيضاً إلى مختلف المجالات. وهكذا، توسعت النشاطات التجارية حتى أن الإغريق كانوا يشيرون إلى مدينة «كايري Caere» باسم فينيقي هو «اجيلا Agylla»، وكان أحد مينائي المدينة الأتروسكية يسمى «بونيكوم Punicum» وكانت تُشغل هذه المرافيء في الغالب بالسفن القادمة من أم المدن الأفريقية، بل إن آلهة قرطاجة أيضاً كانت جزءاً من هذا التبادل، وأصبح هذا الحلف، بعد أن دُمِغ بهذه السمة المقدسة، أصبح ميثاقاً لاتنفصم عُراه. ففي أحد النقوش الثنائية اللغة نقرأ عن أحد الولاة الكبار الذين كان يمارس عبادة الربة «عشتار»، كما أن تكريس أحد المعابد كان ينتهي بهذا الدعاء: «فليكن عمر تمثال الربة في معبدها بعدد

النجـوم»(٩٥). غيـر أن ربـة كنعـان القـديمة تلك وحامية صيدون لم تكن قوية بما فيه الكفاية كي تجعل هذا الوفاق أبدياً.

كانت العـلاقـات محـدودة جداً وبالتأكيد، ولعدة قرون. ويشير أرسطو إلى أن القـرطـاجيين والأتـروسكيين كانـوا يظهـرون، حينمـا يوازون تحـالفهم العسكـري وعـلاقـاتهم التجـاريـة، وكأنهم دولة واحدة (السياسة 6, 9, III). ولكن، وبعد انهيار الأتـروسكيين، انحسـر نفـوذ كل منهم إلى شواطئه، واستمرت هذه الحركة التي كان ستفضي إلى القطيعـة والحـرب خلال قرنين ونصف من الـزمن. وخـلافـاً لمـا كان شائعـاً، لم تبـدأ العلاقات بين قرطاجة وروما بالحرب بل بالتحالف. إذ كان البلدان يشعـران، رغم الحـذر الـذي كان يبديه كل واحد تجاه الآخر، بالحاجة إلى الوسائل الـدبلومـاسيـة، وخصـوصـاً في أوقات الأزمات، لإعادة التأكيد على أنهم «حلفاء». وكـان ذلـك العمـل فرصـة ليطـالب كل بلدٍ شريكـه بامتيـازات أوسـع. وتعـود أولى الاتفـاقيـات بين قرطـاجـة ورومـا إلى عام 509 ق.م، أي حسب التسلسل التاريخي التقليدي، إلى نفس العام الذي قامت فيه روما بإصلاح نظامها الجمهوري.

طالب البـونيـون في هذه المعـاهـدة بتثبيت الامتيازات القديمة. ولكن روما، وبسبب الحـروب التي كانت تشنهـا ضد «السمنيين Samnites»(*)، وبشكـل خاص ضد مدينة «كابوا Capoue»، أخذت تمارس سياسة «إيطالية». فلقد شكلت عائلات النبـلاء الإقطـاعيين بالتحـالف مع أقـرانهم في العـاصمـة مركز قوة فعال في مجلس الشيـوخ الـرومـاني، وأخـذوا يوجهـون الدولة للإندفاع في مشاريع تخدم مصالحهم الخـاصـة. وكـانت هذه المصـالـح تشمل ليس فقط كل إيطاليا الجنوبية حتى مدينة «تارنتي Tarente»، بل صقلية أيضاً وجميع المناطق التي تسيطر عليها فرق المرتزقة

---

* Somnium، «سمنيـوم»: أقليم في إيطـاليـا القديمة، شرق «لاتيوم» وغرب البحر الأدرياتيكي، كانت تسكنه قبائل محاربة اتحدت ضد روما، ودارت بين الطرفين حروب طويلة امتدت أولاها من عام 343 وحتى 290 ق.م.

المترجم

الـذين كانـوا قد قدمـوا بحثـاً عن الثـروة . وكـان الإتجـاه نحو الجنوب يقود حتماً إلى الصـدام مع قرطـاجـة . لقد انطلق السهم وليس بمستطاع أحد أن يوقفه . ويوضح لنا المؤرخ الـرومـاني «تيت ـ ليف» هذا التشابك بقوله : «بعد الحرب غير الحاسمة مع السمنيين ، أصبـح لرومـا عدو آخـر هو مدينـة «بيـرّوس Pyrrhus » ، وبعد «بيرّوس» ، أصبحت «قرطاجة» [1, 29, VII] .

إننا نعلم أن القرطاجيين ، ومن خلال المعاهدات الثلاث التي تلت المعاهدة المـوقعـة عام 509 ق . م ، عززوا هيمنتهم على البحر المتوسط . إذ تحصنوا ، عبر بنود صارمـة ، بإحتيـاطـات دقيقـة كي لا يتعـرضـوا لأيـة مخاطر من جانب حليفٍ يدركون طمـوحـاتـه . غيـر أن الحقـد كان يتزايد بين الدولتين . ففي الإتفاق الموقع عام 306 ق . م ، تعهد الرومان بأن لا يتجاوزوا مضيق «مسينا» مقابل إعطائهم حرية الحركة في إيطـاليـا . لقـد كان على روما أن تتقدم خطوة خطوة . وكانت هذه المعاهدات تهدي ء انيـاً مخـاوف قرطـاجـة . غيـر أن التساؤ ل كان عما ستفعله روما بعد سيطرتها الكاملة على كل شبه الجزيرة الإيطالية .

فحين وطـدت رومـا سيطرتها على «ريجيون Rhegion » [ريجيو دي كالابري Reggio de Calabre] أخـذت ترنـو إلى محاصيل «صقلية» الوفيرة . لقد أصبحت قوة متوسطية تسيطر على ساحل يقارب طوله الألف كيلومتر ، ولم يعد بمقدورها أن تقبل احتكار حليفتها القديمة المطلق للحوض الغربي للمتوسط .

كانت المعاهدات الموقعة ماتزال سارية بالتأكيد . ولكن حتى بالنسبة لمفاهيم الرومان الذين كانوا حتى تلك الفترة حريصين على تقديم التبريرات الأخلاقية ، فإنه لم يعـد بمقـدورهم الحفـاظ على تلك التعهـدات حينما استنجد بهم «المامِيرتيون Mamertins » المرتزقة ـ الذين كانوا يسيطرون على منطقة تقع حول مضيق «مسينا» . لقـد كانت تلبيـة نداء «أبنـائهم» بمثـابـة واجب على الجمهـوريـة ، وفي هذا سبب أخـلاقي لأيـة حرب ، قد تتواصل مع حليفتها التقليدية . بهذا الشكل بدأت «الحرب البونية الأولى» .

حـرب صقليـة

ماتـزال الظـروف التي دعت الـرومـان إلى التدخل غامضة، وحسب مانقله لنا «بوليبوس»، فإن مجلس الشيوخ الروماني لم يتمكن من اعتماد قرارٍ حاسم في شأن الحـــرب ضد قرطـــاجـــة. غيـر أن القنصـل «آبيـوس كلاوديوس كاوديكس Appius Claudius CaudeX»، بادر من تلقاء نفسه ببدء العمليات الحربية مستفيداً من الدعم الشعبي له: «مــع أن الشعب كان لايـزال محتفظـاً بذكـريـات مريـرة عن الحـروب السـابقـة، وكـان بحاجة إلى سماع مختلف وجهات النظر، فقد أصغى إلى القناصل الـذين كانـوا يحبـذون الحـرب التي ستقـدم إلى كل واحد منهم حصته من الغنائم، إضافة لما ستجلبه من منفعة عامة». [11, 1, I].

وسبب ذلك كله عائدٌ إلى أن القنصل «آبيوس» كان يمثل العائلات النبيلة التي كانت قد شكلت فئة أرستقراطية أخذت توجه روما لمواجهة قرطاجة بذريعة أن وجود الأخيـرة في «صقليـة» كان يهـدد ايطـاليـا كلهـا بالتطويق. غير أن الميزات التجارية الخاصة كان لها دور أساسي في هذه العملية، فوجود البونيين في «مسينا» كان يهدد المواصلات البحرية بين مرافيء البحر الأيوني وخليج مسينا.

قام القنصـل «آبيـوس» بانزال مفرزة استطلاع من جيشه في «ريجيون» وسارع إلى إنشـــاء رأس جســـر على الطـرف الآخـر من المضيق. وبضغـط من المـرتـزقـة «المـاميـرتيين»، أخلى قائـد حاميـة «مسينـا» القرطاجي «حنّون» القلعة بسرعة: وقد حُوكم فيمـا بعـد وصُلب جزاء لإنسحـابـه. ثم قامت الـوحـدات العسكرية الرومانية باحتـلال المـدينـة، غيـر أنـه سرعـان ماطـوقتهم الفـرق البـونية والسيراكوزية. لكن التحـالف بين الخصمين القـديمين سرعـان ماتحطم، إذ أن «هيـرون السيـراكوزي Hieron de Syrocuse» خشي من فقـدان مدينتـه وبـالتـالي عرشه، فقرر الإنحياز إلى جانب الجيش الـرومـاني الـذي بدا له أقـوى من جيش قرطاجة. أما العاصمة البونية فقـد كرهت أن تخـوض حربـاً لم تُعـد نفسهـا لهـا، وكـانت ترغب بوضع حدٍ سريع

للعمليات. في حين أن الرومان امتلؤوا ثقة بالانتصارات الأولى التي حققوها إضافة إلى إنضمام حاكم «سيراكوز» إليهم، وهو حليف مندفعٌ كان يساهم جزء كبير من المؤن التي يُزدد بها الأربعون ألف جندي الذين أرسلهم مجلس الشيوخ إلى صقلية، وتأكدوا بأن هذا المشروع الذي يقومون به يحمل في جنباته آمالاً كبيرة.

أما القرطاجيون، وحينما رأوا المجرى الذي اتخذته الأحداث، فقد قرروا أن يلقوا بقواتهم في المعركة التي فُرضت عليهم. فشرعوا في تركيز قواهم في مدينة «آغريجنتي» وكانت مؤلفة من المرتزقة الليغوريين والغاليين إضافة إلى الإيبريين بشكل خاص إلا أن هذه المدينة الإغريقية المتحالفة مع قرطاجة تعرضت للحصار في عام 262 ق. م من قبل فيالق القنصل أثناء حشد البونيين لقواهم فيها. واستسلمت «آعزيجنتي» بعد حصار دام ستة أشهر، رغم المحاولات التي بذلها جيش بوني لشد إزر المحاصرين، بسبب تفشي المجاعة. بفضل خطة وضعها القائد القرطاجي «هانيبعل» - وهو غير «هانيبعل» الكبير - تمكنت حامية المدينة من الإنسحاب إلى مكان أمين. وحينما علم مجلس الشيوخ الروماني بهذا الانتصار قرر مواصلة الحرب التي تغيرت أهدافها من مساعدة «المامرتيين» «أخوتهم في الدم» إلى «تحرير» كل أرجاء صقلية.

ومن أجل هذا الهدف الطموح، كان على «روما» أن تمتلك أسطولاً حربياً. ويلاحظ «بوليبيوس» أنه وعلى الرغم من تفوق الرومان في الجيوش البرية «فإن القرطاجيين كانوا أسياد البحر بشكل لاينازعون فيه، لذا بقيت نتيجة الحرب متوازنة (I, 1, 21). ولكن الرومان تمكنوا خلال عام 261 ق. م، أن يُنزلوا إلى البحر مئة سفينة حربية خماسية المجاذيف وعشرين سفينة ثلاثية. ويروي لنا المؤرخ الإغريقي أن الرومان قاموا بأنفسهم ببناء سفنهم الخماسية على نموذج السفن البونية التي كانت قد جنحت إلى شواطئهم، وقاموا بتدريب طواقمها على استعمال المجاذيف، ومن الواضح أن المؤرخ الإغريقي - الذي كان يتعاطف مع آمال الجمهورية الرومانية - يتناسى أنه كان لروما العديد من الحلفاء البحريين الذين تمتوا بخبرة واسعة في بناء السفن وفن الملاحة ووضعوا خبراتهم تلك تحت تصرف الرومان.

وحالما خرجت أول عمارة بحرية مؤلفة من سبع عشرة سفينة بقيادة القنصل

«كورنيليوس سيبيون Cornelius seipion » حوصرت وأسرت من قبل أسطول بوني في مرفأ «ليبارا Lipara » ، ووجد القنصل نفسه ، وهو ينحدر من عائلة نبيلة سيكون لها شأن في الحرب البونية الثانية ـ أسيراً قبل أن تبدأ المعركة . وبسبب هذه النتيجة المُرة ، اتجه الرومان إلى تجهيز اسطرل حربي ذي تقنية عالية أدت إلى قلب كل مفاهيم المعارك البحرية .

لقد كانت تنقص طواقم السفن الرومانية الخبرة الكافية في القيادة إضافة إلى أن سفنهم كانت ثقيلة وغير طيعة ، لذا قرر الرومان أن يزودوا سفنهم بآلة عُرِفت باسم «كوربو» وهي طبقة عليا في السفينة محاطة بحواجز ـ بطول حوالي عشرة أمتار وعرض متر ـ زودت في طرفها بكتلة من الرصاص على شكل كلّاب أو منقار طير جارح ، ثبتت في مقدمة السفينة وربطت إلى الصاري بقلس بحيث يسمح لها بالإنتصاب أو الدوران حول محورٍ. وقد خصصت هذه الطبقة العليا لعمليات الإنقضاض على السفينة المعادية التي تقترب منها ، بحيث يتم إلقاء خطاف السفينة الرومانية على سطح السفينة المعادية تلك مما يجعلها معلقة تماماً به «وحينما تتحاذى السفينتان جنباً إلى جنب ينطلق الرومان إلى سطح السفينة الثانية ، وإذا تعارضت السفينتان بشكل رأسي فإنهم (أي الرومان) يشتبكون بشكل ثنائي فوق الطبقة العليا ذاتها بهدف اقتحام سفينة الخصم والجنود الذين يبرزون في المقدمة يقومون بحماية رأس الرتل بتروسهم ، بينما يحمي الآخرون المجنبات بأن يسندوا أطراف تروسهم على الحواجز» . [بوليبيوس» ,I ,1 ,22] .

وبفضل هذه الخطة الجديدة ، تمكن الرومان من أبعاد تكتيك «النكز» الذي كان البونيون يستخدمونه ، وفرضوا تكتيكهم القائم على مبدأ «الصدم» الذي سمح لهم باقتحام السفن والإلتحام في معارك مواجهة كانوا متفوقين فيها . ولهذا كان قادة الأسطول يدربون بحارتهم مثلما كان الضباط يدربون فيالقهم . وإضافة إلى طاقمها المؤلف من مئتين وخمسين مجذفاً(*) ، كانت كل سفينة خماسية رومانية تحمل

(*) لما كانت السفن الكبيرة خماسية المجاذيف ، فقد يبدو عدد المئتين وخمسين مجذفاً مستغرباً ←

أربعين جنـديـاً بحـريـاً ووحدات عسكرية من ثمانين جندياً يختارون من بين القوات البـريـة خلال المعـركـة. وفي ربيـع عام 260 ق. م، تمكن الرومان بسفنهم المجهة بالكـوربـو (الغربـان) مـن احـراز النصـر في أول معـركة بحرية في تاريخهم، بقيادة «دويليوس Duilius»، وقد حدثت تلك المعركة مقابل مدينة «ميلاي Mylae» [ميلازو Milazzo]، وفقـد القـرطـاجيـون بنتيجتها خمساً وأربعين سفينة. وأصبحت منذ تلك اللحظـة فرص الحـرب غيـر متكافئة بين هذين الخصمين، ورغم ذلك، لم يؤ د هذا الإنتصـار إلى نتيجـة حاسمـة، فخـلال أربـع سنوات، كانت الحرب تدور في أرجاء صقلية، وكانت حظوظ الفريقين في الإخفاق أو النصر تتجه إلى التوازن.

وفي غضون ذلك، عزم الرومان على تكرار تجربة «آغاتوكليس» بنقل الحرب إلى أفريقيا، فشرعوا في تنفيذ برنامج ضخم لتوسيع الأسطول الحربي. وفي عام 256 ق. م، اتجـه الأسطـول الروماني الضخم بقيادة القنصلين «لوسيوس مانليوس فولسو Lucius Manlius Vulso» و«مـاركـوس آتيليـوس ريغولوس Marcus Atilius Regulus». وهـذا الأخيـر يمثل الفئة الكامبانية القوية ـ وكان هذا الأسطول يضم ثلاثمائة وثلاثين سفينـة. وفي مقـابـل هذه الأرمـادا التي كانت موزعـة على أربـع عمـارات، وجـه القـرطـاجيون أسطولاً ضخماً يضم ثلاثمائة وخمسين سفينة يحمل على متنه أكثر من مئـة وخمسين ألف رجـل (بينمـا كان الأسطـول الـروماني يحمل مئة وأربعين ألفاً من جنـود وبحـارة)، إن عدد السفن وأهميـة القـوى المشـاركة في هذه المعركة البحرية يجعلهـا أكبـر معـركـة في تاريخ العصور القديمة، ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون هذه الأرقام التي أوردها «بوليبيوس» مبالغ فيها.

حدثت المـواجهـة بين الأسطـولين في مياه رأس «إكنوموس Eknomos» على السـاحـل الجنـوبي لصقليـة. وكـانت مهمـة قائـدي الاسطول القرطاجي «هاملقار»

← عنـد القـاريء، وعليـه أعتقـد أن هذا العدد الكبير كان بقصد الإحتياط، أو استخدم في دفعات تتناوب بقصد الإستراحة، أو في حالة موت بعض المجذفين.

المحقق

و«حنّـون» تحطيم موكب الجيش الغـازي المعـادي. وبينما كانت المعركة توحي في بدايتهـا برجحـان كفـة البـونيين، أعـاد القنصـلان الـرومـانيـان ترتيب الأوضـاع في عمـارتيهمـا اللتين هوجمتا بشكل منفصل، فاضطر القرطاجيون آخر الأمر للإنسحاب بسبب خشيتهم من غُربـان «كـوربـو» السفن المعـادي. «وبالمحصلة، كانت نتيجة المعـركـة لصـالـح الـرومـان الـذين فقـدوا أربعـاً وعشـرين سفينـة، في حين خسـر القـرطـاجيـون أكثر من ثلاثين. كما أنه لم تقع أية سفينة رومانية مع طاقمها في أيدي البـونيين، بينمـا استسلمت أربع وستون سفينة قرطاجية» [«بوليبيوس» 28,1,1]. لقد أصبحت الطريق إلى أفريقيا مفتوحة، فاتجه القنصلان قدماً باتجاه الرأس الطيب.

اجتاح الرومان في البداية «كلوبيا Clupea» [قليبية] - التي كان «آغاثوكليس» قد نزل فيها فيمـا مضى - وأنشأوا فيهـا معسكـراً لمـراقبة المنطقة. ثم شرعت الفرق الـرومـانيـة بنهب وسلب المـدن والمـزارع والغنية في الأرياف المحيطة بالمعسكر. واستغل النوميديون الموقف فشرعوا بالقيام بعمليات تخريب حقيقية، في حين بدأت المجـاعـة تضرب العاصمة البونية التي كان آلاف اللاجئين القرويين قد نزحوا إليها. في أثناء ذلك، اقتضى على القنصل «مانيلوس» أن يعود إلى إيطاليا ويعيد معه القسم الأكبـر من الاسطـول، تاركـاً زميله في أفـريقيا مع أربعين سفينة وخمسة عشر ألفاً من المشاة وخمسمائة فارس.

وبـدءاً من عام 255 ق. م، انطلق القنصـل «ريغـولـوس» إلى الريف، واجتاح عدة قرى حتى وصـل إلى «تـونس» نفسها حيث أقام معسكراً أراد أن يهدد به قرطاجة مبـاشـرة. بيد أن هذا القنصل، الذي لم يكن قائداً لامعاً، لم يبدِ أي ذكاء سياسي، فلقد أهمل منذ البداية الإهتمام بتذمر الأفارقة من سلوك الحكام البونيين - وإلا لكان حقق فائدة من دعم السكان الأصليين له. إضافة إلى أنه كان يتوقع أن يقبل خصمه جميـع شروطــه فقــد طرح عدة شروط متشــددة لتـوقيـع معـاهـدة سلام رفضهـا القـرطـاجيـون. رغم أن هذا سيؤدي فيمـا بعد إلى حدوث كارثة للرومان. ففي تلك اللحظـات الحـاسمـة، وصـل قائـد المـرتـزقـة الـلاكيديمونيين، واسمه «اكزانثيب Xanthippe» إلى قرطـاجـة مع فرقـه المكـونـة من المـرتـزقة الإغريق. فأعاد الجيش

القـرطـاجي تنظيم صفـوفـه بفضـل النصائح القيمة التي أسداها لهـم، وقرر قادة هذا الجيش أن يتبعـوا خطة جديدة في الحرب . لذا بادر القرطاجيون خلال فصل الصيف إلى شن الحرب فتم سحق الفرق الرومانية وأسر القنصل «ريغولوس»، وتمكن ألفان فقط من جنوده من الوصول إلى «كلوبيا».

وازداد حجم الكـارثـة في السنة التالية، حينما أرسل مجلس الشيوخ الروماني اسطـولاً بحـريـاً يقوده القنصلان ويتألف كما يقول «بوليبيوس» من ثلاثمائة وخمسين سفينـة بهـدف نقـل فلول الجيش الـرومـاني، فاصطـدم هذا الاسطـول بقـوة بحرية قرطاجية مؤلفة من مئتي سفينة وتمكن من إلحاق الهزيمة بهذا الاسطول البوني وثم أسر مئة وأربع عشرة سفينة منه . مع ذلك، ورغم هذا الانتصار، وحين بلغ القنصلان ساحـل «كـامارينا Camarina» [على الساحل الجنوبي لصقلية] ـ وهي منطقة خطرة كان المرشدون البحريون قد حذروهما منها بسبب الظروف المناخية السيئة ـ تعرض الاسطول الروماني لعاصفة شديدة ابتلعته كله تقريباً، ولم تتمكن سوى ثمانون سفينة من الإفلات منه . ويضيف «بوليبيوس» . «لم يحك لنا التاريخ مثيلاً لهذه الكارثة التي قضت بضربة واحدة على اسطول كامل» [37, 1, I] .

إن الثلاث عشرة سنة التي تلت، منذ فشل الحملة على أفريقيا وحتى عام 242 ق . م، كانت بالنسبـة لرومـا أطـول وأفظع سنوات الصراع الذي استمر طويلاً . كانت تلك السنـوات مليئـة بالهـزائم وخيبـات الأمـل على الـرغم من الانتصارات البحرية الأولى التي سوغت كل آمال الرومان . إذ أن القناصل الرومان وضباطهم البحريين لم تكن لديهم أية خبرة حقيقية في شؤون المعارك البحرية، وكانوا يجهلون فن الملاحة معتقدين أن بمقدورهم فرض إرادتهم في هذا المجال، دون أن يقيموا وزناً لنصائح أو انتقادات طواقمهم المختصين، فتراكمت الأخطار وأدت إلى تلك النتيجة المخزية . ومثالنا كانت ورش بناء السفن قد بنت مئتين وعشرين سفينة ـ باتجاه الساحل الشرقي للأراضي البـونيـة في أفـريقيا لتقـوم بغارات نهب، وكانت نتيجة هذه العملية تقترب إلى حدّ الكارثة إذ جنحت بعض السفن في المياه الضحلة لخليج «سيرته» الصغير، قرب جزيرة «لوتوفاج Lotophages» [جربة]، ثم فقد الاسطول أكثر من مئة وخمسين

سفينـة نتيجـة العـواصف . وتخلى مجلس الشيـوخ الروماني إثر تلك العملية عن أية محاولة لإنشاء اسطول جديد .

نتيجـة لتلك الكـوارث التي حلت بالجيـوش والأسـاطيـل الـرومـانيـة ، استرد القـرطـاجيون معنوياتهم وتضاعف تفاؤ لهم بالمستقبل «فمنذ أن انسحب الرومان من البحر، تمكن القرطاجيون من بسط نفوذهم عليه دون منازع ، وكانوا إضافة إلى ذلك يعلقون آمالاً كبيرة على جيوشهم البرية ، ولم يكن تفاؤ لهم هذا دون مبرر» [بوليبيوس 39, 1, I] .

وبمـا أن رومـا تخلت عن كل أمـلٍ بضـرب قرطاجة في عقر دارها ، قررت أن تطـردهـا من «صقلية» بأن تدمر قواعدها هناك واحدة تلو الأخرى ، وقد كان تنفيذ هذا المشروع سهلاً في بداية الأمر بسبب الظروف المحلية التي كانت تسود الجزيرة . إذ أن قرطاجة لـم تنمكن بسبب تهديد فيالق «ريغولوس» لها في أفريقيا ، لم تتمكن من تعزيز مواقعها في الجزيرة ، كما لم يكن لديها الوقت الكافي لإعدادها للدفاع . وفي عام 254ق . م ، سقطت «بـانـورمـوس» [بـالـرم] ، المدينة الرئيسية في صقلية ، بعد حصـار بري وبحـري بأيـدي الجنـود الرومان . كما قامت مدن أخرى مثل «سولونتي Solunte » بطرد حامياتها البونية الضعيفة والتحقت بروما (ديودور 14, XXIII) . لذا قرر القـرطـاجيون أن يجمعوا قواتهم في معقل محصن يقع في الجزء الغربي من الجزيرة بدلاً من بعثـرتهـا في أماكن يصعب الدفاع عنها ، فقد كانت توجد بأيديهم هناك عدة قلاعٍ قوية مثل «ليليبي Lilybee » [مرسالو] ، و«دريبان Drepan » [ترایاني] .

أدرك القـادة الـرومان أن مثل هذه المواقع ستكون عصية عليهم إن لـم يتمكنوا من حصـارهـا من جهـة البحـر أيضـاً ، بحيث يمنعـون عنهـا أية مساعدة ، لتحل بها المجاعة . لذا قرر مجلس الشيوخ الروماني عام 250 ق . م ، أن يجهز أسطولاً جديداً لتطبيق هذه الخطـة : وخـلال هذا الـوقت قام جيش بوني يقـوده «هاسدروبعل» بشن هجـوم لاستـرجـاع «بـانـورموس» ، غير أنه أخفق رغم استخدامه الفِيلة في عملياته . وفيما بعد ، حوكم هذا القائد في قرطاجة أمام محكمة «المئة وأربعة» وصُلب .

لقـد وجـدت الفـرق الـرومانية ، بفضل نجاحها في الدفاع عن «بانورموس» ،

سنداً كبيراً لها في العاصمة روما. ففي عام 249 ق.م، قام القنصل «ب. كلاوديوس بلوشر P. Claudius Plucher» بفرض حصار على مدينة «ليليبي» على رأس اسطول بحري. وكانت حامية المدينة تضم حوالي عشرة آلاف مرتزق بقيادة «هيملكون». إلا أن بعض فرقها التي يقودها بعض الضباط الخونة قررت الإنضمام إلى الجانب الروماني. لكن المهاجمين، وبسبب عدم امتلاكهم الخبرة الكافية، فشلوا في منع جيش قرطاجي من تعزيز دفاعات المدينة، واستمر الوضع على هذه الحالة عدة أشهر، فقرر القنصل الروماني أن يهاجم الاسطول البوني الذي يتخذ من «دريبان» قاعدة له والذي كان يتلقى التعزيزات من قرطاجة بشكل متواصل. لكن هذه العملية فشلت فشلاً ذريعاً نتيجة جهل الرومان بطبيعة المكان، إذ كان للمرفأ مدخلان، فضَلّ الاسطول الروماني في شبكة مفتوحة كانت مخصصة لعرقلته، وأسر البونيون ثلاثاً وتسعين سفينة مع بحارتها، أما «ريغولوس» نفسه فقد تمكن من الفرار ومعه ثلاثون سفينة. وحاول القنصل الآخر «ل. جونيوس بولوّس L. Junius Pullus» على رأس أسطول آخر أن يصل إلى «ليليبي» حاملاً تجهيزات للفرق التي تحاصر المدينة، لكن القائد القرطاجي «كارتالون» أجبره على التراجع، وتعرض بعد ذلك إلى عاصفة أدت إلى غرق الاسطول الروماني تماماً أمام شواطيء «كامارينا»، وبهذا تمكن القرطاجيون من استعادة سيادتهم على البحر. في حين ساد الذعر أرجاء العاصمة الرومانية، فوجدت العائلات «المحبة للسلام» الفرصة مناسبة لاستعادة سيطرتها على مجلس الشيوخ فشكلت ثلاث حكومات قناصل متعاقبة. غير أن الشعب الروماني، وخصوصاً الفئات التي كانت لاتزال راغبة في السيطرة على صقلية، لم تجد مبرراً لتلك الهزائم. أما قرطاجة، وكعادتها، فلم تحاول استثمار انتصاراتها وتعزيز قواعدها من أجل طرد غريمتها من الجزيرة، بحيث كان بالإمكان التساؤل هل لاتزال الأقلية الحاكمة القرطاجية تولي عنايتها الكاملة لجزيرة صقلية؟

لو أن الحكومة القرطاجية، بعد هزيمة «دريبان»، كانت مقتنعة بالأهمية الكبرى للجزيرة مثلما كان الرومان يرون، لاتخذت الحرب هناك مساراً آخر. وفي عام 247 ق.م، تولى قائد ذو مكانة خاصة، هو «هاملقار برقا»، قيادة العمليات

القـرطـاجيـة في صقليـة . وأطلق «بوليبيوس» حكمه على نتائج الحرب البونية الأولى قائلاً : «يُعد «هاملقار برقا» أفضل القادة من حيث ذكاؤه وجرأته ، وهو والد «هانيبعل» الـــذي سوف يواصـــل الحـــرب ضد الـــرومـان» [40, 1, I] . ولكن ماذا كان بمقـدور «هـــاملقـار» ، رغم كل تلك المـواهب ، أن يفعـل إذا كانت قرطـاجـة المنشغلة عنـه بحروبها في أفريقيا لاتمده إلا بالنذر اليسير من الوسائل الضرورية لإعطاء العمليات الحربية دفعاً قوياً وحاسماً؟ فلقد مرت حتى ذلك الوقت ثماني عشرة سنة من الحرب .

قام «هـاملقار» بتوجيه غزوات تدميرية على الشواطيء الجنوبية الإيطالية حتى مدينـة «كـوميس Cumes » ، وكـان ينـاوش دون توقف الفـرق الـرومـانية في صقلية ، فهـاجم جبـل «هيـريكتي Heiricte » [جبل «بيللغرينو M. Pellegrino] ، واستعاد بعد معـارك ضاريـة مدينـة «إيركس Eryx » [إيريس Erice] ، المبنية على منحدرات جبل يحمـل نفس الاسم ، دون أن يتمكن من تحطيم القـوة الـرومـانية المعسكرة في قمته حيث كان ينتصب معبـد «أفـروديت الإيـريسيـة Aphrouite Erycine » الشهير . وبهذا الشكل تمكن «هاملقار» من إنشاء نقاط استناد قوية في قلب المناطق المعادية بهدف حمـايـة قاعدة «دريبان» الكبيرة والتي كانت لاتزال محاصرة مثلها مثل «ليليبي» . لقد بذل القائد القرطاجي جهوداً ضخمة خلال السنوات الست التي قضاها في صقلية . فعلى الـرغم من أنـه لم يزود إلا بأسطـول هزيـل ضم بضـع عشـرات من السفن ، إذ كانت قرطـاجـة ولأسبـاب اقتصـاديـة قد نزعت السـلاح من قسم كبيـر من اسطـولها البحـري ، لم يتـوقف القـائـد البـرقي عن ضرب الفـرق الرومانية الموجودة أمامه في جميع أرجاء الجزيرة .

لقـد امتـدت هذه الحـرب إلى أرجـاء واسعة ، ولم يكن بالإمكان الوصول إلى نهاية لها بسهولة . «لقد ضاق الرومان والقرطاجيون لى السواء بالمجهود الهائل الذي كان عليهم أن يلقوه في هذه الحرب المتواصلة ، حتى أحس الجانبان بالإنهيار يدب في أوصالها [. . .] . لقد كان الدافع الذي يحرك الدولتين في هذه الحرب هو الرغبة بالنصر . . » [بوليبيوس 59, 58, 1, i] . وبالتأكيد ، فإن تلك الرغبة كان يجب أن تكون

واضحة بالقياس للفوائد العظيمة التي يمكن أن يجنيها المنتصر. وعلى هذا فإن «روما» كانت ترى في صقلية هدفاً شديد الإغراء.

وعلى الرغم ن الأخطاء الفادحة المكلفة للرومان والتي ارتكبها بعض الممثلين البارزين للمجموعات الداعية إلى الحرب وخصوصاً عائلة «كلاودي Claudu» ، إذ أن القنصل «آبيوس كلاوديوس كاوديكس Appius Claudius Caudex» أبدى تهاوناً في حصاره لـ«مسينا» ، والقنصل الآخر «ب . كلاوديوس بلوشر» أدخل اسطوله بلا حذر في مرفأ «دريبان» حيث تعرض للدمار، على الرغم من ذلك فقد كان المعسكر الموالي للحرب مايزال قوياً . بحيث تمكن من فرض آرائه . فقرر مجلس الشيوخ الروماني الشروع في بناء وتجهيز مئتي سفينة خماسية ، ولجأ ، لتسديد نفقاتها ، إلى الإقتراض الحثيث من بعض العائلات الثرية . وفي بداية صيف عام 242 ق . م ، أبحر القنصل «ك . لوتاتيوس كاتولوس C. Lutatius Catulus» على رأس هذا الاسطول إلى مياه مدينة «دريبان» ، فأسرعت قرطاجة ، وقد فوجئت بالمبادرة الرومانية الجديدة ، إلى إعادة تسليح بعض سفنها ، التي كانت محملة بالقمح ويقودها بحارة مبتدئون ، وأقلعت هذه السفن في آذار عام 241 ق . م ، بهدف الوصول إلى قواعد «هاملقار» . غير أن القافلة البونية الثقيلة هوجمت من قبل سفن رومانية فارغة من أية حمولات يقودها بحارة مدربون ، فتم لها احراز النصر ، إذ فقد القرطاجيون مئة وعشرين سفينة ، أسر منها سبعون مع عشرة آلاف رجل .

غير أن حاميات «ليليبي» و«دريبان» و«إريكس» ، التي كانت لاتزال بكامل قوتها وظلت محافظة على معنويات عالية ، قررت مواصلة المقاومة لكن «هاملقار»



نقود فضية بونية تمثل رأس «تعنيت»
(حوالي القرن الرابع ق . م)

تلقى أوامر من قرطاجة بالدخول في مفاوضات هدنة. فسارع القنصل الروماني إلى الترحيب بهذا العرض ووضع شروطه الهادفة إلى إقامة «علاقات صداقة» بين الطرفين. وبعد ورود شروط جديدة من لجنة تابعة لمجلس الشيوخ الروماني شددت من شروط الهدنة، وقع «هاملقار» على معاهدة السلام ومضمونها، أن يخلي القرطاجيون صقلية و«جميع الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا» [جزر ليباري Lipari]، وأن يعيدوا إلى روما، دون مقابل، جميع أسراها، وأن لايحاربوا السيراكوزيين وحلفاءهم، وأن يدفعوا، ولمدة عشر سنوات، غرامة حربية قدرها ثلاثة آلاف ومائتي تالان. وأضيفت أيضاً شروط أخرى ثانوية فيما يخص حلفاء الجانبين ومسألة منع تجنيد المرتزقة.

إن السؤ ال الذي يواجهنا هو: لمَ قررت قرطاجة فجأة الإنسحاب من صقلية، رغم أن هزيمتها البحرية لم تكن تمثل خطورة على سلامة قواعدها البحرية في صقلية حيث كانت قد بذلت فيها نفقات هائلة بشرية ومادية؟ إضافة إلى أن الجانب الروماني هو الذي تعرض، في الحقيقة، للهزائم المتكررة في تلك الحرب، فقد أُسر اثنان من قناصله أثناء المعارك، وهما «كورنيليوس سيبيون» الذي أُسر في «ليباري»، و«م. آتيليوس ريغولوس» في أفريقيا. ويشير «بوليبيوس» أثناء حديثه عن الخسائر البحرية قائلاً: «لقد خسر الرومان خلال مراحل الحرب قرابة سبعمائة سفينة بما فيها تلك التي غرقت بفعل العواصف، في حين خسر القرطاجيون حوالي خمسمئة» [63, 1, I] .

نقود فضية بونية تمثل حصاناً ونخلة
(حوالي القرن الرابع ق.م)

ولمعرفة السبب الحقيقي الأساسي للجلاء عن صقلية، علينا أن نبحث خارج الأحداث المفاجئة التي تخللت الصراع المسلح بين الدولتين. وعلينا أن لاننسى، بالتأكيد، أن العاصمة البونية مع أراضيها الأفريقية هي التي كانت تتحمل العبء الحربي كله، إضافة إلى أنها كانت تعاني من هذه الحرب أكثر من غريمتها روما التي تلقت المساعدة من سيراكوز، التي استفادت من دعم حلفائها الإيطاليين في عمليات تجييش الجيوش، دون أن ننسى أن ورشات «نابولي» وجميع مدن اليونان الكبرى [«إليا Elea»، «لوكرس Locres»، «تارنتي Tarente»] قد وضعت تحت تصرفها، ولكن رغم ذلك كله لم يكن بالإمكان تفسير انهيار قرطاجة.

لقد دخلت قرطاجة الحرب للدفاع عن بعض القواعد التي كانت جزءاً من تنظيم دفاعي معقد كان يؤمن لها السيطرة على البحر المتوسط الغربي. ومع ذلك، لم يكن القرطاجيون قد أدركوا مدى الدور الذي يمكن لصقلية أن تلعبه ضمن هذه المنظومة الدفاعية. ألم يبقى القرطاجيون، بعد الهزيمة الساحقة التي الحقوها بالإغريق عام 480 ق. م في «هيمير Himere» منزوين في أقليم ضيق في الجزيرة؟ ونضيف أيضاً، أن المعاهدات التي كانت وقعتها مع روما الجمهورية لم تشترط مطلقاً وضع قيود أو مراقبة العمليات التجارية مع صقلية القرطاجية، في حين كانت التجارة ممنوعة تماماً بين روما من جهة وأفريقيا وسردينيا من جهة أخرى. وبالنتيجة، كان يبدو أن الحكومة القرطاجية لم ترّ في الجلاء عن صقلية بداية لتفكك شبكتها التجارية، كما أن جماعة نافذة من الأقلية الحاكمة هناك عملت، والحرب لاتزال مستعرة، على تحبيذ فكرة التراجع تلك. وفي النهاية رجحت وجهة النظر التي تفصل، بحساب النتائج، فقدان صقلية.

رأينا أن النوميديين، الذين استغلوا الحملة الرومانية بقيادة «ريغولوس»، قد ثاروا ضد قرطاجة. ففي محاولة منها لمواجهة الأعباء المالية المترتبة على الحرب، حاولت الحكومة تخفيفها بإخضاع الشعوب الأفريقية لمختلف أنواع الإضطهاد والاستغلال وكان من بين حكام المقاطعات واحد اسمه «حنّون الكبير» (وهو غير «حنون» الذي كان قد سبقه بقرن من الزمن) اشتهر بقسوته في استنزاف رعاياه، وكان

قد خلف «هـاملقـار» (الـذي أرسـل إلى صقلية في عام 247ق،م)، وكلفته الحكومة بإعـادة الأمن إلى الأقـاليم التي سادتهـا الإضطـرابـات. ولم يوافق على قمع القبائل المتمـردة التي كانت تتكفـل بنفقـات الفـرق العسكـرية الموجودة في أراضيها وذلك للتخفيف من النفقـات الحكـوميـة، فبـاشـر العمليـات العسكـرية لتوسيع الأراضي البـونيـة. ويـذكـر لنـا «ديـودور 2,10,XXIV» و«بـوليبيـوس 73,2,1» احتـلال مدينـة «هيكـاتـومبيلوس Hecatompylos» الأفـريقيـة الكبيـرة «تيبيسا Tebessa» الواقعة في الجنـوب الشـرقي من «الجزائر» - وأدى هذا الانتصار إلى تعيين «حنّون الكبير»، فيما بعد، قائداً للجيوش القرطاجية في ليبيا كلها. ونشير أيضاً أن قرطاجة في الوقت الذي كانت توقع فيه معاهدة السلام مع روما. كانت تباشر احتلالها لمدينة «سيكا Sicca» [الكف Kef]، التي تجمـع فيهـا المـرتزقة المنسحبون من صقلية. لقد كانت سياسة التوسع هذه في الأراضي الليبية تُرضي ولاشك أولئك الذين كانوا، ومنذ وقتٍ طويل، يرغبـون بإقتطـاع المـزارع والمناطق الريفية الغنية التي وجدوا فيها معيناً لاينضب من الثروات التي ربما كانت في نظرهم تعوض فقدان صقلية.

كان يوجد ضمن العائلات القرطاجية الرئيسية الحاكمة مفهومان «امبرياليان»: الأول، ويمكن أن نطلق عليه «المفهوم الواقعي»، كان يرى في أفريقيا مجال توسع رحب، والآخـر، وكـان لايـزال متمسكـاً بحلم المـاضي العظيم الذي سيصبح حُلم «البـرقيين»، كان يرنـو إلى البحـر المتـوسط. لقد كانت المكاسب مركبة بشكل قوي وكان من الصعب إيقاف الخيار السياسي. لقد كانت المجموعة المؤثرة التي يقودها «حنون الكبير» مستعدة لإقامة علاقات محدودة مع روما، ووجدت أصداء لطموحاتها في أوسـاط طبقـة الأشـراف الرومان المحافظين من أسرة «فابيوس»، فأجريت بعض الاتصـالات الغنيـة بالوعود لتعزيز المكاسب المتبادلة، بيد أن معاهدة عام 241ق.م لم تحمل لقرطاجة السلام الموعود، إذ اندلعت الحرب في أفريقيا هذه المرة.

حرب المرتزقة و«الحرب الأفريقية»

كانت السياسة التي نادى بها «حنّون الكبير»، وأنصاره تطالب بوضع حدٍ للصراع الذي كان يفرض جهداً عالياً كبيراً أتى على ثروة الدولة القرطاجية. وكانت قرطاجة قد حاولت اقتراض ألفي تالان من «بطليموس الثاني الفيلادلفي Ptolemee II Philadelphe »، غيرأن ملك مصر رفض مدها بالمال المطلوب متذرعاً بأنه لايريد أن يقف في صف أي مّن الفريقين المتحاربين. كما أن معاهدة السلام مع روما، من جهة أخرى، كانت تفرض على قرطاجة أن تدفع فوراً ألف تالان من مجمل الغرامة الحربية المفروضة. وبسبب هذه الظروف قررت الحكومة القرطاجية أن تؤجل دفع الرواتب والمكافآت المستحقة للمرتزقة. وكانت تلك خطيئة ارتكبتها الأقلية الحاكمة إذ استعرت حربٌ ضروس طوال ثلاث سنوات وأربعة أشهر (من عام 241 وحتى 238 ق.م) الحقت الدمار بالأراضي القرطاجية واوشكت أن تطيح بالدولة برمتها [بوليبيوس I ,88, 2].

عاد «هاملقار» إلى أفريقيا، بعد أن تلقى أمراً بالدخول في مفاوضات مع القنصل «كاتولوس» وتوقيع معاهدة مع «روما» رغم أنه لم يكن يرغب أبداً في ضمان السياسة التي كان مُلاّك الأراضي البونيون يفرضونها. وتوقف هناك، في قرطاجة، عن ممارسة أي نشاطٍ ساعياً في الوقت ذاته إلى تقوية علاقاته مع المجموعات المناوئة لـ«حنّون الكبير». وفي صقلية، تحمل «جيسكون» قائد حامة «ليليبي» مهمة تسريح الجيوش، إذ كان عليه، حسب نصوص المعاهدة، أن يخلي بأقصى سرعة القواعد التي مازالت في أيدي القرطاجيين والتي كان يربط فيها عشرون ألف جندي كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن تسدد لهم الحكومة رواتبهم المتخلفة. ووجد كثيرٌ منهم أنفسهم، وغالبيتهم من المرتزقة، أمام مستقبلٍ غير مضمون، ولم تكن عملية التسريح مُهدئة للنفوس. وكان من بينهم المرتزقة الإيبريون والغاليون وعدد من الليغوريين والبالياريين، إضافة إلى المرتزقة «النصف إغريقيين» ـ كما يسميهم

«بـوليبيـوس» مصـدرنـا الأسـاسي في تأريخ هذه الأحداث (67,2,1) . غير ان القسم الأعظم منهم كان من الليبيين الخاضعين لقرطاجة، وقسمٌ منهم لايُعد من المرتزقة إذ أنهم كانوا قد انخرطوا في الجيش أو جُنِّدوا بالقرعة .

رتب القـائـد القـرطـاجي «جيسكون» الأوضاع كي تتم عملية نقل القوات إلى أفريقيا . بحيث تتمكن الحكومة من تدبير أمورها وتنظيم دفع مستحقات القوات عن وصولها، وتتمكن من ترحيل المتطوعين الأجانب إلى ديارهم . فلقد كان القرطاجيون يتحـاشـون تجميـع تلك الفـرق حول مدينتهم . غيـر أن ما حدث هو أنـه وبـذريعـة المصاعب المالية، تركت الحكومة القرطاجية جماعات المرتزقة تتجمع شيئاً فشيئاً، على أمـل أن تصفي أمـرهـم بضـربـة واحـدة بمساعدة الجيش القرطاجي، وتجبرهـم بذلـك على التنـازل عن جزء من مستحقاتهم . ولكن، ومثل بقية الأخطاء التي كانت ترتكب ليـل نهـار، تلقى الضبـاط الأوامـر بنقـل الجنـود المـرتزقة إلى مدينة «سيكا» [الواقعة على بعد مئتي كيلومتر من قرطاجة] لإنتظار جمع الأموال المطلوبة . غير أن نتيجة هذه العملية كانت كارثة كما أن إبعاد الخطر مؤقتاً لم يكن حلاً ناجعاً .

وبعـد ذلـك، قدم «حنّـون الكبيـر» إلى «سيكـا» ، وكـان يتصرف كأنه الحاكم العسكـري للمنـاطق الأفـريقيـة التابعة لـ«قرطاجة» ، وأدعى أن العاصمة تمر بضائقة ماليــة ، طالبـاً من الجنـود أن يتنـازلـوا عن جزء من رواتبهم التي يستحقـونهـا حسب عقـودهم ، غيـر أن قادة المـرتـزقـة ، وبسـوء نية ، نقلوا لجنودهـم الذين يجهلون اللغة البـونيـة ماقـالـه القـائـد القـرطـاجي بشكـل مغلوط ، فعمّ الهيجـان والإضطـراب ، وبـإختصـار ، زاد هذه المهمـة الأوضـاع تعقيـداً . فقـام الجنـود بنقـل معسكرهـم من «سيكــا» إلى جوار مدينــة «تــونس» يدفعهـم إلى ذلــك تحـريض قادتهم . فأدركت «قرطاجة» حينها حجم الخطر الذي يهددها مباشرة .

حاول عددٌ من أعضـــاء مجلس الشيــوخ القـرطـاجي البحث عمـا يمكن أن يهـديء المتمـردين ، فبذلوا لهم الوعود ، وأنشأوا لهم أسواقاً كان الجنود يشترون منها سلعهم بالسعــر الــذي يرغبـون به ، إلا أنهم ، ورغم كل هذه التسهيـلات ، فرضـوا شروطاً أخرى ، إذ طالبوا أن يتم تعويضهم ، بعد أن يتلقوا رواتبهم ، عن خيولهم التي

نفقت خلال معارك صقلية (مع أن الفرسان كانوا يأخذون خيولهم من الدولة بعد تجنيدهم)، وتسديد أثمان جراياتهم من القمح التي كانت أسعارها تحسب بكلفة عالية جداً وبأسعار سنوات الحرب. فقام «جيسكون» بنفسه، وهو الذي كان لايزال يحظى بثقة جنوده القدامى، بدفع رواتبهم. محاولاً في نفس الوقت إعادتهم إلى صوابهم وحثهم على الثقة بـ«قرطاجة». إلا أن الحانقين منهم، والذين كانت لهم أسبابهم الشخصية لمواصلة التمرد، أدركوا مدى الخطر الكامن الذي يمكن أن تؤدي إليه أية مصالحة. فاتفق أحد المرتزقة وهو عبد روماني فار اسمه «سبنديوس Spendios»، كان يخشى أن يطالب سيده به ويقتله تحت التعذيب حسب القانون الروماني، اتفق مع مثير قلاقل آخر، وهو أفريقي اسمه «ماثو Matho». وورد اسماهما في المصادر التاريخية كـ«مثيري فوضى»، ووجدا نفسيهما، بعد أن تبادلا المواثيق والعهود، في حالة حرب مفتوحة مع قرطاجة.

لم تكن هذه الحرب، في الحقيقة، حرب «المرتزقة» فقط، بل هي أيضاً «حرب أفريقيا». إذ أن «ماثو» وشركاءه سعوا إلى نقل التمرد إلى أرجاء «ليبيا» كلها، فأرسلوا مبعوثين إلى جميع مدنها الرئيسية، ورغم أن الحكومة القرطاجة قامت بتنظيم عملية دفع الرواتب إلى الجنود في محاولة لتخفيف المبالغ المستحقة عليها، فقد تحول هذا التمرد إلى انتفاضة إجتماعية.

وتفشى العصيان بسرعة في كافة أنحاء الأراضي التابعة لقرطاجة، إذ أن الأهالي كانوا، ومنذ بداية حرب صقلية، يعانون من استغلال مواردهم المالية بشكل متعسف. أن محاولات «التهدئة» إضافة إلى الاحتلال الذي سببته عمليات الرومان بقيادة «ريغولوس» لم تؤد إلا إلى زيادة الحنق وأوصلت إلى انفجار هذه «العامية Jacquerie» الأفريقية. يقول «بوليبيوس»: «لقد وقف معظم الأهالي بجانب المرتزقة وانخرطوا في هذه الإنتفاضة ضد قرطاجة، وأخذوا يمدون المتمردين بالتعزيزات والمؤن. [. . .] أما النساء اللواتي أمضين سنوات الحروب السابقة وهن مقهورات من جراء اعتقال أزواجهن أو آبائهن بهدف دفع الضرائب، فقد تعاهدن فيما بينهن، وفي كل مدينة، على المشاركة في هذه الأحداث وأن لايخفين أي شيء يمتلكنه.

ولذلك تنازلن بلا تردد عن كل مابحوزتهن من مجوهرات لتغذية نفقات الحرب» ,72)
(I ,70, 2 . وبهذا تمكن «ماثو» و«سبنديوس» أن يسددا للجنود رواتبهم المتأخرة. كما كانا وعداهم، وتمكنا في نفس الوقت من مواجهة النفقات الضرورية.

احتشد سبعون ألف ليبي تحت قيادة حركة التمرد، وليس بوسعنا بطبيعة الحال أن نتأكد من صحة هذا الرقم، فهددوا «قرطاجة» وحاصروا «أوتيكا». أما «حنّون الكبير» الذي كان قد عُين من قبل الأقلية الحاكمة في قرطاجة، فقد جمع جيشاً مؤلفاً من المرتزقة والمواطنين وعززه بمئة فيل. وتمكن من فك الحصار من «أوتيكا». غير أن هذا النصر لم يكن حاسماً، إذ اتضح عدم كفاءة هذا القائد في ادارة دفة المعركة، الذي كان معتاداً على تحقيق انتصارات سهلة على السكان المدنيين. فتمت احالته إلى الإحتياط، دون أن يُعزل من وظيفته، واستدعي «هاملقار برقا» الذي كان على مايبدو القائد الوحيد القادر على تحاشي الخطر.

ويحركة ذكية قام بها، قرب مصب نهر «المجردة»، تمكن «هاملقار» في البداية من إبعاد الخطر نهائياً عن «أوتيكا»، حين هزم الليبيين والمرتزقة الذين تعرضوا لخسائر جسيمة. ثم قام القائد القرطاجي بإنشاء علاقات صداقة مع أحد القادة النوميديين واسمه «نافاراس Navaras»، وكانت له هيبة واحترام عند اتباعه، وقدم له هذا الأخير مساعدة فعالة وهي عبارة عن ألفي فارس، وشكل هذا هزيمة أخرى للعصاة إذ أُسر أربعة آلاف منهم وقتل عشرة آلاف. وتابع «هاملقار» سياسته المتسامحة، فضم إليه الأسرى الذين طلبوا أن يعودوا إلى خدمة «قرطاجة» وأطلق سراح الآخرين بعد أن تعهدوا بألا يرفعوا السلاح ضدها.

فهم قادة التمرد أن الهدف من هذه السياسة هو تحطيم نفوذهم إضافة إلى تهديد ترابط فرقهم. وقرروا، بالمقابل الرأفة التي أبداها «هاملقار» أن يردّوا بعملية حاسمة وعنيفة تجعل من المستحيل، في المستقبل، حدوث أية محاولاتٍ لرأب الصدع بين المرتزقة وقرطاجة. فقرر قائد المرتزقة الغاليين واسمه «أوتاريتوس Autaritos»، وكان قد خدم طويلاً في جيش قرطاجة ويعرف اللغة البونية وساهم منذ البداية في تصعيد هذه الحرب «التي لاتُغتفر» ـ أوبشكل أدق «الشرسة والوحشية» ـ

ولأنه لم يكن يحترم أية مواثيق تجاه خصومه، قرر أن يقتل «جيسكون» وسبعمائة أسير قرطـاجي تحت التعـذيب: «فقـادهم المـرتـزقة غير بعيدٍ عن هناك، وقاموا أولاً بقطع أياديهم، بادئين بجيسكون، هذا الرجل الذي كان في نظرهم، قبل وقت قصير، ومن بين جميـع القـرطـاجيين، موضـع ثقتهم لتسوية نزاعهم مع قرطاجة، وبعد أن قطعوا أيدي الأسرى، قاموا باستئصال بقية أطرافهم وتحطيم أرجلهم ثم بإلقاء أجساد هؤلاء التعساء، الذين كانوا لايزالون يتنفسون، في خندقٍ» [المرجع السابق، 81,2,1].

أثارت أنباء هذه المجزرة أهالي قرطاجة. فطُلب من «هاملقار» و«حنّون الكبير» توحيـد قواهمـا للإنتقام للضحايا. فأمر «هاملقار» بإعدام جميع الأسرى الذين لديه، وأمر أيضاً بسحق الأسرى الذين يُقبض عليهم في المستقبل تحت أرجل الفِيلة. إلا أن محاولة التعاون بين القائدين المتنافسين أدت سريعاً إلى الهزيمة بسبب اختلاف وجهـات النظـر بينهمـا. واستفاد المتمردون من هذا الوضع الذي حل بالقوات البونية بسبب ذلك، فحققوا المزيد من التقدم، لذا كان من المُلِح الوصول إلى اتفاق فقال وإصـلاح القيـادة العسكرية من جديد. فعُهد إلى الجنود أنفسهم مهمة اختيار القائد الــذي سيضطلع وحــدة بمهمـــة قيـادتهم، وفي هذا ولاشـك نوعٌ من الإبتكـار في «ممـارسـة الـديمـوقراطية»، (وهذا ماأضر حتماً بمجلس الشيوخ)، وقد اختار الجنود بطبيعة الحال «هاملقار».

كان على القـــائـد البـرقي أن يواجـه موقفـاً أوشـك على الإنهيـار. إذ أن مدى «أوتيكا» و«هيبوأكرا» [بيزرت] قد انضمت إلى معسكر المتمردين، كما غرقت السفن القـادمـة من « امبـوريـا Emporia » والمحملة بالمؤ ن ممـا هدد العـاصمة القرطاجية بالمجـاعـة. فطلب القـرطـاجيـون المسـاعدة من «هيرون» ملك سيراكوز الذي لبى طلبهم بسـرعـة، إذ كان هو أيضـاً بحـاجة، بعد التغييرات الإقليمية في منطقته، إلى إيجاد قوة موازية لجيرانه الأقوياء «الرومان» الذين من جهتهم لم يحاولوا الإستفادة من المصـــاعب التي تواجـــه عدوتهم. ففي بدايـة حركـة التمـرد، قامت السفن بإفـراغ شحنـات من المؤ ن المجلوبـة من إيطاليا إلى المتمردين، فاحتجت الحكومة البونية على هذا العمـل، ولحسن حظهـا، كانت الفئـة التي وقعت معها معاهدة الصلح في

عام 241 ق.م لاتزال مسيطرة على الحكومة الرومانية. فتعهدت روما بأن تسلك في سياستها مسلك «أصدقاء» القرطاجيين، وطُلب من التجار الرومان التساهل قدر امكانهم أمام طلبات التزود بالمؤ ن الموجهة إليهم ومنع التعامل مع المتمردين. كما رفض، فيما بعد، مجلس الشيوخ الروماني عرضاً قدمه له مرتزقة سردينيا بتسليمهم الجزيرة، وكان قد رفض عرضاً من «أوتيكا» بأن تضع نفسها تحت الحكم الروماني. لقد كان الرومان يعلنون أنهم مهتمون باحترام نصوص المعاهدة الموقعة في «صقلية».

خلال هذا الوقت، كان «هاملقار» قد شدد ضغطه على المتمردين، ورغم بعض الخسائر فقد تمكن من انهاك قوى خصومه. وفي النهاية، تمكن من عزل المرتزقة وحصرهم في منطقة ضيقة، مما اضطرهم بسبب المجاعة التي حلت بهم لقتل الأسرى والعبيد وأكل لحومهم. لقد كان موقف المتمردين يائساً، فاتجه وفد يضم عشرة أعضاء، من بينهم «سبنديوس» و«أوتاريتوس» إلى معسكر البونيين للتفاوض. واتفق الجانبان على أن تحتفظ قرطاجة بعشرة رجال تختارهم من بين المتمردين، وتسمح للآخرين بالرحيل بد أن يتركوا أسلحتهم ومعداتهم. فوافق «هاملقار» معلناً أن اختياره قد تم، وقد قام باعتقال الموفدين العشرة. كانت هذه ضربة ذكية، إذ أن المرتزقة الذين يقول «بوليبيوس I ,2 ,85». أن عددهم كانوا حوالي أربعين ألفاً، لم يعرفوا لِمَ قُبض على مبعوثيهم، فاستعدوا للقتال، غير أن الفرق البونية كانت تحيط بهم مع الفيلة التي سحقتهم «إن اسم المكان التي حدثت فيه المجزرة هو «المنشار»، وهو يشبه في شكله التضاريسي اسم هذه الأداة». وقد أطلق الشاعر الفرنسي «فلوبير» على هذا المكان اسماً مثيراً للذكريات هو «مضيق البلطة». ومع أنه لم يعد بالإمكان تحديد ذلك المكان بدقة، فباستطاعتنا مع ذلك أن نخمن أنه يوجد في المنطقة الجبلية من منطقة «جبل رصاص» بين «زغوان» و«غرومباليا».

أصبحت تلك الحرب في أيامها الأخيرة، أما السكان الأفريقيون في المدن والأرياف، فقد تأثروا بقوة الجيش القرطاجي المنتصر وأبدوا من جديد علامات الخضوع. وكانت «تونس» لاتزال بيد «ماثو». وقبل أن يباشر «هاملقار» عملياته

الحـربيـة ضد قائـد المـرتزقة، قام بصلب «سبنديوس» والأسرى الآخرين أمام أسوار المـدينـة وعلى مرآى من رفـاقهم في السـلاح. لكن انتقـام هؤلاء لم يتأخـر إذ قاموا بهجـوم على معسكـر الجيش البـوني، مستغلين ضعف تحصينـاته، مكبدينه خسائر باهظـة، بل أنهم أسـروا ضابطاً قرطاجياً كبيراً اسمه «هانيبعل» كان المجلس الشعبي قد اختـاره كمسـاعـدٍ لـ«هاملقار» في قيادة الجيش، «فاقتادوه فوراً إلى جانب صليب «سبنـديـوس» وأخضعـوه لعذابٍ شديد، ثم سُمِّر حياً على الصليب بعد أن أنزلوا عنه جسد رفيقهم، وأخيراً، وعلى مقربة من جسد «سبنديوس» قاموا بذبح ثلاثين من علية القـرطـاجيين» [المـرجع السابق 86,2,1]. وبعد هذه الحركة الإنتقامية (التي تذكرنا بالتضحيـة التي قدمهـا القـرطاجيون بعد سقوط «هيمير» عام 409 ق. م، وفي المكان ذاته الذي مات فيه «هاملقار» الماغوني»، وكانت تلك التضحية مؤلفة من ثلاثة آلاف أسير كقرابين تكفيرية)، ترك «ماثو» تونس.

وكمـا حدث قبـل سنتين، حينما تم إعدام «جيسكون»، فقد اعتبرت الحكومة القـرطـاجية أن «هاملقار» أبدى عجزاً في منع هذه المذبحة، بحيث لم يعد بالإمكان أن تتـرك المسؤوليـة الكـاملة في قيادة العمليات الحربية. وكانت هذه فرصة مجلس الشيـوخ القـرطـاجي كي يستعيد صلاحياته وليعزز، في نفس الوقت، موقف «حنّون الكبيـر» الـذي كان قد أُبعـد من قبـل جنـود الجيش. وقام وفدٌ يضم ثلاثين عضواً من المجلس بترتيب مقابلة توصلوا بعدها إلى مصالحة القائدين الخصمين اللذين وافقا على العمل سوية وبرأي موحد، فتجددت العمليات الحربية في منطقة «ليبتس مينور Leptis Minor» [جنـوب سوسـة]، وتحـركت التعـزيـزات من طرفٍ لآخـر، والتقت الجيوش للمرة الأخية في معركة حاسمة، وكان انتصار القرطاجيين فيها تاماً، إذ أُبيد معظم الليبيين واستسلم الآخرون فيما بعد. وأُسر «ماثو» حياً، وسيق مع بعض رفاقه في موكب نُصـرٍ في العـاصمـة، على مرآى من الشبـاب القـرطاجي. وفي يوم النصر هذا، وأمام أعين الشعب كله، عُذب ثم أُعدم.

لقـد انتهت هذه الحـرب «التي شهـدت من العنف والفظاعات مايتجاوز بكثير جميع ماشاهدناه حتى الآن» [بوليبيوس، 88,2,1]. غير أن هذا الانتصار كان مشوباً

بالمـرارة بالنسبـة لقـرطـاجـة فطـوال سنـوات الحـرب، كانت روما تلاحظ أن الأقلية الحـاكمـة المـواليـة لـ«حنّـون» تفقـد نفوذها شيئاً فشيئاً، مقابل صعود نجم الموالين للقائد البرقي الذي بدا المنتصر الحقيقي في حرب «أفريقيا» تلك.

لقـد استبـد القلق بالفئـة «الأمبـريـاليـة» في مجلس الشيـوخ الروماني بسبب التحـولات التي طرأت على السيـاسـة الـداخلية القـرطـاجيـة والتي فتحت الطريق المحاولات الإصلاح الديمقراطي. إذ أن الشروحات التي قدمتها فئة الـ« «Patres» كانت تبـدو أكيـدة. فلقـد انتهت العمليـات الحـربيـة التي دارت في منطقـة القبائل النـوميـديـة، كما أن «حنّون» الذي كان موضع انتقاد، استُدعي إلى «قرطاجة» وعُزل من قيـادة الجيش. أمـا «هـاملقـار»، وعلى الرغم من المزاعم التي تقدم بها خصومه بإرتكـابـه عمليـات اختلاس في صقلية، فقد تمكن من الحصول على دعم عدد من الشخصيـات ذات النفـوذ، مثـل صهـره الجديد «هاسدروبعل»، وأصبح قائداً أعلى لكافةالقوات البونية في أفريقيا، ثم أصبح فيما بعد قائداً للقوات البونية في «اسبانيا».

كان هذا يعني مؤشـرات غيـر حاسمـة عن السيـاسـة التي ستـرجـح كفتها في قرطـاجـة. وبهـذا، لم يكن بمقـدور مجلس الشيـوخ الـرومـاني أن يضمن السياسة المتبعـة للهيمنـة البـونيـةفي البحر المتوسط، إذ أن الرومان لـم ينسوا أن «أصـدقاءهـم» هؤلاء كانـوا، فيمـا مضى، ألـدّ أعدائهم، وكانوا على وشك تحطيمهم خلال حرب «صقليـة» الطـويلة. لقـد أعاد الرومان النظر من جهة أخرى، وبسهولة، في مواقعهم إزاء البـونيين. ففي حين كانـوا يطـالبـون بإقـامـة تحالفاتهم على أساس فضيلة الـ« «fides» (وتعني الثقـة المتبـادلـة واحتـرام التعهـدات) كان التصـور البـوني لهـذه الـ «fides» منحصراً في إظهار الخِسة و«النية السيئة».

لهـذا السبب أصغى مجلس الشيـوخ الـروماني في عام 238 ق. م، حينما قام مرتـــزقـــة سردينيـا المتمـردون، وبسبب الضغـط الـذي مارسـه عليهم أهـل البـلاد الأصليـون، بالبحث عن ملجأ في إيطـاليـا، ثم اقتـرحـوا للمـرة الثـانية تنظيم حملة لاحتـلال الأمـلاك القـرطـاجيـة، أصغى بسـرور لهـذا النـداء الـذي أتى في الوقت

المناسب، وقرر الشروع باجتياح الجزيرة الكبيرة التي كانت في نظر الرومان حطاماً مهجوراً.

كانت هذه العملية خرقاً جائراً للمعاهدة الموقعة مع قرطاجة عام 241 ق. م، بيد أن جميع احتجاجات قرطاجة لم تُجدِ نفعاً. لذا اقتضى الأمر من الحكومة البونية أن تجهز حملة لمحاربة المتمردين وإعادة الأمور إلى نصابها، فتظاهر الرومان بالاعتقاد أن هذه الاستعدادات موجهة ضدهم، واتخذوا منها ذريعة لإعلان الحرب. وبما أن القرطاجيين كانوا منهكين بسبب الحربين المتتاليتين اللتين خرجوا منهما، فلم يتمكنوا من مواجهة تحدي روما، واضطروا إلى الإنسحاب من سردينيا، ودفع غرامة قدرها 1200 تالان. وكلف القنصل الروماني «تي. سمبرونيوس غراكشوس Ti. Sempronius Gracchus» بالسيطرة على الجزيرة، ولكنه باشر في نفس الوقت احتلاله لجزيرة «كورسيكا».

لقد أدى صلف مجلس الشيوخ الروماني هذا إلى نتيجة عكس ماتوخاها. فبدلاً من إضعاف شعبية «هاملقار» وتوجيه ضربة إلى جماعته التي كانت تتمتع بالنفوذ في الحكومة القرطاجية، تعززت هيبة القائد البرقي. كما أن تصرف روما هذا جعل الطريق لتحقيق طموحات البرقيين ممكناً. . . .

حرب هانيبعل

كتب المؤرخ الروماني «تيت ـ ليف»: (إن روح هاملقار القوية لم يكن بمقدورها أن تتعزّى عن ضياع صقلية وسردينيا. فقد كان يرى أن اليأس هو الذي أدى إلى تسليم صقلية، أما سردينيا، فقد استغل الرومان الإضطرابات التي كانت تهز أفريقيا كي ينتزعوها بحركة غادرة ويفرضوا عليه غرامة أخرى) «1, XXI». كان «يوليبيوس» قد تحدث أيضاً عن فكرة «الحرب الانتقامية». ويرى هذا المؤرخ أن شروع «هاملقار» ببناء امبراطورية له في اسبانيا كان بدافع من «حقده الشخصي» تجاه روما، إذ توجهت ضده نقمة مواطنيه إثر قضية سردينيا، فانطلق في غزو اسبانيا معتقداً

أن هذه البلاد قد تقدم له المصادر الضرورية التي تجعله قادراً على شن الحرب على روما» (10, 1, III) .

غير أن طموحات القائد البرقي كانت ولاشك كبيرة جداً. فحين عاد إلى بلاد «ترشيش» تلك، التي أدت ثرواتها في السابق إلى ازدهار «صور»، اقترح أن تُستغل بشكل منظم مناجمها الواقعة في جبال «السييرا مورينا Morina » من جهة، ومن جهة أخرى أن يتم إنشاء قاعدة برية واسعة وقوية، تكون بعيدة بما فيه الكفاية عن عش الزنابير الروماني، ويمكن لقرطاجة أن تجد فيها نفحة حياة جديدة وأن تستخدمها كمعبرٍ للانطلاق من جديد لإعادة السيطرة على البحار الصورية ولإكتشاف آفاق جديدة. وهذا لايدل على عقلية انتقامية بقدر مايشير إلى طموح المغامر في لحظة جامدة. إن عزم البرقيين هذا لم يكن إذن يهدف إلى إجراء انتقالي متأخر للصمود أمام الضربات الرومانية، بل العودة إلى التوازن المضاد في البحر المتوسط، وهذا هو الشرط الأساسي لحماية الإحتكار التجاري في الجزر وفيما وراء أعمدة هرقل وسواحل الأطلسي.

استطاعت العاصمة البونية خلال بضع سنوات من إعادة بناء ثرواتها من جديد، بفضل الشحنات النفيسة التي كانت تؤوب إلى مرافئها. وكان على القرطاجيين أن يحققوا غايتهم الثانية. فحينما استلم «هانيبعل» زمام الأمور عَقب «هاسدروبعل» رأى أن الظروف مناسبة له ـ وكان غزو اسبانيا لايزال متواصلاً ـ فاستغل بذكاء مشكلة «ساغونتي Sagonte » كي يضع خصمه الروماني أمام التجربة. فإما أن يسمح له بمواصلة الرحلة الأولى هذه التي تقود الجيش البوني القوي إلى احتلال المدينة الإيبرية التي تحالفت من جديد مع روما، ومثل هذا النجاح يعيد الهيبة لقرطاجة ويدشن نهوضها من جديد، وإما الدخول في طريقٍ مليء بالمخاطر لصراع دامٍ مسلح.

قاومت «ساغونتي» لمدة ثمانية أشهر، حوصرت خلالها ولم تتلق أية امدادات، وكانت روما قد تعهدت بأن أي اعتداء على هذه المدينة المتحالفة معها يعني اعتداء على الجمهورية نفسها. كما أن اتفاقاً وقع عام 226 ق. م بين مبعوثٍ

عن مجلس الشيوخ الروماني و«هاسدروبعل»، خليفة «هاملقار»، التزم بموجبه حاكم «إيبـريـا» ألا يتجـاوز الجيش القـرطـاجي نهـر «الإيبـر» مسلحاً، إذ أن كافة الأراضي الـواقعـة جنوب هذا النهر كانت تحت النفوذ البوني. وحين قدم الرومان احتجاجاتهم إلى الحكـومـة القـرطاجية، وجدوا في «حنّون الكبير» مدافعاً عن قضيتهم كما يروي المؤرخ «تيت ـ ليف»: «دافع عنها بحماس مطالباً، أن يتم تسليم ابن منافسه «جذوة الحرب» إلى روما «كتكفير عن خرقه للمعاهدة». غير أن مجلس الشيوخ القرطاجي، حيث كان نفــوذ «البــرقيين» قويـاً منـذ حوادث عام 238 ق. م، تضـامن مع القـائـد الشـاب، وكـان عمـره آنئذٍ ثمانية وعشرين عاماً والذي أصبح في نظر الأمة القرطاجية المُهانة يمثل «روح الحرب».

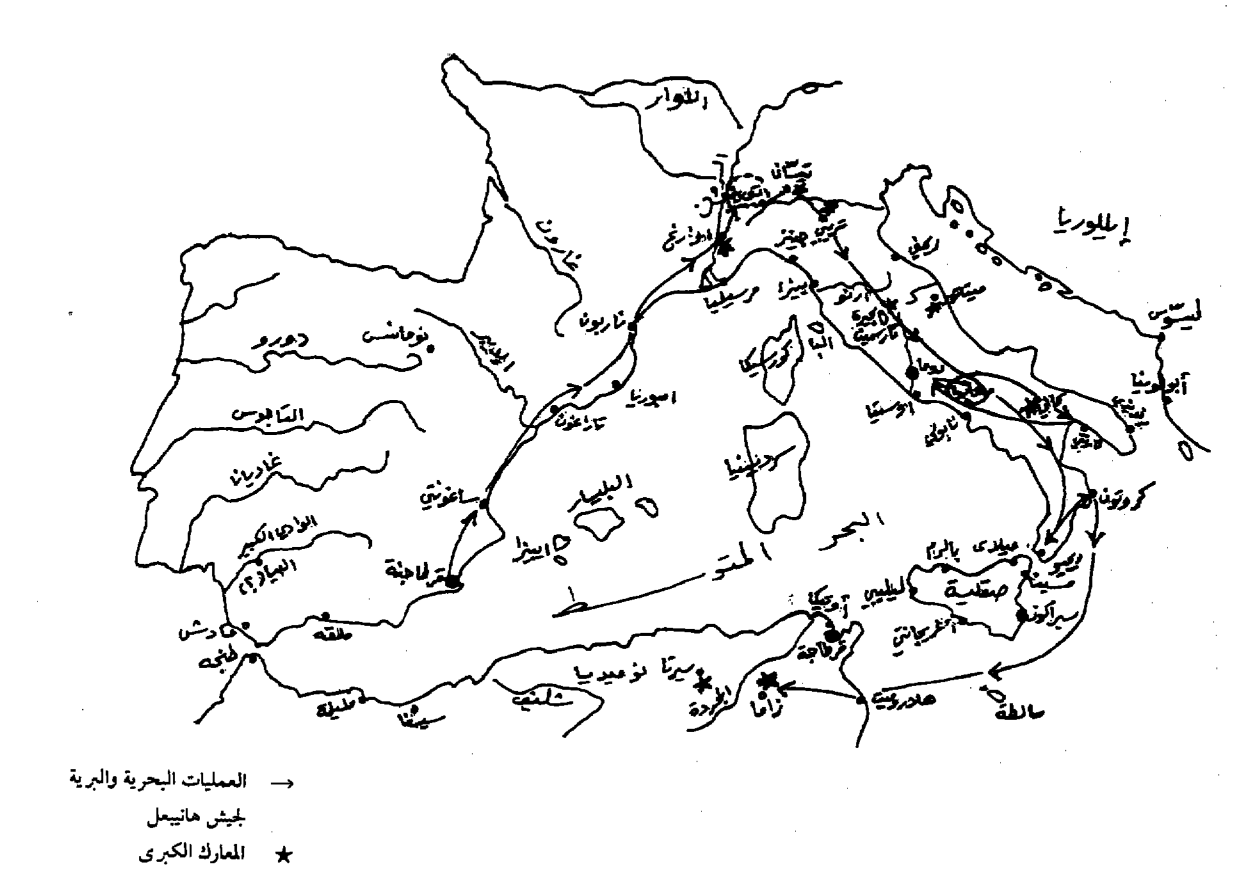
لقد وصلتنا قصة تجدد الحرب بين الدولتين عبر ماكتبه «بوليبيوس» [33, 1, III] و«تيت ـ ليف» [18, XXI] وتحكي عن آخـر لقـاء جرى بين وفـد رومـاني والحكـومـة القـرطـاجيـة عام 218 ق. م. إذ كان هذا الـوفـد يأمل بلوغ مايريده مثلما كان يحدث خلال العشرين عاماً الماضية حيث كان يكفي التلويح بالحرب للحصول بلا مقابلٍ على تراجعـاتٍ من «حليفهم» الجسـور. فقـد طالب هذا الـوفـد المؤلف من خمسة أعضـاء بتسليم «هـانيبعـل» ومستشـاريـه إلى رومـا. غير أن القرطاجيين ذكّروهم أن معاهدة عام 241 ق. م التي ارتبطت بها الدولتان لم تذكر أبداً مدينة «ساغونتي»، وأن قرطـاجـة لم توقع على أية تعهدات تخص هذه المدينة، غير أن عضو الوفد الروماني «ك. فابيـوس Q. Fabius» وهـو أكبـر الأعضـاء سنـاً، أمسـك بثوبه بطريقة مسرحية، وقـال: «إنني أحمـل إلى هنـا السلام أو الحرب، فاختاروا!» فرد عليه القاضي الذي كان يرأس الجلسة، وهويهز ثوبه، : «بل اختاروا أنتم». فأعلن رئيس الوفد الروماني عندها أنه يختار الحرب. فهتف القرطاجيون جميعاً: «رضينا بذلك، وسنعرف كيف نحـارب مثلمـا قبلنـا بالحرب». منذ هذه اللحظة، أُعلنت الحرب بين الدولتين التي اقتضى أن تستمر سبعة عشر عاماً.

وحين أعلن عن قطــع العــلاقـات بين الجمهـوريتين، قرر مجلس الشيـوخ الروماني وضع خطة جريئة تسمح بتحطيم الهجمات البونية فور حدوثها. إذ كان على

القناصل الذين كُلف كل واحدٍ منهم قيادة جيش مؤلف من فيلقين معززين بوحدات عسكـريـة مسـاعـدة، أن يوجهـوا ضربـاتهم إلى خصمهم بهـدف شلّه في منطقتين حساستين. فقد كُلف القنصل «تيب سمبرونيوس لونغوس Tib. Sempronius Longus » بحشـد قواتـه في «ليليبي» لنقلهـا إلى أفـريقيـا، ومن ثم التـوجـه فوراً إلى قرطاجة عاصمـة الامبـراطـوريـة البونية. أما القنصل «بْ. كورنيليوس سيبيون P. Cornelius Sipion » فكان عليه الإنطلاق من «بيزي Pese » على رأس جيش باتجاه اسبانيا كي يضـرب القـوات القـرطـاجيـة في هذه الأمبراطورية البرقية. بيد أن القرطاجيين كانوا يعملون بنفس السـرعـة بحيث لم يتركوا للرومان فرصة لإتمام مشاريعهم. إذ انهارت الاستعدادات الرومانية التي كانت تجري لشن هجومٍ معاكس.

كما أظهر «هانيبعل» حين سماعه نبأ إعلان الحرب، أنه ليس فقط رجل عمل ومخطـط من الطـراز الأول على شاكلة «هـاملقـار» و«هـاسـدروبعـل» بل أيضـاً قائد سيـاسي. فخـلال المصـاعب التي عانى منها الرومان لاتفاق شعوب «الغال السيزاليين Gaule Cisalpine » في ايطـاليـا العليـا، الـذين خضعـوا حديثـاً لسيطـرتهم، حرص «هـانيبعـل» على أن لايهمل هذه القوى الحيوية التي يمكن أن تكون مفيدة له. فأرسل مبعـوثين إلى زعمـاء هذه الشعـوب الكلتيـة الغـاضبـة ليطلب منهم التحـالف معـه في صراعـه مع عدوهم المشتـرك. وأرسـل «الغاليون السيزالبيون» من جهتهم وفداً يضم عدداً من وجهائهم إلى «قرطاجة» يحمل وعداً ببذل المساعدات الحربية، كما قدموا أيضاً بعض المعلومات الدقيقة عن السبل المؤدية إلى معابر «جبال الألب»، وكذلك عن المشـاعـر العـدائيـة التي تكنهـا الشعـوب القـاطنة في سهل «البو Po » للحكومة الـرومـانيـة. وبفضـل هذا التحالف الضروري جداً لإتمام الإجتياح المرتقب، عهد «هـانيبـل» لشقيقه «هاسدروبعل» حُكم اسبانيا، تاركاً له تعليماتٍ عن كيفية التصرف في وظيفته والوسائل التي عليه اتباعها في حالة حدوث هجومٍ روماني.

في شهر أيار من عام 218 ق. م، انطلق «هانيبعل» من مدينة «قرطاجنة». وبعد أن عبـر نهـر «الأيبـر» الـذي يقـع على بعـد مئة وخمسين كيلومتـراً شمـال مدينـة



(الحرب البونية الثانية 218 - 201 ق.م)، وخط سير «هانيبعل» من «قرطاجنة» إلى «زاما»)

«ساغونتي»، والذي كان يمثل الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ القرطاجيين والرومان، كما نص اتفاق عام 226 ق. م.

باشـر القـائـد القـرطـاجي شق طريقـه بإخضـاع القبائل الإيبرية المنتشرة بين مجـرى النهـر وجبـال «البيـرنيه»، ولم يستطع اخضاعها إلا بعد معارك عنيفة وخسائر ثقيلة. وظـل هذا الإقليم صعب الإنقيـاد، فتـرك فيـه «هـانيبعـل» قسمـاً من وحداته العسكرية بقيادة أحد ضباطه واسمه «حنّون». وحسب مايذكره «بوليبيوس» ,35, 2, 33] [1, III ، الـذي يعتمـد بدوره على نقش محفـورٍ بأمـر «هـانيبعل» نفسه، كان الجيش البـوني حين وصـولـه إلى بلاد الغال يُعد خمسين ألفاً من المشاة وتسعة عشرة ألفاً من الفرسان وفرقة تضم سبعة وثلاثين فيلاً.

حين علم القنصل «ب. كورنيليون. سيبيون» بتقدم الفرق البونية حاول وقفها بانزال قواته في «مرسيليا»، غير أن «هانيبعل»، الذي تمكن من شق طريقه تارة بالقوة وتـارة ببـذل الأمـوال، تمكن من الوصول إلى نهر «الرون Rhon» بسرعة عظيمة، في أوائل شهر آب. وعلى ضباب النهر، تمكن من الحصول على عددٍ كبير من الزوارق وبنى قسمـاً آخـر منهـا، ثم قام بمنـاورة ذكية استهدفت تطويق وضرب القبائل الغالية المعـاديـة التي تراقب الضفـة اليسرى. وتمكن بفضل الزوارق الكثيرة التي أصبحت لديه من نقل جيشه كله بما فيه الخيول التي كانت تسبح مقطورة خلف الصنادل، كما نقـل الفيلة بواسطـة جسـور متحـركـة مصنـوعة من طوافات غطيت بالحشائش. ومن الممكن أن يكـون المكـان الـذي عبر فيه نهر «الرون» قرب نقطة التقائه مع نهر «سيز Ceze» [في أعالي نهر الأورانج Orange].

لقـد تحـاشى «هـانيبعـل» الإصطـدام بفيالق «سيبيون» فلم تحدث أية معركة طوال تلك الفتـرة. باستثنـاء اشتبـاك عنيف بين فرقـة استطـلاع من الفرسان النوميديين ومفـرزة رومـانيـة. كما قدِم عدد من الزعماء الغاليين في سهل «البو» ليضعوا أنفسهم تحت تصرف القائد القرطاجي، ولينصحوه بمواصلة طريقه دون تأخير. أما «يوبليوس سيبيون» فقد عاد إلى إيطاليا تاركاً قيادة فيلقيه إلى أخيه «كنايوس Cnaeus» طالباً منه

التوجه إلى اسبانيا، وهناك «أي في إيطاليا» قاد جيشاً في منطقة «السيزالبين» وانتظر هناك وصول غريمه.

وبعد أن عبر «هانيبعل» مجرى نهر «الإيزارا Isara» [ربما هو نهر «الإيزر Isere] باتجاه بلاد «اللوبروجيين Allobroges» وصل إلى سفوح جبال «الألب»، وكان فصل الخريف قد حلّ، وأخذت تتضح له مصاعب الحملة. ولسنا هنا في مجال الدخول في الفرضيات التي حاولت رسم خطة للطريق التي سار عليها الجيش البوني[٩٦]. وباستطاعتنا أن نقول أن البونيين حين وصولهم إلى وديان «موريان Maurienne» أو «تارانتيز Tarentaise»، قاموا باجتياز جبال «الألب» في منطقة تقع بين ممر «كلابيه Clapier» وممر «بوتي سان برنارد Petit Saint- Bernard»، غير أن هذا يبقى ضمن مجال الإفتراضات إذ لاتوجد بين أيدينا أية معطيات دقيقة.

وبعد مسير استغرق خمسة عشرة يوماً، بلغ الجيش البوني أسفل السفوح الإيطالية. وقد انخفض عدده في جنود المشاة، حسب الأرقام التي ذكرها «بوليبيوس III ,2 ,56» إلى إثني عشر ألف أفريقي وثمانية آلاف إيبري، ولم يبق لديه أكثر من ستة آلاف فارس. ويضيف المؤرخ قائلاً: «لقد تكبد هانيبعل في عبوره لجبال الألب خسائر جسيمة في الجنود بسبب الهجمات التي كان يشنها عليه العدو أو خلال عبورهم المجاري المائية، إضافة إلى خسائر كبيرة بالخيول والحيوانات الأخرى بسبب وعورة الطريق والعوائق التي صادفتهم أثناء مسيرهم في الألب». إلا أن هذه الخسائر الباهظة، والتي كانت بالتأكيد هامة جداً في المراحل الجبلية، لاتفسر تبديد ثلاثة أخماس جنود المشاة منذ عبور جبال «البيرينه». لذا يمكننا أن نقول أن «هانيبعل» قام خلال الطريق التي سلكها منذ وصوله إلى بلاد «الغال» وحتى نهر «الرون» (حيث كان الجيش الذي لم يخض أية معركة حقيقية لايضم أكثر من ثمانية وثلاثين ألفاً من المشاة وثمانية آلاف فارس)، قام بفرز قسمٍ كبير من جيشه وابقاه كحامياتٍ كلفت بحماية النقاط الاستراتيجية. وكان يقصد بذلك المحافظة على خطوط اتصالاته مع اسبانيا، إضافة إلى احتمال تمرد بعض القبائل في بلاد «الغال» الجنوبية.

وصـــل الجيش القــرطـاجي في نهـايـة شهـر أيلول إلى بلاد «التـوريسكيين Taurisques» وتمكن من احتلال «تورينو Turin»، ثم تابع اجتياحه للسهل الباداني. وكـان لهـذا الخبـر وقـع الصـاعقـة في رومـا، إذ كان مجلس الشيـوخ متأكداً من أن «هـانيبعـل» لن يجـرؤ، رغم شجـاعتـه، على اجتيـاز جبـال الألب في هذا الفصـل المتأخــر، كمـا كان هذا المجلس لايـزال يدرس آخـر التقـاريـر المتعلقـة بسقـوط «سـاغـونتي». فتم استدعاء الفرق المحتشدة في «ليليبي»، والتي كان من المفترض إنـزلهـا في أفـريقيـا، وتم نقلهـا بواسطـة الاسطـول حيث توجهت هذه الفرق بقيادة القنصل «سمبرونيوس» بسرعة إلى «آريمينوم Ariminun» [ريميني Rimini].

أمـا «ب. سيبيـون» فكـان يتقـدم للقـاء «هانيبعل» بهدف إيقاف تقدمه باتجاه «روما». إلا أنه تعرض لأول هزيمة على ضفاف نهر «تيسّان Tessin» إذ لاذت فرقه بالفرار، في حين أُصيب هو بجراحٍ خطيرة. ونتيجة لإنتصار البونيين، تمرد الغاليون الذين كانوا يحاربون في صفوف «سيبيون» وانضموا إلى «هانيبعل» بعد أن قتلوا عدداً كبيـراً من الجنـود الـرومـان. لقـد استقبلهم القائد القرطاجي بمودة واستخدمهم في البـدايـة كعنـاصر دعاية بين شعوبهم بهدف حثهم على التحالف معه، وكانت نتيجة ذلك نجاحاً ساحقاً، فقد أصبحت التعزيزات العسكرية والتموينية مضمونة، كما أن حاميـة مدينـة «كـلاستيـديـوم Clastidium» التي كانت توجـد فيها مخازن الحبوب، استسلمت لهــانيبعـل بواسطـة قائـد المـدينـة، وهـو ضابـطٌ يعـود أصله إلى مدينـة «بـرانـديزيوم Brundisium» [برانديزي Brindisi]، وكان سير الأمور على هذا الشكل معبراً عن الإنحلال الذي تواجهه الجمهورية الرومانية، وفي الأيام الأخيرة من كانون الأول عام 218 ق. م، وعنـد طلوع فجـر مشـوب بالضبـاب في سمـاء مثلجـة، كان القنصـل الـرومـاني «تيب. سمبـرونيوس» مخيماً في العراء بمواجهة معسكر الجيش البوني، على الضفاف المستنقعية المغطاة بالحشائش الطويلة التي تمتد على طول نهر «تريبي Trebie»، وكان قد قرر أن يشن هجوماً رداً على التحرشات التي يتعرض لهـا من قبـل خصمـه. لكن الجيش الـروماني وقع بسهولة في الفخ الذي نُصب له. فحين عبر الجنود النهر، وكانوا لايزالون يرتجفون من شدة البرد، هوجموا على أرض

كان عدوهم قد ملأها بالكمائن، وتشتت الجناح الأيسر من الجيش الروماني أمام هجوم الفيلة، وكان على الرومان أن يتراجعوا إلى النهر أويُذبحوا، وتمكن من استطاع الفرار أن يصل بعد عناء ليختبيء في «بليزانس Plaisance». أما «هانيبعل» فلم يفقد إلا القليل من الغاليين، الذين كانوا من جهتهم قد قتلوا عدداً كبيراً من الرومان. يكتب «تيت ـ ليف»: «لقد هُزم الجميع» [74, 2, III]. وأصبح «هانيبعل» منذ تلك اللحظة سيد منطقة «السيزالبين». «وإن هذه الهزيمة، يضيف «تيت ـ ليف»، قد ملأت روما بالرعب إذ كانت الإشاعات تروج أن هانيبعل يحث السير باتجاه المدينة» [56, 2, XXI].

قرر القائد القرطاجي قضاء فصل الشتاء في سهل «البو»، ربما في «بولونيا Bologne»، وقام هناك بإطلاق سراح جميع أسراه من غير الرومان كوسيلة دعائية. وعانت فرق جيشه من قسوة الطقس، كما أن برودة الشتاء أهلكت جميع الفيلة عند واحداً استخدمه «هانيبعل» مطية له أثناء عبوره فيما بعد المناطق الوعرة في وادي «آرنو Arno»، أما الجنود الغاليون فكانوا ساخطين من الأحداث التي دارت في بلادهم، وينتظرون بفارغ الصبر العودة من أراضي العدو الروماني للحصول على الغنائم. فقرر «هانيبعل»، حين حلول فصل الربيع، الدخول إلى شبه الجزيرة الإيطالية. وعندما سأل عن الدروب المفضية إلى «آتروريا Etrurie» اختار الطريق المؤدي إليها مباشرة، وهو طريق «الأبينين Apennin» مع أنه كان خطراً للغاية بسبب الفيضانات التي كانت تغطي مساحة واسعة فيه. (وربما كانت تلك المنطقة الواقعة بين «بيستويا Pistoia» و«فلورانسا Florance») وتابع سيرة لمدة أربعة أيام كانت بالنسبة للجيش القرطاجي تجربة مريرة. وقد رُوي كثير من القصص عن المخيمات التي نُصبت في العراء وسط المستنقعات حيث هلك قسمٌ كبير من الدواب. ومن المحتمل أن «هانيبعل» قد أصيب في هذه الفترة بالتهاب في عينيه وفقد احداهما بسبب خطأ في معالجتها. وتابع الجيش القرطاجي سيره حتى وصل إلى مقابل مدينة «آريزّو Arezzo» حيث كان القنصل «س. فلامينيوس» قد أقام معسكره.

قام «هانيبعل» بهدف إثارة خصمه، بدفع جنوده لنهب الأرياف المجاورة

واحـراقهـا، ثـم واصـل طريقه. فأطلق «فلامينيوس» دون انتظار فرقه في إثره. غير أن القائد البرقي كان قد قصد أرضاً مناسبة تماماً لخطتها الحربية، فدخل في ممر يحف ببحيـرة «تـراسيمين Trasimene»، وخيم في نهـايته لقضاء الليل بينما احتل الرومان مدخله. وفي اليوم التالي، في الصباح الباكر من 21 حزيران 217 ق. م، وبينما كان الضبـاب الكثيف يغطي المنطقـة، قام «فلامينيوس» بدفع فرقه إلى الممر وهو يجهل أن أعـاليـه وطـرفه كانت مراقبة، وحينما دخل فيه بشكل كامل، برز الفرسان والمشاة البـونيـون من بين الضباب الكثيف، وأطبقوا على الرومان من كل الجهات. لقد كان الفـخ محكمـاً تمـاماً: فخلال ثلاث ساعات، كما يروي «تيت ـ ليف»، قُتل أو غرق خمسة عشر ألف روماني من بينهم القنصل نفسه في البحيرة التي فرّوا إليها بحثاً عن منفـذ، أمـا الآخـرون فقـد أُسروا أو لاذوا بالفرار. في حين لم يفقد «هانيبعل» سوى ألف وخمسمائة من جنوده، وخفف عنه أن غالبيتهـم من الغاليين. وتابع خطته بأن قام بفـرز الأسـرى غيـر الرومان وأطلق سراحهـم مردداً على أسماعهم ماكان قد قاله. منذ أول معـركـة بأنه لـم يأت لحربهم بل لتحرير المدن الخاضعة للرومان من سيطرتهم، وفي ساعـة احتـدام المعـركـة كان القنصل «سرفيليوس Sevilius» عند سماعه بتقدم الفـرق البـونيـة قد أرسـل قوة تضم أربعـة آلاف فارس لتعـزيـز فيـالق زميله، وحدث الإصطدام في «أومبري Ombri» بينها وبين «ماهر بعل» أحد قادة «هانيبعل» فأبيدت بدورها أيضاً.

لقـد أدت الكـوارث المتكـررة إلى حدوث أزمـة سياسية في «روما» إبان غياب القنـاصـل إذ أن أحـدهمـا قتل، أما الآخر، وهو «سرفيليوس» الذي أقام معسكره في «ريـميني»، فلم يكن بمقـدوره الإتصـال بالعـاصمـة. فتم تعيين «ك. فابيـوس مكسيمـوس Q. Fabius Maximus» كدكتـاتور مع صلاحيات استثنائة. أما «هانيبعل» فلم يبق عليه إلا أن يواجه خصمه «الذي كان يسميه Cunctator» «المتردد» فشرع في عمليات سلب وتخريب في شمال «آبوليا Apulie» و«سامنيوم Samnium» وفي غربي «كامبانيا Campanie».

كانت فرق «فـابيـوس» تراقب القـائـد القرطاجي في كل تنقلاته، وكان عملها

يقتصر على إعاقة طرق امداداته، دون أن تدخل في مواجهة مفتوحة معه، وكانت تحدث أحياناً مناوشات أو اشتباكات سريعة تكلف البونيين بعض الخسائر، خصوصاً عند مهاجمة المفارز المعزولة. كانت خطة «فابيوس»، رغم الانتقادات الشديدة التي وجهها له المتضررون من عمليات السلب والتخريب التي يقوم بها عددهم، تهدف إلى المحافظة على أفضل المصادر البشرية للشعب الروماني بعد الخسائر الجسيمة التي تعرض لها منذ الشتاء الماضي. أما «هانيبعل» الذي لم يتمكن من إدارة الحرب مثلما أراد، فقد استقر في «آوبوليسا» واستولى على «جيرونيوم Geronium» الواقعة في سهل غني، وتحصن فيها وقرر أن يبقى فيها مع جيشه طوال فصل الشتاء.

لقد أثار هذا الموقف الذي وجد «هانيبعل» نفسه به غضبه. إضافة إلى أن الأخبار الواردة إليه من اسبانيا لم تكن تبعث على الرضى. فحين وصل القنصل «كورنيليوس سيبيون» إلى هناك عام 218 قام بمهاجمة القوات البونية التي يقودها «حنّون» بمهارة وأسر القائد القرطاجي نفسه. وفي السنة التالية، تمكن الرومان من التقدم بعد تحقيق عدة انتصارات بحرية بفضل مساعدة قدمها لهم حلفاؤهم «المساليين Massaliote» الذين كانوا يملكون سفناً سريعة، وبفضل التعزيزات التي وصلتهم في أسطول يضم عشرين سفينة وثمانية آلاف جندي بقيادة «بوبليوس سيبيون Publius Scipion» تمكنوا من التقدم إلى جنوب نهر «الإيبر» إلى أن وصلوا إلى أطراف مدينة «ساغونتي» حيث أنشأوا هناك قاعدة قوية واستمالوا إلى جانبهم عدة قبائل إيبرية.

إلا أن القنصلين اللذين انتخبا في عام 216 ق. م، وهما «اميليوس باولوس Aemilius Paullus» و«تيرنتيوس فارّون Terentius Varron» أفسدا الخطة التي وضعها «المتردد Cunctator» وسمحا لهانيبعل الدخول في أعظم معركة في هذه الحرب، بل، وكما يصفها علماء التأريخ الحربي، أعظم معركة في العصور القديمة كلها. ففي بداية الصيف، وحين حلّ وقت الحصاد، تركت الفرق البونية معسكرها «جيرونيوم» كي تستولي على بعض الأرزاق وقرر «هانيبعل» أن يجبر خصمه على بدء

المعـركة، فاستولى على قلعة «كاني Cannes» الواقعة على ضفاف نهر «الأوفيدوس Aufidus» [أوفانتو Ofanto]، ولم تكن هذه القلعة مجرد قاعدة استراتيجية هامة، بل أيضـاً مستـودعاً للأقوات التي كان الرومان قد خزنوها. فقرر القناصل، بتحريض من «فـارّون» بشكـل خاص، أن يبـاشروا المعركة، ودفعوا إلى أتونها بثمانية فيالق. ولم يكن الجيش الـرومـاني قد حارب أبـداً بمثل هذه القوة من قبل، وكان كل فيلق يضم في الأصـل خمسـة آلاف رجـل، وضُـوعف هذا العـدد بجنود حلفاء، فكان الجيش الـرومـاني يضم على هذا الأسـاس حوالي ثمـانين ألفـاً من المشـاة وستـة عشر ألف فارس، أما الجيش البوني فكان يُعد أكثر بقليل من خمسين ألف رجل من بينهم عشرة آلاف فارس.

حدثت هذه المعركة الشهيرة في 2 آب 216 ق. ، على ضفة نهر «الأوفيدوس» في سهـل واسـع ملائم متحـركـان الفـرسـان، كالعـادة، وضع «هانيبعل» خيالته في الأجنحة: الإيبريين والغاليين على ميسرة الجيش، والفرسان النوميديين في الميمنة، ونظّم مشـاتـه على جبهـة تشبـه القـوس أو الهـلال تحـدُ به باتجاه العدو، وعلى هذه الجبهـة كانت توجـد وحـدات عسكـريـة ذات أصـول إثنيـة مختلفيـة ومستوى قتالي متبـاين؛ ففي الـوسط وضع «هانيبعل» مشاة إيبريين وغاليين، وعلى الميمنة والميسرة كان المشـاة الأفـريقيـون. وكانت خطة القائد البرقي تتضمن إثارة العدو ودفعه بتركيز هجـومـه على القسم الأوسـط، أي المحـدب من هذه الجبهـة المخـالفـة للتقـاليـد الحـربية، ففي هذا الجزء كانت توجد العناصر الضعيفة والتي سكون دورها التعرض للهجـوم ومن ثم التـراجـع أمـام هجمـات العدو، أي أن التشكيل الأوسط المحدب باتجـاه الأمـام كان عليـه أن يتحـول حسب خطة «هانيبعل» إلى جيبٍ يمتص الجنود الـرومـان الـذين سيندفعون واثقين من امكانية اختراق الخطوط البونية واحراز النصر. لكن الـوحـدات الأفـريقيـة، وهي خيرة الجيش القرطاجي، ستقوم بمهاجمة المشاة الـرومـان على جانبي الجبهـة الـرومـانية التي كانت تأخذ شكل زاوية رأسها للأمام، وبـالتـالي حصـرهـا بين فكي كمـاشـة بينمـا تقوم الفرسان المتمركزون في الأجنحة وبحركة تطويق سريعة بإقفال ذلك الجيب.

دارت المعركة كما خُطط لها، وأثبتت هذه الخطة العبقرية الحربية التي كان يتمتع بها «هانيبعل». لقد أبيد معظم الجيش الروماني حين فرض عليه القائد البرقي، بشكل من الأشكال، التحركات التي بدت لهذا الجيش مؤدية إلى النصر، ولكنها قادته، في الحقيقة، إلى الهزيمة. وحينما طُوق الجيش الروماني من كافة الجهات استسلم للمذبحة فكانت الخسائر تبعث على الرعب، فحتى لو أننا وجدنا رقم السبعين ألف قتيل الذي ذكره «بوليبيوس 117, 4, III» مبالغاً فيه، فإن «تيت ـ ليف» (الذي يستقي معلوماته من مصادر أخرى) يتحدث عن سبعة وأربعين ألفاً وسبعمائة قتيل، كان من بينهم القنصل «إميليانوس باولوس» وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ «49, XXII» . أما جيش «هانيبعل» فكان قد فقد خمسة آلاف وسبعمائة رجل من بينهم أربعة آلاف غالي.

وفي اليوم الذي تلى معركة «كاني»، طلب «ماهر بعل» من «هانيبعل» مواصلة السير إلى «روما». غير أن القائد القرطاجي رفض ذلك، فقال له «ماهر بعل»: «إن الآلهة لاتمنح الإنسان كل شيء، إنك يا هانيبعل تعرف كيف تنتصر ولكن لاتُحسن الإستفادة من انتصارك». لقد كان قائد الجيش البوني يُبدي تعقلاً، إذ أنه يدرك حدود مواهبه. فروما لم تكن مدينة يمكن الإستيلاء عليها بحركة خاطفة. وإذا حوصرت، فإن أسوارها التي بلغ طولها أحد عشر كيلومتراً، والتي تم تعزيزها، تجعل من أية عمليات حصار ضرباً من الخيال، أو لنقل في أكثر الإحتمالات، قد يستغرق حصارها وقتاً طويلاً جداً، ومثل هذا العمل لم يكن يتناسب مع أساليب الحرب التي



قرطاجة: جُعل من البللور الصخري
يمثل محارباً مسلحاً ويعتمر خوذة

كان «هـانيبعـل» يتميـز بهـا وهي عمليـات ذات نتـائـج مؤكدة تُنفذ خططها متعددة، وتوضع وتُدرس بأدق تفاصيلها ـ وكأنها لعبة كبرى مليئة بالشراك بالنسبة للمتهورين، حيث يحرز النصر فيها الأكثر دهاء والأكثر إبداعاً ـ على أن تكون هذه الخطط جريئة وتحمل المفاجآت المذهلة التي تشل قوى العدو. كما أن «هانيبعل» الذي كان يعد من وجهة نظر سياسة واسعة زعيم دولة، كان يدرك أن لديه الكثير ليفعله عدا الزحف إلى «روما».

لقـد احـدثت معـركة «كاني» دوياً هائلاً، حتى أن العديد من الشعوب الخاضعة للرومـــان انضمت إلى معسكـــر خصــومهم. مثـل مدن «أبـوليـا Apulie» و«سمينـوم Samnium» و«لـوكـانيـا Lucanie» و«بـروتيـوم Bruttium». وبالمقابل، بقيت المدن الإغـريقيـة على موقفهـا؛ فقد كانت تخشى أن يسلمها «هانيبعل» إلى القبائل الغالية والسمينــة المستعـــدة دومـــاً لممـارسـة عمليـات النهب، في حين أن المجمـوعـة الارستقـراطيـة التي كانت تسيطـر على المدن كانت تشارك الفئات الرومانية الحاكمة وجهـات النظـر. وفي «كـابـوا Capoue»، وهي ثاني أكبـر المدن الإيطالية، استقبل «هـانيبعـل» استقبـالاً حافـلاً من قبـل أنصـاره الكُثر هناك، إذ أن زعماء المدينة كانوا يسعون، بإظهار حقدهم على الجمهورية الإيطالية، لأن تحل مدينتهم مكان «روما».

كان على القائد البرقي، كي يحطم التحالف الروماني المزعزع ـ رغم أن هذا التحـــالف كان لايـــزال لديـــه امكـــانيـات قويـة في إيطـاليـا الـوسطى من الــلاتين والأتروسكيين والأومبريين Ombriens والسابليين Sabelliens، كان عليه أن يشرك وفي وقت سريـع كافـة قواتـه في الهجوم ضد مناطق القادمة. لذا طلب من قرطاجة امداده بالمســاعـدات مبـاشرة لأنه لـم يتمكن من الحصول عليها براً من اسبانيا بسبب تمركز فيـالق «سيبيـون» على ساحـل المتـوسـط شمـال مدينـة «ساغونتي». ورغم معارضة «حنّـون الكبيـر» وافق مجلس الشيـوخ القرطاجي، الذي كان يقدر قيمة الإنتصارات التي حققهـا «هـانيبعـل»، على إرسـال التعـزيزات وشرع بتجميعها، كما قرر ارسال جيش وأسطـول من اسبـانيـا فوراً بقيـادة «هيميلكـون» لتبـديل الوحدات التي يقودها

«هـاسـدروبعـل» الذي كان على وشك الوصول إلى إيطاليا، وأخيراً، وبعد أن يتلقى «هـانيبعـل» المسـاعـدات من هذين الجيشين، كان عليـه أن يضعف مقاومة خصمه بتـوجيـه قوات أخـرى ضده من كل مكان، ومن ثم تجهيز حملة إلى جزيرة «سردينيا» لتنضم إلى السكـان الثـائـرين، وتنطلق تحت قيـادة «حنّـون» و«هـامبسيكـورا Hampsicora» لمهاجمة فرق الحاكم الروماني.

عُزز موقف «هـانيبعـل» في عام 215 ق. م. فمن جهة، تم عقد معاهدة رسمية بين «قرطاجة» و«فيليب المقدوني» الذي كان يجهز أسطولاً للنزول في «إيللوريا Illyrit» بهـدف شن هجمـات تخـريبية على الساحل ومن ثم النزول في إيطاليا. وبعد وفاة «هيـرون» حاكم صقلية تولى الحـاكم الشـاب «هيرونيموس Hieronymos» السلطة لفتـرة قصيرة وعقد اتفاقية مع «قرطاجة» على عكس أبيه، وتنص على أن يسيطر تماماً على الجـزيـرة كلها، وقامت «سيراكوز» بإجراء اصلاحات جمهورية ودخلت الحرب ضد «روما» التي وجدت نفسها محرومة من أهم مصادرها من القمح.

وبقي على «هـانيبعـل» أن يضـع يده على مرفأ جيـد لتبقى صلاته مضمونة مع قرطـاجـة. وبمـا أنـه كان يعلم أن المـدن الإغـريقية كانت مترددة في دعم المعسكر البوني، كما أن كلاً أن «نابولي» و«ريجيون» لم تكن تستطيع الإنفكاك عن روما. فقد كان عليه بعد أن احتل «لوكرس Locres»، و«كروتوني Crotone» عام 215 ق. م، حيث حدث شقـاق بين الفئـة الارستقـراطية المسيطرة وعامة الشعب، ـ كان عليه أن ينتظر إلى عام 213 ق. م كي يستـولي على مدينـة «تـارانتي Tarente» وهي أهم المـدن الساحلية. على إثر مؤامرة، (باستثناء قلعتها حيث كانت توجد حامية رومانية قوامها خمسـة آلاف رجـل وتسيطـر علـى المـرفـأ)، وفي ربيـع عام 212ق. م، دخـل «هـانيبعـل» أيضـاً إلى «هيـراكلي Heraclee» و«ميتـابـونتي Metaponte» و«توريوي Thurioi». غير أن قوة القائد البرقي بقيت محدودة رغم هذه النجاحات التي فككت الإئتلاف الإيطالي، إذ لم تبلغ ذروتها إلا وكان الانحسار قد بدأ.

لم يتلقّ «هـانيبعـل» الـذي كان ينتظر تعزيزات الجيشين، سوى فصيل مؤلف من أربعـة آلاف نوميـدي وأربعين فيـلاً، وكـان المـوقف في اسبانيا عام 215 ق. م قد

أجبـر «قـرطـاجـة» على تغييـر أهدافها، إذ أن «هاسدروبعل» كان قد اصطدم بفيالق «سيبيون» جنوب نهر «الإيبر» وهزم. ولم يكن الأمر بالنسبة له أن يصل إلى أخيه، إذ أنـه كلف بالتدخل ضد «سيفاكس Syphax » ملك «المازايزيليين ـ النوميديين» الذي كان قد هاجم الممتلكات القرطاجية في أفريقيا. ولذلك، ومن أجل مواجهة الموقف المقلق في مسـرح العمليـات هذا، تم تجميـع قوات ضخمة في قرطاجة تضم اثني عشـر ألف جنـدي وألف وخمسمئـة فارس وعشرين فيلاً وستين سفينة حربية، وكانت هذه القـوات مخصصـة في البـداية للانتقـال إلى إيطـاليـا، غيـر أنهـا توجهت إلى «اسبـانيـا» بسـرعـة بقيـادة «مـاغون» الإبن الثالث لـ«هاملقار برقا»، وعلى الأقل كان بوسـع هذه الفـرق التي عُززت أيضـاً بوحـدة عسكـريـة بقيـادة «هاسدروبعل» شقيق «جيسكـون» ، بعـد ثلاث سنـوات، في عام 211 ق. م، كان بوسعهـا أن تعـدل من المـوقف بشـدة. وهكـذا تمكنت هذه القـوات أن تلحق الهـزيمـة بالجيشين اللذين يقودهما «سيبيون»، إذ أبيدا مع ضباطهما بعدما تخلى المرتزقة الكلتوايبريين عنهما. وبـالمقـابـل، فإن الفـرق القـرطـاجيـة التي ارسلت إلى سردينيا في عام 215 ق. م، وصلت متأخـرة إلى هنـاك، إذ أن القـافلة جنحت إلى شواطيء جزر «الباليار» بسبب تعرضها للعواصف، حيث سُحقت في أول معركة.

وعلى الرغم من ترتيب الأوضاع في اسبانيا، فإن عام 211 ق. م، كان يحمل خيبـة عظيمـة للقائد البرقي، إذ أن روما جهزت أقوى جيش في تاريخها، مؤلف من خمسـة وعشـرين فيلقـاً ضم مع الوحدات الحليفة قرابة مئتي ألف رجل، كما قررت الإقتصـاد باحتيـاطهـا البشـري، فلجأت مرة أخـرى إلى تكتيـك «المتـردد» الحذر، وكـانت الفـرق القـرطـاجيـة تتعـرض للخسائر دون أن تتمكن من تعوضيها في حرب الاستنزاف تلك. أما الشعوب والمدن التي تخلت عن «روما» بعد الإنتصارات البونية في الحرب «المكشوفة»، فقد بدأت تنحسر على لحاقها بهانيبعل في مشروعه الذي أصبح مغامرة. ففي عام 214 ق. م، هاجم الرومان «كاسيلينوم Casilinum » [«كابوا» الحالية]، واستعادوا «آربي Arpi » في عام 213 ق. م، ثم استولوا على بعض المواقع في «كامبانيا». قاومت «كابوا» لمدة ثلاث سنوات، وتعرضت في عام 211 ق. م إلى

المجاعة بعد أن حوصرت من قبل ستة فيالق رومانية، فاستنجدت بهانيبعل الذي لم يتمكن من كسر الحصار عنها، فحاول القيام بحركة لتحويل انتباه الرومان، فتوجه بسرعة نحو «روما»، ولم يكن بالتأكيد يبغي مهاجمتها بل إقلاق «مجلس الشيوخ الروماني» بتهديده المفاجيء مما قد يضطره إلى سحب القوات التي تحاصر المدينة الكامبانية. غير أن الحصار لم يُرفع، واستسلمت «كابوا» بعد وقت قصير، وانتحر أشراف المدينة تجنباً لإنتقام الرومان، وقُبض على من بقي منهم وجُلدوا قبل أن يتم قطع رؤوسهم. وانحط شأن هذه المدينة اللامعة، شريكة روما، إلى مجرد ضاحية زراعية ونُفي قسم من سكانها، كما استولت الدولة على جميع أراضيها.

مع ذلك، حقق هانيبعل بعض الإنتصارات، إذ تمكنت قواته في عام 209 ق.م، من إبادة جيش روماني يقوده «كنايوس فولفيوس Cnaeus Fulvius» بفضل خطة ذكية، وذلك تحت أسوار مدينة «هيردونيا Herdonea» في منطقة «آبوليا»، وقتل في هذه المعركة الوالي الروماني مع أحد عشر قاضياً عسكرياً، إلا أن الموقف في إيطاليا الجنوبية، رغم بقاء «هانيبعل» سيد الموقف هناك، أصبح صعباً، إذ فقد عام 209 ق.م، مدينة «تارانتي»، وحُصر منذ تلك اللحظة في معقل جبلي في إقليم «كالابريا Calabre».

ولم يتمكن «فيليب المقدوني» من الإيفاء بتعهداته، إذ واجه تحالفاً ضم «الإيتولويين Etoliens» ومملكة «بيريام Pergame» عُزز بدأ من عام 210 بأسطول روماني قام بشن عمليات تخريب ونهب واسعة النطاق في بحر «أيجة» فأُجبر «فيليب» على توقيع معاهدة سلام مع روما في عام 205 ق.م، سُميت «المعاهدة الفينيقية» بعد أن أدرك أنه ليس بإمكان التمويل على مساعدة الأسطول القرطاجي الذي كان تدخله ضرورياً ليستطيع الدخول مباشرة في حرب «ايطاليا».

لم يقم الأسطول القرطاجي طوال هذه الحرب إلا بدور بسيط، إذ أن قادته كانوا قليلي الخبرة، ضعفاء، ويخشون من نتائج أية هزيمة محتملة، وكانوا دون شك أقرب إلى تفكير الأقلية الحاكمة القرطاجية المحافظة من تفكير الأوساط المؤيدة

لهانيبعل. ولدينا مثال على ذلك في العمليات التي قام بها هذا الأسطول في «صقلية».

فحينمـا قطعت سيـراكـوز علاقـاتهـا بروما، حاول القنصل الرومـاني «م. كلاوديوس مارسيلوس M. Claudius Marcellus»، الذي لم يتمكن من تعزيز دفاعاته بالتقنيات التي اخترعها «أرخميدس». فحاول أن يفرض الحصار على هذه المدينة، فقررت قرطاجة بذل كل جهودها لمساعدة حليفتها. فتم توجيه جيش قوي قوامه خمسة وعشرين ألف جندي وثلاثة آلاف فارس وعشرون فيلاً بقيادة ضابط اسمه «هيميلكون»، كان يتمركز بأسطوله منذ زمن بعيد في «رأس باكينوس Fachynos» [على الطرق الجنوبي من صقلية]، واستطاع في عام 213 ق. م، أن يحتل «هيراكلي Heraclee» و«آغريجانتي»، غير أنه لم يتمكن من فك الحصار عن «سيراكوز»، وأخفق في محاولته الثانية في العام التالي إذ قُضي على الجيش القرطاجي الذي كان معسكراً في أرض مستنقعية بسبب إنتشار الأوبئة. وكان هذا أول اخفاق لقرطاجة. وفي ذلك الوقت، تلقى القائد البحري «بوملقار» أمراً بالتدخل عن طريق البحر، وتمكن من الدخول إلى مرفأ المدينة على رأس أسطولٍ ضم خمسا وخمسين سفينة، غير أنه خشي مواجهة الأسطول الروماني المتفوق عليه عدداً، فرجع إلى عرض البحر ليطلب المدد من قرطاجة، وكان عليه أن يعود مرتين، ومعه مئة سفينة ثم مئة وثلاثين. مع ذلك، ورغم تفوقه على خصمه رفض الدخول في المعركة. كتب «تيت ـ ليف»: «حينما رأى «بوملقار» الأسطول الروماني متوجهاً نحوه تملكه خوفٌ شديد لم يعرف أحد سببه، فأمر سفنه بالتوجه إلى عرض البحر» [12, 28, XXV]. فوصل إلى مدينة «تارانتي». وأدى هذا التهرب إلى نتائج خطيرة. فبعد وقت قصير، في عام 212 ق. م، قام «مويريكوس Morricus». وهو قائد اسباني لمجموعات المرتزقة بتسليم المدينة إلى الرومان، بعد أن حُرم من كل مساعدة. وأخيراً، وفي عام 210 ق. م، سقطت «آغريجانتي» بعد مقاومة طويلة بسبب خيانة قائد الفرسان النوميديين «موتّينس Muttines» والذي كان قد أُقيل ظلماً من قبل الحاكم «حنّون»، وبهذا تكون صقلية قد ضاعت إلى الأبد من يد قرطاجة.

في نهاية تلك السنة ـ 210 ق. م ـ نزل في اسبانيا «بوبليوس كورنيليوس سيبيون Publius Cornelius Scipion »، وكان والده وعمه قد لقيا مصرعهما في كارثة عام 211 ق. م. وكان الموقف سيئاً جداً هناك رغم وجود الحاكم «ك. كلاوديوس نيرو C. Claudius »، فعمدت الجمهورية الشعبية في روما، غير عابئة بنصوص الدستور، إلى ذلك الشاب الذي ينتمي إلى طبقة الأشراف، بمهمات استثنائية، وكان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن قد مارس في حياته سوى وظيفة قاضٍ بلدي، غير أن «سيبيون» لم يكن حديث العهد بالحروب، فقد شارك في معارك «تيسّان» و«تريبي» و«كاني»، وكان يدرك أسباب انتصارات «هانيبعل». لقد وجدت روما فيه الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية كي يقلب موازين الأقدار. فانطلق على رأس فيلقين انضما فيما بعد إلى الجيش الروماني الموجود في شبه الجزيرة الإيبرية.

استغل «سيبيون» تشتت الجيوش البونية الثلاثة، وكان اثنان منها بقيادة «هاسدروبعل برقا» و«ماغرن»، شقيقي «هانيبعل»، أما الثالث فكان بقيادة «هاسدروبعل» شقيق «جيسكون»، فقرر توجيه ضربة إلى مركز العائلة البرقية. فترك في ربيع عام 209 ق. م «تارّاغون Tarragone »، حيث عسكر طوال فصل الشتاء، واجتاز نهر «الإيبر»، واتجه مباشرة إلى مدينة «قرطاجنة»، ورغم المقاومة العنيفة التي لم تكن متوقعة، والتي كادت أن تفضي إلى اخفاق خطة القائد الشاب، استسلمت عاصمة اسبانيا البونية، ووضع «سيبيون» باحتلالها يده على ثروة العائلة البرقية واستحوذ على غنائم هائلة، كما أن الحرفيين والصناع المهرة الذين كانوا يعملون في ورشها أصبحوا جميعهم في خدمة الأسياد الجدد.

امضى «سيبيون» صيف عام 209 ق. م بتدعيم الإنتصار الذي حققه، مستفيداً من الاسلوب السياسي الذي كان «هانيبعل» قد اتبعه مع القبائل الغالية السيزالبية، إذ سعى إلى كسب ثقة الشعوب الإيبرية النازلة في المنطقة وخصوصاً زعمائها.

وفي ربيع العام التالي ـ 208 ق. م ـ تقدمت القوات الرومانية في داخل البلاد، واتجهت إلى وادي الـ«بايتس Baetis » [الوادي الكبير] للإستيلاء على مناجم الفضة الشهيرة في «ترشيش» القديمة، التي كانت أحد أهم أسباب ثراء قرطاجة. فوصل

«سيبيـون» إلى «بـايكـولا Baecula » [بايلين Bailen الواقعة على بعد مئة كيلومتر إلى الشـرق من قرطبـة]، فاصطـدم هنـاك بجيش «هـاسـدروبعـل برقـا»، غيـر أن قيادة «سيبيون» الذكية أدت إلى انتصار الفيالق الرومانية. بيد أن هذا النصر لم يكن حاسماً ولم يمنع «هاسدروبعل»، الذي كان يهدف بالدرجة الأولى إلى ارسال المعونات إلى شقيقـه «هـانيبعـل»، من شق طريقـه والإفـلات مع القسـم الأكبر من قواته باتجاه نهر «التاجو» وجبال «البيرنيه».

إن هذا الهـدف التي تمكن القـائـد البـرقي من تحقيقـه أقلق الـرومان كثيراً. وازداد هذا الـقلق في تلك السنـــة ـ 208 ق. م ـ حينمـــا وقعت فيـــالق القنصلين «م. كلاوديـوس مارسيلّوس» و«ت. كانكتيـوس كريسبينـوس T. Quinctus Crispinus » في كمين بينمـا كانـا يُعـدان لمهـاجمـة معسكر «هانيبعل». لقد حل الدمار بالبلاد، كما أنهـك الشعب من الحـرب، وأعلنت اثنتا عشرة مدينة لاتينية عن سخطها من الأعباء الحربية والمالية التي فرضها عليها مجلس الشيوخ الروماني ومن ابتعاد جنودها عنها في صقلية. لقد كانت حالة الإنهاك هذه تهدد، إذا ماتمكن «هاسدروبعل» من ضم قواتـه إلى جيش أخيـه، بتحقيق انتصـار ساحق. لقـد استنفذ البونيون تحالفاتهم في إيطاليا الوسطى، أما روما فكان عليها أن تقاسي من أيام الحرب السيئة.

اجتـاز «هـاسـدروبعـل» بعـدمـا قضى شتـاء 207-208 ق. م في جنـوب بلاد «الغـال»، اجتـاز جبـال الألب باتجـاه وادي «البـو»، وضيـع هنـاك وقتـاً ثميناً بفرضه الحصار على مدينة «بليزانس»، ثم وصل إلى ماوراء مدينة «ريميني» في بداية صيف 207 ق. م، حيث وجـد الطـريق مسـدوداً بقـواتٍ رومـانيـة تفوقه عدداً وعدةً، يقودها القنصلان الرومانيان، وقام القنصل «نيرو»، لتحاشي تحطيم مقاومة الفيالق الرومانية الستـة التي يقـودهـا القنصل «م. ليفيوس ساليناتور M. Livius Salinator »، بضم فرقة مؤلفـة من خيـرة قواتـه إلى جيش زميله. إن هذه الخطة الجريئة، رغم أنها أضعفت جبهة إيطاليا الجنوبية، نجحت نجاحاً ساحقاً. إن هانيبعل لم يكن على علمٍ بقدوم أخيـه، إذ كان الـرومـان قد قبضوا على رسل «هاسدروبعل»، لذا فلم يبذل أي جهد لمـلاقـاته. وحاول «هاسدروبعل» تجنب الفيالق الرومانية، غير أنه أُجبر حين وصوله

إلى ضفـاف نهـر «الميتور Metaure» على القتال على أرض يجهلها تماماً، واندلعت معـركـة ضاريـة انتهت بتبديد الجيش البوني، بفضل قيادة القنل «نيرو». وحينما رأى «هـاسـدروبعـل» انهيـار آمـالـه التي وضعت قرطـاجـة في سبيل كل قواها، انقض وبطـريقـة تليق بوالـده «هاملقار» وشقيقه «هانيبعل». يقاتل حتى سقط وسلاحه بيده» [تيت ـ ليف 4, 49, XXVIII]. [كمـا نقـل «بـوليبيوس 3, 2, XI» خطبة القائد البرقي]. وحسب الأعـراف التي كانت متبعـة، أرسـل «نيرو» رأس «هاسدروبعل» إلى معسكر «هـانيبعـل» مع أسيـرين أفـريقيين محـررين لإعـلامه بالكارثتين، العامة والخاصة، اللتين حلتا به في نفس الوقت.

أمـا بالنسبـة لـ«سيبيـون» فلم يكن إفـلات «هاسدروبعل» من يده ليحدث إلا تغيـراً طفيفـاً في خطتـه التي كان هدفهـا الأسـاسي تدميـراً منظمـاً لما كان يُعرف في اسبانيا بـ«امبراطورية البرقيين» قبل أن يوجه ضربة قاضية إلى «قرطاجة». وتمكن في عام 206 ق. م من إنهاء القسم الأول من خطته تلك. كما لحقت الهزيمة بآخر جيش بوني كان لايـزال موجـوداً في شبه الجزيرة الايبرية بقيادة القائدين القرطاجيين. وكان يضم حوالي خمسين ألف جندي وأربعة آلاف فارس [تيت ـ ليف 14-13, 12, XXVIII]، إذ هوجم بالقـرب من «إيليبـا Ilipa» [التي ربمـا تقـع على ضفـاف نهـر الـوادي الكبير]، وأُبيد إبادة تامة. لقد اتبع «سيبيون»، مقتبساً خططه من «هانيبعل»، تكتيكاً كان حتى ذلـك الـوقت مجهولاً، إذ كانت كتائب كل فيلقٍ روماني، وعددها ثلاثون، تتحرك وتغير من انتشارها بشكل دائم خلال المعركة.

بعـد هذه الكـارثـة التي أبدى فيها «ماغون» بسالة عظيمة. التجأ إلى «قادس» مقتفياً أثر زميله «هاسدروبعل»، وحاول متابعة الحرب بتجميعه بعض الفرق من بين القبـائـل الإيبرية، وطالبا العون من قرطاجة بمده بقواتٍ أفريقية، إذ أن القائد البرقي كان قد سمـع بانتشـار التمـرد في بعض الـوحـدات الـرومانية، بحيث قام «سيبيون» بإعـدام قادتهـا. كمـا أن بعض الـزعمـاء الإيبـريين، مثـل «أنـديبليس Indibilis» و«مـانـدونيـوس Mandonius» اللذين تزعمـا قبائل «الليرجينيين Ilergetes» في إقليم «سـراغـوزا Saragosse» اعتقدا أن الوقت أصبح مناسباً لينال شعبهما الاستقلال، إذ

لم يكونا يودان استبدال الهيمنة القرطاجية بالاحتلال الروماني . وقد استثمر القرطاجيون كل هذه العوامل، إذ هدف «ماغون»، بإنهاكه الجيش الروماني، إلى إبقائه بعيداً عن إيطاليا أطول فترة ممكنة . غير أن هذه الخطة انهارت سريعاً، فلم يتمكن القائد البوني من مهاجمة «قرطاجنة» بأسطول صغير، وحين عودته إلى «قادس» مُنع من دخول هذه المستوطنة الصورية القديمة، إذ كان قد أنهك سكانها وفرّغ خزائنها وأجبر زعماءها على تسليم أموالهم لتغطية نفقات الحرب . وقام أهلها بصلب القضاة «suffetes» وجباة الأموال البونيين وسُلِّموا بعد ذلك إلى الرومان ـ مثلما سوف تفعل «أوتيكا» عشية دمار «قرطاجة»، لذا توجه «ماغون» إلى جزر الباليار، وقضى هناك شتاء 205-206 ق . م ، في «مينورقا» حيث باشر من جديد بحشد قواته .

وفي ربيع عام 205 ق . م ، انزل القائد القرطاجي، بواسطة اسطول ضم ثلاثين سفينة، قوة قدامها حوالي خمسة عشر ألف رجل على ساحل «ليغوريا Ligurie » واستولى دون جهد على مدينتي «جينز Genes » و«سافوني Savone »، فأحدث وصوله هياجاً شديداً في روما، ورابط بعد ذلك في هذا الإقليم إذ وجد بعض التأييد في أوساط الليفوريين والغاليين، كما تلقى من قرطاجة مساعدة قوامها ستة آلاف رجل وثمانمائة فارس وسبعة أفيال نُقلت بواسطة أسطول من خمس وعشرين سفينة، إضافة إلى أموال لتجنيد المرتزقة . مع ذلك، لاشيء يسمح لنا أن نقول بأن هدفه كان الإلتقاء بـ«هانيبعل»، فلقد أمرته الحكومة القرطاجية بالتقدم إلى روما، مما يخلق حالة من الفوضى قد تخفف من ضغط الفيالق الرومانية عن «هانيبعل» . إن هذا التواجد البوني كان يحتم على الرومان التركيز على جبهة ثانية مما يفاقم لديهم مخاطر توجيه حملة إلى أفريقيا، وتفريغ إيطاليا من الجيوش، وبقي «ماغون» على هذه الحالة سنتين، وفي نهاية عام 203 ق . م ، تلقى أمراً بالعودة مع فرقه إلى قرطاجة، وكان يشكو من جرح خطير أصيب به في معركة في بلاد الغال السيزالبية . فتوجه إليها تاركاً كل شيء وراءه لقائد آخر اسمه «هاملقار» الذي واصل حرب العصابات ضد روما بمساعدة سكان إيطاليا الشمالية . غير أن شقيق «هانيبعل» لم ير

قرطاجة، إذ توفي، كما يروي لنا «تيت ـ ليف» متأثراً بجراحه خلال رحلته إلى أفريقيا.

لقد كان انتصار الرومان في «إلبيا Ilipia» يعني بالتحديد انهيار الامبراطورية البونية في اسبانيا. هذه الامبراطورة الغنية التي أسسها البحارة القادمون من صور قبل تسعمائة عام. لقد تحطم حلمٌ عظيم، ولكن كانت كل الآمال مشروعة في نظر «سيبيون» الذي قدم لاقتلاع ماحاول البرقيون منذ عام 237 ق. م. بناءه، وليحوله لمصلحة روما، وكان عليه أن يسلك الطريق التي سار عليها البرقيون، ليصل بدءاً من اسبانيا إلى هدفه النهائية «قرطاجة».

ولكي لاتتحول هذه المرحلة الأخيرة إلى مغامرات مأساوية مثلما فعل قبله «آغاثوكلس» و«ريغولوس»، كان على روما أولاً أن تجد لها حلفاء مضمونين في أفريقيا ليساعدوها في تحقيقها. ولهذا فعل «سيبيون» مثلما كان «هانيبعل» يفعل، فهذا الأخير لم يترك «قرطاجنة» باتجاه إيطاليا إلا بعد أن تلقى ضمانات أكيدة بالمساعدة من الغاليين السيزالبيين.

نشأت في «نوميديا»، خلال القرن الثالث ق. م، «مملكتان» كانتا تتشكلان من ائتلافين قبليين هامين: مملكة «المازايزيليين» في بلاد البربر الغربي والتي كانت عاصمتها مدينة «سيغا Siga» التي تقع في وادي «تفنا Tafna» المنخفض في مواجهة القاعدة البونية «راشغون Rachgoun»، ومملكة «الماسيليين Massyles» في بلاد البربر الشرقي، وكان مركزهم السياسي في مدينة «سيرتا Cirta» [قسنطينة]. وكان «غايا Gaia» ملك الماسيليين، حليف قرطاجة، قد أرسل ابنه «ماسينيسا» للمشاركة مع الجيش البوني في حرب اسبانيا، وكان هذا الـ «Aguellid» [وتعني هذه الكلمة «الزعيم البربري الذي له مكانة دينية متوارثة إضافة إلى مكانته السياسية»] قد مات في بداية عام 206 ق. م على الأرجح. فنشأت أزمة حادة في الأسرة المالكة الماسيلية، إذ لم تحترم القواعد المتبعة والأعراف. ورأى «ماسينيسا» نفسه وقد أُبعد عن حقه في تولي حكم البلاد، فقرر العودة إلى أفريقيا. كما أن معركة «إلبيا» وضعت حداً للتواجد البوني في «اسبانيا». ولكنه قبل أن ينطلق إلى هناك، أجرى لقاء سرياً

مع حاكم الإقليم الروماني. ولقاء آخر مع «سيبيون» نفسه الذي لم يتردد بالسفر لمسافة طويلة بغية الإلتقاء بالنوميدي في «قادس».

وكانت تلك مناسبة عظيمة للأمير النوميدي ليشكر القائد الروماني لتحريره ابن أخيه الشاب «ماسيفا Massiva» الذي كان أسيراً مع جنود أفارقة آخرين. وكان «ماسينيسا» يشعر بضرورة الإستناد إلى تحالف قوي بعد رؤيته القوة البونية تتلاشى، فمن أجل استعادة السلطة على مملكة أبيه، كان عليه أن يعتمد على مساعدة «روما» فعقد الرجلان تحالفاً، وكان «سيبيون» يعلم أن «ماسينيسا» لديه خيرة فرسان «قرطاجة». [تيت - ليف، 35, XXVIII]، إذ كان القائد الروماني بأمس الحاجة للفرسان النوميديين.

ولم يشأ «سيبيون» أن يترك اسبانيا إلا بعد أن يوطد علاقاته بـ«سيفاكس» حاكم «المازايزيليين»، فأرسل وفداً برئاسة «كايوس لايليوس Caius Laelius» إلى أفريقيا حضر إلى البلاط الملكي لهذا الحاكم. غير أن النوميدي أعلمه بأنه لن يتعاقد إلا مع قائد الجيش ذاته. وكانت المجازفة من الخطورة بحيث قرر «سيبيون» أن يقوم بالرحلة بنفسه. فأبحر في أسطول صغير يضم سفينتين خماسيتين، وحين وصلتا إلى ميناء «سيغا» لمح الرومان أسطولاً يضم سبع سفن ثلاثية قرطاجية كانت قد سبقتهم. إذ أن «هاسدروبعل» شقيق «جيسكون» الذي كان قد تراجع بعد هزيمة «إليبا»، وكان قادماً من «قادس» في طريقه إلى قرطاجة، ورأى من الضروري أن يعرج لزيارة الزعيم النوميدي، وبهذا الشكل التقى الغريمان، الروماني والقرطاجي،



أوتيكا: جُعل من الحجر الرمادي المائل إلى الزرقة، مرصعٌ بالذهب ويمثل محارباً مسلحاً يجثو على ركبته. (ربما يشرع بإقامة شعائره الدينية).

على سواحل بلاد البربر، وكلٌ منهما ينافس الآخر طمعاً في الحصول على مساعدة هذا الإفريقي القوي.

إن هذا «المؤتمر المتوسطي» الذي عقد في صيف عام 206 ق. م، يتضمن عبراً غنية جداً عن التنظيمات السياسية التي تراكمت خلال سنوات الصراع الحربي الطويل، «وإنها لمساعدة ضخمة من كل نواحيها لمن كانت لديه أية طموحات في أفريقيا، إذ أن «سيفاكس»، أغنى ملوك تلك البلاد، كان قد جرّب بنفسه الحرب ضد القرطاجيين أنفسهم، وكانت لمملكته علاقات مميزة مع «اسبانيا»، ويتابع «تيت ـ ليف» وصفه المشوب بالمشاعر الوطنية للإستقبال الذي قام به «سيفاكس» لمضيفيه قائلاً: «ان «سيفاكس» يبدو جميلاً جداً، والسبب في ذلك أنه رأى قائدي أقوى شعبين في ذلك العصر يأتيان إليه في اليوم ذاته ليطلبا منه المودة والصداقة. لقد أكرم الاثنين معاً وعلى قدم المساواة، وسعى كما كان يقول، لأن القدر شاء أن يجتمعا تحت سقف واحد، سعى للتقريب بينهما، بهدف إنهاء عدائهما، الواحد تجاه الآخر، غير أن «سيبيون» أوضح أنه لايوجد لديه أي عداء شخصي ضد قرطاجة كي ينتهي هذا العداء بعلاقة صداقة، أما ما يخص الدولة، فلم يكن بمقدوره أن يفاوض عدوه أبداً دون أمر من مجلس الشيوخ. وفي المساء، وحينما اجتمع الضيفان على طاولة العشاء عند الملك، جلسا على نفس السرير بهدف إدخال السعادة إلى قلب مُضيفهما. وسحر «سيبيون» بدماثته وبراعته التي يتحلى بها في كل الأوقات وبسبب لهجة التواضع التي كان يبديها في نقاشه، سحر ليس فقط، «سيفاكس» البربري الذي لم يكن معتاداً على تلك الرقة في التعامل، بل أيضاً عدوه «هاسدروبعل». فلقد أعلن القائد القرطاجي أن هذا الرجل كان يبدو أكثر مودة وجهاً لوجه مما كان يبدو عليه في ميادين القتال، وتوقع أن يصبح «سيفاكس» ومملكته حليفي روما، لأن لـ«سيبيون» لساناً يسبي العقول، وأن على القرطاجيين أن يبحثوا عن أسباب فقدانهم لإسبانيا، كما أن عليهم أن يتساءلوا عن كيفية المحافظة على أفريقيا» ,17 ,18, 10] XXVIII].

مع ذلك، خرج «سيبيون» خاسراً من هذا التنافس لكسب ود البربري. إذ عُقد

تحالف بين «قرطاجة» والحاكم البربري ترسخ بالزواج، وكانت تلك عادة متبعة في العصور القديمة تتعزز بها العلاقات العامة بالروابط الخاص، إذ تزوج «سيفاكس» من «صفونسب» [صفونابعل] ابنه «هاسدروبعل».

عاد «سيبيون» إلى اسبانيا عام 206 ق. م، وانتخب قنصلاً لسنة أخرى، وبفضل التأييد الشعبي ورغم معارضة فئة «الفابيين» المحافظة التي تخشى مغامرات القائد الشاب ومايمكن أن تجره على الشعب من ويلات، فإن القنصل الروماني حكم مقاطعة «صقلية» حيث كان بمقدوره الإستعداد لنقل الحرب إلى الأراضي الأفريقية ذاتها. وخلال سنة 205 ق. م، (أو في ربيع السنة التالية) حذر «سيفاكس» ضيفه القديم «سيبيون» من مهاجمة أراضيه أو أراضي حليفته «إذ أن عليه في هذه الحالة القتال دفاعاً عن أرض أفريقيا التي ولد فيها مثل القرطاجيين، ودفاعاً عن وطن زوجته وفي سبيل أبيه وآلهته» [تيت ـ ليف XXIX 10, 23]. فلم يكن بمقدور «سيبيون» الإعتماد على الدعوة السابقة. وإضافة إلى ذلك حصل تصعيدٌ مفاجيء، إذ قام «سيفاكس» بتحريض من «هاسدروبعل» ومستفيداً من النزاع على عرش «الماسيليين»، قام باحتلال تلك المملكة، واتخذ من «سيرتا» عاصمة ثانية ونقل حدوده الشرقية لتصل إلى الأراضي البونية.

أما «ماسينيسا» فقد أجبر على الفرار مع بعض صحبه ليعيش حياة المنفى. ورغم إخلاص بعض الشعوب الماسيلية الخاضعة لحكم «سيفاكس» الصارم، فقد حاول ابن «غايا» [كما يورد تيت ـ ليف»، وعلينا أن نتعامل بحذر مع ماينقله لنا] ـ حاول أن يستعيد نفوذه في بلد أجداده، وأدرك أن تدخلاً رومانياً في أفريقيا هو وحده الذي يستطيع أن يعيد إليه حقوقه. وبهذا الشكل اتخذ الأمير الشاب، الذي بدا أن قدره مرتبط بقدر روما، قراره بتقديم كل مابوسعه لإنجاح مشروع «سيبيون» الذي كان بمقدوره الإعتماد على ذلك بشكل أكيد.

وبينما كان «سيبيون» يُعد بنشاط حملته على أفريقيا، قرر أن يقوم بعملية ضد ميناء «لوكريس Locres» التي لم تكن في حالة تأهب، ونجحت الفرق الرومانية، مستفيدة من تواطؤ بعض السكان وبمساعدة الأسطول، من احتلال المدينة بعد

قتالٍ عنيف. وتمكنت الحامية البونية التي لم تتلق أية مساعدة من «هانيبعل» من الإنسحاب منها، وُوضعت المدينة تحت قيادة الوصي «بليمنيوس Plemenius » الذي أباحها للمتطوعين. فقام وفدٌ من أهالي المدينة بإبلاغ مجلس الشيوخ الروماني بالتعسف الذي تتعرض له المدينة. فطالب، إثر ذلك، «فابيوس كونكتاتور Fabeus» Conctator وجماعته بعزل «سيبيون» وإحالته إلى القضاء. فاتجهت لجنة مدينة إلى «لوكريس» ثم إلى «سيراكوز» حيث استقبلت بتحفظ ودعيت لحضور بعض المناورات الحربية التي نظمت خصيصاً لتشاهدها اللجنة المذكورة، فتأثر المحققون باستعراض القوة ذاك، ولم يتابعوا مهمتهم في التحقيق، فتم تناسي القضية الأصلية برمتها.

مازلنا حتى الآن في عام 205 ق. م، إذ تم توجيه حملة استطلاعية وتخريبية إلى الساحل الأفريقي، في إقليم «هيبّون Hippone »، بقيادة صديق «سيبيون» الحميم «ك. لايليوس» كما جرت خلال هذه الحملة بعض الإتصالات مع «ماسينيسا» الذي ربما كان يختبيء في جبال «خروميري Khroumirie » . وكان النوميدي يشكو من تباطؤ «سيبيون» في الإنتقال بجيشه إلى أفريقيا، وألح على بدء تنفيذ تلك العملية، إذ أن «سيفاكس» كان منشغلاً بالنزاعات مع السكان المحليين.

في سنة 204 ق. م، وهي السنة السادسة للحرب، جُددت قيادة «سيبيون» الذي قرر أن يضع خطته موضع التنفيذ، فأخذ يحشد قواته في «ليليبي». ويختلف حجم هذه القوات باختلاف روايات الكتّاب القدماء، فبعضهم يذكر أنها كانت تضم خمساً وثلاثين ألف جندي وفارس. وتم نقل الجنود أمام حشود هائلة من السكان المحليين الذين قدموا من كل أنحاء «صقلية» لمشاهدة هذا المنظر العظيم وليرفعوا أيضاً من معنويات القائد الروماني.

تمكنت السفن االتي يبدو أنها تأخرت بسبب الضباب الكثيف من الرسو قرب رأس «فارينا» شمال «أوتيكا». أما «ماسينيسا» الذي عرف بقدوم القوات الرومانية قبل القرطاجيين أنفسهم، فقد بادر باللحاق بها مع زمرة من أنصاره. يقول «تيت ـ ليف»: «إن الحادثة التي بعثت الرضا في قلوب الرومان، في بداية الحملة، هي وصول

«مـاسينيسـا»، فالبعض كان يقـول أنه وصل مع مئتي فارس، والآخرون يؤ كدون أنه وصل مع قوة من الفرسان النوميديين تزيد عن الألفين» [4, 29, XXIX] . أما قرطاجة، من جهتهـا، فقـد قامت بإجـراءات دفاعية وحشدت جيوشها، كما أُخطر «سيفاكس» الذي توجه لينضم بجيشه إلى جيش عمه «هاسدروبعل» ابن «جيسكون».

أدت أولى العمليـات التي قام بهـا الـرومان، وكانت تقتصر على احتلال قرى الإقليم والقيـام بعمليـات سلب ونهب والإشتباك مع بعض المفارز البونية، أدت إلى زيـادة ثقتهم بقـوتهم، فتـوجهوا إلى «أوتيكا»، وبما أن فصل الشتاء كان يقترب، فقد قرر «سيبيون»، احتلال المدينة كي يمضي فيها مع قواته هذا الفصل. غير أنه أخفق أمامها بشكل يدعو للرثاء، فبعد أربعين يوماً من الحصار البري والبحري والعديد من الهجمـات، أُجبـر «سيبيون» على التراجع، إذ هددته القوات البونية التي بلغ عددها حسب بعض المصـادر الـرومـانيـة حوالي ثلاثة وتسعين ألف رجل، ثلثيهم من قوات «سيفـاكس». وفُـرض عليـه أن يتحصن في منطقـة صخرية سميت فيما بعد «كاسترا كورنيليا» [حيث توجد اليوم قرية باسم قلعة الأندلس وتقع على بعد ثلاثة كيلومترات عن «أوتيكا»]. وتمركزت الفرق البونية والنوميدية على بعد عشرة كيلومترات من ذلك المكان.

كان «سيفـاكس» يأمـل، كمـا فعـل في «سيكـا» سابقاً، أن يبذل جهوده لدفع الطرفين إلى مفاوضات سلام. فاقترح أن ينسحب الرومان من أفريقيا مقابل انسحاب القرطاجيين من إيطاليا، ويحتفظ الجانبان بالأراضي التي يسيطران عليها حتى ذلك التاريخ. وكانت أسس المحادثات تبدو مثيرة للإهتمام، فلم يرفضها «سيبيون» الذي كان يرغب في الحقيقة باستمالة الملك النوميدي إلى جانبه لأن «سيبيون» كان يعرف أن من طبـع النـوميـديين أن يرجعـوا بسـرعة عن تعهداتهم، كما أنهم لايحافظون إلا نادراً على الإيمان بعهودهم التي قطعوها أمام الآلهة وأمام الناس» [1, 2, XIV] .

إلا أن القائد الروماني كان، على مايبدو، لايزال مخدوعاً باعتماده على تقلب الأفريقي، فلجأ إلى خطة أخرى ـ وهي مثال جيد عما كان يدعى «Fides Romana» أي «ثقـة الـرومـان بأنفسهم»، فلقـد استفـاد من المفـاوضـات التي جرت برعـايـة

«سيفاكس» للقيام بعمليات تجسس على معسكر خصومه حيث كان مبعوثوه يترددون، إذ قام ضباط رومان يرتدون لباس الخدم بمرافقة أولئك المبعوثين، وكانت مهمتهم مراقبة جميع المنشآت الحربية في الوقت الذي كانت تتم فيه المفاوضات، وعند حلول فصل الربيع، وبعد أن تجمعت كافة المعلومات الهامة لدى «سيبيون» أشار إلى مفاوضيه بقطع المباحثات مع الجانب البوني لأنها اصطدمت بمعارضة مجلس القيادة الروماني. وبعد أن تظاهر بالهجوم على «أوتيكا» بهدف صرف الأنظار، أرسل عناصره في حلكة الليل واشعلوا النار في مراكز الجيشين الأفريقيين. واندلع الحرب بسرعة لأن خيم الجنود المصنوعة من الأخشاب والقصب كانت متلاصقة بعضها مع بعض، فعمت الفوضى وقتل الجنود حرقاً بالنار أو ذبحاً حين محاولتهم الهرب، وأبيد الجيشان بمعظمهما، وتحدث المؤرخ «تيت ـ ليف» عن سقوط أربعين ألف قتيل وخمسة آلاف أسير، غير أنه ليس بمقدورنا التحقق من صحة هذه الأرقام، فهي تختلف من كاتب إلى آخر. بيد أن «سيفاكس» و«هاسدروبعل» تمكنا من الفرار مع بعض فرسانهما. وأصبحت للرومان بعد هذه المعركة حرية الحركة الكاملة في العمل.

لقد أتاح عام 203 ق. م، لـ«سيبيون» فرصة أخرى لإبراز مواهبه كقائد حربي. فبعد البلبلة التي أحدثتها تلك الكارثة في قرطاجة، كلف «مجلس الشيوخ القرطاجي» «هاسدروبعل» بالمباشرة بتجنيد جيش آخر، وتم تجميع قوة من الفرسان الكلتوإيبرين قوامها أربعة آلاف فارس، ربما قدموا من الساحل الغربي لإسبانيا. ولحق بـ«سيفاكس» الذي كان قد رجع إلى بلاده. وفدٌ قرطاجي يحثه على أن لايترك المعركة التي بدأوا فيها سوية.

أتمت الجيوش القرطاجية والنوميدية اتصالها، وكان عددها حسبما ذكر «بوليبيوس» قرابة ثلاثين ألف رجل، حينما ترك «سيبيون»، «أوتيكا» التي ظلت محاصرة براً وبحراً، واصطحب معه جميع مشاته وفرقه من الفرسان الإيطاليين إضافة إلى فرسان «ماسينيسا» الذين سيكون لهم دور حاسم في نهاية الحرب، اصطدم الجيشان في منتصف شهر نيسان، في وادي نهر المجردة الأوسط، هناك حيث تمتد

«السهـول العظمى» [Campi Magni] ، بين المـراكـز الحـاليـة لقـرى «بيجة» و«سوق الخميس»، أو حول «بـولا ريجيـا Bulla Regia » [قـرب سوق الأربعـاء] . وسـرعـان مـاحـاقت الهـزيمـة بالبونيين الذين كانوا قليلي الخبرة . ويذكر «آبيان» أن «ماسينيسا» تمكن من هذه المعـركـة من أسر غريمه ، بينما اتجه «سيبيون» فوراً واحتل «تونس» ، في حين تابعت فرقـة من النـوميـديين مع مفرزة رومانية يقودها (ك . لايليوس) تقدمها عبر أراضي «نوميديا» حيث استقبل «الماسيليون» بغبطة عودة أميرهم المنتصر . وفي 24 حزيـران ، حسب التقـويم الـرومـاني ، سجن «سيفـاكس» في مكان غير بعيد عن «سيـرتـا» ، ثم اقتيـد إلى روما ليمشي في موكب النصر مع عدد آخر من الأسرى . أما غريمه الماسيلي فعاد إلى المدينة التي ستصبح عاصمة ملكه .

إن كاتب الحـوليـات الروماني خص «صفونسب» زوجة «سيفاكس» بجزء هام من كتـابتـه . لقـد كانت هذه المـرأة ذات جمـال نادر، إضـافـة إلى أنها كانت مثقفة ومـوسيقيـة من الطـراز الأول . لكنهـا خشيت على نفسهـا من الـوقـوع ، «بين أيـدي الأجـانب القـادمين من خارج أفـريقيـا، فتـوسلت إلى «مـاسينيسـا» ، حين عاد إلى «سيـرتـا» أن يتـزوجهـا . وتضيف الـروايـة ، أن الـزواج أعلن فوراً . غير أن «سيبيون» خشي ، حين علم بالأمـر، أن أن تتمكن «صفـو نسب» ابنة «هاسدروبعل» من التأثير على زوجهـا الجـديـد ، وفـك التحـالف القـائم بينـه وبين روما ، فقرر أن تصبح هذه المـرأة ، مثلهـا مثل بقية الأسرى ، ملكاً للشعب الروماني . غير أن القرطاجية فضلت أن تمـوت على أن يهـان شرفهـا ، فاجترعت السُمّ الذي قدمه لها «ماسينيسا» بنفسه ، مفضلة أن تموت كامرأة حرّة .

وربمـا لاتـوجـد أية فائدة من تقصي مدى صحة هذه الرواية المؤثرة من وجهة نظـر تاريخيـة . غيـر أنهـا تبدو معبرة عما كان يعتلج في صدور الرومان تجاه شركائهم وخصـومهم الأفـريقيين . فهم ، أي الأفـريقيـون ، ليسـوا فقـط مستعـدين للإخـلال بعهـودهم بل «إنهم يتأثـرون بشكـل مفرط بمفاتن «فينوس Venus » [تيت ـ ليف 18, 12, XXX, 4, 23, XXIX] . ومهما كانت مشاعر «سيبيون» الباطنية تجاه النوميديين ، فقد كان راضياً تماماً عن سلوك حليفه . وللمرة الأولى ناداه بلقب «الملك» وهوماكان عليه

بالفعل، ثم قدم له تاجاً كهدية على استبساله في الحرب وقيادته المميزة والخدمات التي قدمها للجمهورية الرومانية كما قدم له الكثير من الهدايا، وبهذه الطريقة، اعترفت «روما» رسمياً بـ«ماسينيسا» حاكماً على «نوميديا الكبرى»(٩٧)، «وليس كموظف تابع كما كُتب سابقاً».

توزع القرطاجيون بين موقفين بعد هزيمة «السهول العظمى» واضمحلال قوة حليفهم «سيفاكس»، إذ أنهم لم يتمكنوا من استغلال الظروف التي كانت مواتية لهم في الشتاء السابق، فقد كان بمقدورهم، بعد أن جُهزوا باسطول أقوى من اسطول عدوهم، أن يضعوا حداً لمغامرة «سيبيون» تلك. لكن انهيار الثقة بالأوساط الحاكمة القرطاجية دفع بالفئة المعادية للبرقيين للمطالبة ببدء المفاوضات المباشرة مع «روما». لقد كان ضرورياً، حسب رأيهم، إيقاف هذه الحرب الخطرة. ورغم محاولة الأسطول البوني فإنه لم يتمكن من فك الحصار عن «أوتيكا»، كما أن العدو قد نزل في «تونس» بحيث أصبح منذ تلك اللحظة يهدد العاصمة ويحرمها من اتصالاتها مع الأقاليم ويضايق خطوط تموينها. أما الفئة المعارضة فكانت تقترح استدعاء جيوش قرطاجة من إيطاليا إذ ظل «هانيبعل» في نظرها الأمل الأخير، وبديء في نهاية المطاف بتنفيذ المشروعين مع بعضهما. إن هذه المواقف المضطربة والتي كانت تعبر عن القلق المنتشر في أوساط قرطاجة الحاكمة، جعل بعض المؤرخين الرومان، [تيت ـ ليف XXX ,17 ,14 ,23 ,7-6] يعتقد أن تصرف القرطاجيين ضمن هذين الخطين المتناقضين إنما كان عبارة عن خطة مدبرة بدقة. لقد استخدمت الحكومة القرطاجية «المكر البوني» Fraus Punica ، متظاهرة بالبدء بالمفاوضات لكسب الوقت بانتظار عودة «هانيبعل» و«ماغون» من إيطاليا. ويبدو هذا الرأي، في الحقيقة، اعتباطياً، إذ لا يمكن أن ننسى أن عصبة «حنّون الكبير» «المسالمة»، كانت لاتزال مسموعة الكلمة بحيث نبهت إلى المخاطر الناجمة عن وجود العدو على أبواب المدينة.

أُرسل وفد يضم ثلاثين عضواً من مجلس الشيوخ القرطاجي إلى تونس لمعرفة شروط الصلح. غير أن «سيبيون»، الذي كان لايزال يحاصر قرطاجة ويدرك أن فكرة

فرض حصار على هذه المدينة هي مغامرة خطرة جداً، لم يترك هذا الوفد ينتظر طويلاً، ففرض شروطه التي نصت على أن تُطلق قرطاجة سراح الأسرى وتعيد اللاجئين والعبيد الرومان الفارين إليها، والإنسحاب من إيطاليا وبلاد الغال السيزالبية واسبانيا، وجميع الجزر الموجودة بين إيطاليا وأفريقيا، وأن يسلم القرطاجيون اسطولهم الحربي باستثناء عشرين سفينة، وعليهم أخيراً، أن يدفعوا غرامة قدرها خمسة آلاف تالان، وأن يزودوا الجيش الروماني بحاجته من القمح والشعير حتى نهاية معاهدة الصلح.

وافقت قرطاجة على هذه الشروط، وعلى الأقل تظاهرت الفئة الرافضة للهزيمة بالموافقة. وأرسلت بعثة إلى «روما» للتوقيع على المعاهدة المشار إليها. غير أن المفاوضات التي بدأت في خريف عام 203 ق. م، استمرت وقتاً طويلاً جداً، فقد كان على مجلس الشيوخ الروماني أن يستشير «سيبيون» في بنوده المعاهدة التي لم توقعها «الجمعية الشعبية» إلا في ربيع عام 202 ق. م.

خلال ذلك الوقت قام القرطاجيون باستدعاء القائدين البرقيين «هانيبعل» و«ماغون»، وفقاً لالتزام بإخلاء إيطاليا وبلاد الغال السيزالبية، علماً أن الرومان لم يكونوا قد تعاملوا أبداً مع العدو الذي كان يعسكر في الأرض الإيطالية. ونحن نعلم أن «ماغون» قد مات أثناء رحلة العودة تلك، أما «هانيبعل» فكان بحاجة إلى أسطولٍ لنقل قواته التي كانت متمركزة في إقليم «كروتوني». وكان قلبه يغلي بالحقد لاستجابته إلى طلب حكومته بالإنسحاب من إيطاليا، هذه البلاد التي بقي فيها خمسة عشر عاماً يُحارب ويَهزِم أقوى دولة عسكرية في العالم بجيشه المتواضع، البعيد عن وطنه. إن من هزم «هانيبعل» لم يكن الشعب الروماني، الذي لاذ بالفرار مرات عديدة، بل الفئة الحاكمة القرطاجية «الفاسدة والحسودة» [تيت ـ ليف 3,20, XXX]. وترك قبل رحيله لوحة تذكارية مكتوبة باللغتين البونية والإغريقية على أحد أعمدة معبد «جونون» في رأس «لاسينيون Lacinion»، روى فيها عن معاركه منذ إنطلاقه من إسبانيا.

وصل «هانيبعل» في بداية خريف عام 203 ق. م، إلى أفريقيا. هذه الأرض

التي كان قد تركها منذ كان في التاسعة من عمره كي يلحق بأبيه إلى اسبانيا، والتي لم يعـد إليهـا منـذ ذلـك الوقت، أي منذ خمسة وثلاثين عاماً، وبعد أن نزل في «ليبتس مينور Leptis Minor» [«ليمتا Lemta»، الواقعة على مقربة من «موكنين Moknine»]. اتجـه لقضـاء فصل الشتاء قرب «هادروميت» [سوسة]. ولم يكن «هانيبعل» قد اختار صدفة هذا المكان، إذ أنه يقع على بعد مئة وخمسين كيلومتراً، مما يجعله بعيداً عن مراقبة «سيبيون»، حُرَّ التصـرف وخصـوصـاً بعد تعزيزه بالفرق التي كانت بأمرة أخيه «مـاغـون». كمـا أن القائد القرطاجي كان يتحاشى أي تدخل في شؤون الجيش من قبـل أعضـاء الحكـومـة التي لم يكن يتعمـد فيها إلا على بعض الأصدقاء. وبدا أن العـائلة البـرقيـة قد اقتطعت لهـا هنـاك منطقة نفوذ في أراضي «بيزاسين Byzacene» الـواقعـة في إقليم «السـاحـل» إذ أن «هـانيبعـل» كان يملك هناك قلعة [تيت ـ ليف «Turris»: 1, 48, XXXIII] تقع بين «ثابسوس Thapsus» [رأس ديماز] و«آكولا» [رأس بوتـريـا]، ويمكن أن تكـون قرب «سولّكتوم Sullecthum» [رأس سلاقطة]. لقد نزل «هانيبعل» إذن في منطقة كان بمقدور عائلته أن تعتمد فيها على أنصارها.

لم تكن التـدابيـر الاحتيـاطيـة التي اتخـذهـا «هـانيبعـل» مبـالغاً فيها. إذ أن الأحداث الخطيرة تلاحقت واستؤنفت الأعمال العدوانية حالما عاد الوفد القرطاجي من روما. فقد تعرضت قافلة بحرية تحمل قمحاً إلى جيش «سيبيون» لعاصفة هوجاء في عرض السـواحـل الافـريقيـة، فتـاهت بعض سفنها وجنحت إلى شاطيء جزيرة «زامبـرا Zambra» الصغيـرة الـواقعـة في مدخـل خليج تونس على الشاطيء الغربي للرأس الطيب. فاجتمـع «المجلس الأعلى» الـذي كان يضم القضـاة بضغـطٍ من السكان الذين كانوا يشكون من قلة الإمدادات لمناقشة السبل الواجب اتباعها، وقرر أن يتم الإستيـلاء على السفن الـرومـانيـة التي فرّبحارتها. فقُطِرت تلك السفن حتى مرفأ «قـرطـاجـة». فأرسل «سيبيون» وفداً للإحتجاج على مااعتبره نهباً للقافلة وطالب بالتعـويضـات. غيـر أن مندوبيه كانوا متعجرفين فاستُقبلوا بشكل غير ودي، مما حتم عليهم العـودة دون الحصـول على رد واضـح. وفوق ذلك، حاولت ثلاث سفن بونية صدم السفينة الرومانية التي تحمل المفاوضين بعد مغادرتها قرطاجة. وتمكن الرومان

أخيراً، بعد ما فقدوا بعض بحارتهم، من الوصول إلى شاطيء معسكرهم، حيث جنحت السفينة هناك.

كان هذا الهجوم الذي تعمدت الحكومة القرطاجية حدوثه، ربما بتحريض من الفئة الرافضة للهزيمة، كان بمثابة إعلان حرب. فأطلق «سيبيون» جيشه للقيام بعمليات تخريبٍ ونهب في الأرياف والقرى، وأسر عدداً كبيراً من الأهالي. غير أنه كان لايزال يعتمد على مساعدة حليفه، «ماسينيسا»، كما كتب «بوليبيوس»، فلم يتوقف عن إرسال الرسل إليه «لحثه لى حشد فرقة قوية والقدوم للإنضمام إليه بأسرع مايمكن» [4, 1, XV].

أما القرطاجيون، بدورهم، فقد استغاثوا بهانيبعل طالبين منه حسم الحرب بمعركة واحدة. بيد أن القائد القرطاجي أعلم حكومته أنه ليس بحاجة إلى نصائحها، وأنه سيختار ساعة التدخل في الوقت المناسب، ومع ذلك يبدو أنه لم يكن لديه الوقت الكافي لإنهاء استعداداته. وبعد أيام قلائل من طلب العون هذا، غادر «هانيبعل» «هادروميت» وخيّم في منطقة قرب «زاما Zama» التي ربما تقع على مسيرة حوالي خمسة أيام (أي مايقارب مئة وخمسين كيلومتراً) عن قرطاجة، «إلى الغرب قليلاً عنها»، إذ لم يتمكن أحدٌ بعد من تحديد موقعها بدقة. وعليه فإنها ربما تقع في منطقة «جبل مسّوج»، بحيث تتطابق مع الموقع الحالي لقرية «جاما Jama»، غير بعيد عن «سيليانا Siliania»[٩٨].

وفي «زاما» أرسل «هانيبعل» إشارة إلى «سيبيون» مقترحاً عليه التفاوض. غير أن «سيبيون» الذي كان قد تقدم باتجاه الغرب، إلى «نوميديا» كان ينتظر أولاً قدوم «ماسينيسا»، وكان النوميدي الشاب وفياً لتعهداته، مثلما كان «سيفاكس» في تحالفه مع قرطاجة، إذ وصل على رأس عشرة آلاف رجل، منهم أربعة آلاف فارس. وتمركز الرومان وحلفاؤ هم في منطقة مختارة غنية بالماء. وحينها ارسل «سيبيون» لغريمه يعلمه بموافقته على بدء المفاوضات. ويروي لنا المؤرخون الرومان المحادثات التي تبادلها أشهر قائدين في ذلك الزمن. ومرة أخرى، ورغم قناعتنا بالاستفاضة الأدبية التي رويت فيه الوقائع، طالب «هانيبعل» باتفاق يحفظ لقرطاجة، اسطولها

الحـربي . لقـد كانت رغبتـه بأن يحتفـظ وطنه بمكانته بين القوى العظمى تتطابق مع السيـاسـة المستمـرة للعـائلة البـرقية . وباختصار سمحت هذه المفاوضات للقائدين بتبادل التقدير بينهما، غير أنها لـم تسفر عن شيء .

وفي المعركة التي تلت تلك المفاوضات، والتي ربما وقعت في بداية خريف عام 202 ق . م . التقى الجيشان اللذان ماتزال قدراتهما مجهولة . إذ يروي «آبيان» أن القوات البونية كانت تضم حوالي خمسين ألف رجل بما فيهم القوات التي عادت من إيطـاليـا، والجنـود الإسبـان والأفـريقيـون والقرطاجيون، واثني عشر ألف مرتزق من الليفـوريين والغـاليين والبـاليار والمغاربة الذين جندهم «ماغون» سابقاً . أما الرومان فقـد كانـوا بشكـل خاص متفوقين بالفرسان الذين عززهم وجود الفرسان النوميديين . ومن الممكن أن يكون عدد مشاتهم قد ساوى مالدى خصومهم .



قرطاجة : (مدافن «دُعَيمس») :
نوطٌ من الفخار المشوي
يمثل فارساً مسلحاً مع كلبه
(حوالي القرن السادس ق . م)

لقد أسهب «بوليبيوس» في شرح مراحل هذه المعركة [XV ,1 ,9-14] . فقد كان هذا المؤرخ على معرفة بـ«ك . لايليوس» الذي قاد فرقة خيالة، فمعلوماته إذن، وإن أتت من مصادر رومانية، قد أخذت من مرجع دقيق . وحسب «لايليوس» كانت خطة «سيبيون» تتضمن إعداد ممرات واسعة متعامدة مع الجبهة بين وحدات المشاة التي نظمت هي أيضاً على ثلاثة خطوط تنفصل عن بعضها البعض، وبفضل هذا الترتيب أصبحت هجمـات الفيلة البـونيـة ضعيفـة التأثيـر، وعلينـا، خصوصاً، أن نوضح مرة أخـرى وكمـا فعـل المؤرخ «تيت ـ ليف XXX ,35 ,1 » دور الفـرسـان الحاسم الذين تمكنـوا بمنـاوراتهم من «ضعضعة العدو» . فقد قام فرسان «ماسينيسا» الذين وضعهم

«سيبيـون» في جنـاحـه الأيمن، بالهجوم على الجناح الأيسر للفرق البونية الذي كان يضم النـوميـديين بقيادة «فيرمينا Vermina » ابن «سيفاكس». وبعد ذلك قام الفرسان المـاسيليـون مع فرسـان «لايليـوس» بمطـاردة الفـارّين، ثم التفـوا بحـركـة تطويقية لمهـاجمـة مؤخـرة الكتـائب القـرطـاجيـة التي حوصـرت بين فكي كمـاشة، أما في المقدمة، فقد أجبر محاربو إيطاليا القدماء والقرطاجيون على الدفاع عن أنفسهم أمام هجـوم مرتـزقتهم الـذين رفضوا التضحية بأنفسهم فارتدوا يذبحون ويقتلون، فكانت الكارثة مروعة.

لقـد بذل «هـانيبعـل»، بلا جدوى، كل مابـوسعه. انطلق بعدها سريعاً يتبعه بعض فرسانه في طريقه إلى «هادروميت». أما «قرطاجة» فقد أجبرت على التفاوض.

إن بنـود المعـاهـدة السـابقـة، التي ورد ذكـرهـا قبـلاً، جُدّدت بشروط قاسية جداً، إذ تم وضع قرطاجة بموجبها تحت رحمة جارتها «نوميديا». وحمل هذا الشرط في طيـاتـه أسـاس الصـراع الذي سوف يُدمر «قرطاجة»، إذ كان على القرطاجيين أن يعيدوا إلى «ماسينيسا» كل ماكان يملكه هو وأجداده من عقارات وأراضٍ ومدن. . . الخ في داخل الحدود التي ستوضع لاحقاً» [بوليبيوس 18, 1, XV].

حاول «هـانيبعـل» من جهتـه أن يرسم لقـرطـاجة طريقاً جديداً، معتمداً على الغضب الذي سيطر على الشعب المُهان. فحين انتخب عام 196 ق. م قاضياً، باشر بتطبيق برنـامـج واسـع للإصـلاح والتطهيـر. فسعى أولاً إلى تنظيف الهيئـة السياسية والإدارية التي تفشى فيها الفساد والضعف منذ أمدٍ بعيد. فطلب القاضي «هانيبعل» من الحاكم الذي كان يدير الأموال العامة كشوفاً بالحسابات، وحين رفض تـم تقديمه إلى «المجلس الشعبي» الـذي خلعـه من منصبـه. وكشفت التحقيقـات عن الخطط والإمتيـازات التي كانت تستعملهـا الأقليـة الحاكمة بهدف المحافظة على مصالحها الإقتصـاديـة وتضخيم ثرواتهـا. لقـد كان «هـانيبعل» يكتشف عقرباً تحت كل حجر يرفعـه. بعـدهـا أراد «هـانيبعـل» أن يباشر باصلاح أعلى هيئة قضائية، وهي مجلس «المئة وأربعة» التي كان أعضاؤ ها يعينون مدى الحياة، فقرر أن يتم انتخابهم، منذ تلك السـاعـة، لمـدة سنـة واحـدة غير قابلة للتجديد. أما بشأن جمع الغرامات التي

يجب دفعها إلى روما، فكان من غير المجدي فرض ضرائب جديدة. إذ كان يرى أن ضبط الأوضاع المالية كفيل بتقديم المال الضروري. كانت هذه الخطوات تعني بالنسبة للمتضررين من أصحاب المصالح شيئاً خطيراً، فقاموا بإبلاغ «روما» بالمكائد المقلقة التي يقوم بها هذا «المتمرد» فأجبر البرقي، وهويحاول مرة أخرى إنقاذ وطنه، على الابتعاد.

التجأ «هانيبعل» في عام 195 ق.م إلى سوريا، ضيفاً على بلاط «انطيوخوس Antiochos» السلوقي أولاً. غير أنه انتقل إلى بلاط «بروسياس Prusias» ملك «بيتينيا Bythinie» بعد توقيع صلح «أفاميا Apamee». وكان يحاول في كل مناسبة، دون نجاح يذكر، إحياء تحالف ضد العدو الروماني المشترك الذي يهيمن على البحر المتوسط. وفي عام 183 ق.م، وربما بعد أن شعر بخيانة صديقه الذي كان يريد أن يسلمه إلى الرومان، فضّل «هانيبعل» تجرع السم على الوقوع في أيدي أعدائه. يكتب «بوليبيوس» في لوحة معبرة توجز لنا حرب «هانيبعل» في إيطاليا: «في خضم هذه الأحداث التي كانت تؤلم الجميع، من رومان وقرطاجيين، كان سببهما شخص واحدٌ فقط وفكرة وحيدة: إسمي «هانيبعل». [...] أي عظمة، بل وأي شيء رائع أن يكون الإنسان موهوباً بهذا الشكل عند ولادة عبقرية توازي أي طموح إنساني مهما كن نوعه!» [22, 7, IX].



الفصل السابع

«علينا أن نزيل قرطاجة من الوجود»

Delenda est Carthago

لقد توقف تاريخ العاصمة البونية العظيمة في «زاما». وبدون شك، حاولت المدينة المهزومة، خلال نصف قرن لاحق، أن تتكيف مع الشروط الجديدة التي فرضها مجلس الشيوخ الروماني. ولكن لم تكن على أية حال سوى مدينة بُتَّ في مصيرها وتحاول أن تستفيد من فرصة أخرى.

لقد ابتلع البحر المتوسط امبراطوريتها كلها، إذ كان على قرطاجة أن تُسلم سفنها الحربية من جميع أنواعها، والتي زاد عددها عن خمسمائة، اقتيدت إلى عِرض البحر وأشعلت فيها النار على مرآى من سكان المدينة. وأنّت قرطاجة من ثقل الغرامة الحربية التي بلغت عشرة آلاف تالان تُدفع على خمسن سنة، ولم يعد بمقدورها القيام بأية عمليات حربية خارج «ليبيا»، وحتى هناك لم يكن بمقدورها اللجوء إلى اسلاح إلا بموافقة «روما». لقد أصبحت قرطاجة مجرد أرض أفريقية. إضافة إلى أن هذه الأراضي كانت تعرض لتعديات متواصلة من جانب «ماسينيسا». ولو لم تكن عمليات الإلحاق تلك التي فككت شيئاً فشيئاً آخر معقل كان يمثل قوتها السابقة، ولو لم يكن ذلك الحقد يعتمل في قلوب بعض الرومان الذين لم يكونوا قد

نسـوا هزيمـة «كـاني»، لو لم يكن هذا كله، لكـان من الممكن أن تنتفض المعجـزة القرطاجية مرة ثالثة، ولكن هذا كان يعني حرباً ثالثة يندلع إوارها.

ينقل لنا «بلوتاركوس» طرفة، ربما صدرت عن الرومان لتبرير ماسيحدث، فيما يخص المعسكـر الـداعي للحـرب والـذي قاده «ماركوس بوركسيوس كاتون Marcus Porcius Caton». إذ أخـذ هذا الشخص يغذي الحقد الدفين ضد الدولة البونية، مع أنـه كان يكتم بذكـاء خبثـه بوقـوفه إلى جانب الرومان التقليديين أنصار مبدأ «العودة إلى الـوطن». وذات يوم جلب إلى مجلس الشيـوخ الروماني ثمرة تين طازجة ورفعها بيده معلنـاً «اعلموا أن هذه الثمرة قد قطفت من قرطاجة التي تقع على بعد ثلاثة أيام، كم إن العـدو قريبٌ من أسـوارنـا!» وأنهى هذا الخطيب الـذي يبلغ الثمانين عاماً خطبته برأي لخص فيـه كل مراده فقـال: «والآن أقـول لكم، وأعيـد القـول، علينا أن نزيل قرطـاجـة من الـوجود!» [Delenda est Carthago]. لقد أبدى البعض عدداً من الآراء في أسبـاب الصـراع الأخيـر، هل كانت روما تخشى من إمتداد «الثورة» الديمقراطية التي كانت تنـدلـع في قرطـاجـة. حيث كان صوت الشعب راجحـاً في عمليـات «التشـاور» إليهـا؟ أم كان خوفهـا من طموحات حليفها «ماسينيسا» الذي قد يتمكن، بذريعة استعادة إرث أجداده، من الإستيلاء حتى على قرطاجة ذاتها، ويبسط سيطرته بذلـك على امبـراطـورية تمتد من شواطيء «سيرت Syrtes» إلى «مولوكا Mulucha» [وادي المـولـوية، في المغرب الشرقي]، مما يشكل خطراً نوميدياً مرعباً يرث الخطر القرطاجي؟ أم أنها كانت تخشى من أن يتمكن الملاّكون الزراعيون البونيون، الذين يستفيـدون من ميـزات تقـدمهم التقني من منـافسـة المزارعين الإيطاليين الذين كانوا لايزالون أسرى الأساليب العتيقة في الأعمال الزراعية ـ كان هذا التنافس على أشده خصـوصـاً أن دفـع الغرامة الحربية المستحقة لروما كان سينتهي في عام 151 ق.م، ممـا سيتيـح لقـرطـاجـة الحرة، منذ تلك السنة فصاعداً، استثمار عائداتها في تطوير اقتصـادهـا الزراعي؟ إن جميع هذه الإعتبارات لعبت دوراً قليلاً أو كثيراً باتخاذ القرار بالحـرب، إلا أن السبب الأسـاسي هو غيـر ذلـك كله. فقـد كان أصحـاب السفن الإيطاليون يرغبون بالإطمئنان تماماً إلى استمرار سيطرتهم المطلقة على تجارة البحر

المتوسط، فمعاهدة عام 201 ق.م، لم يتمنع القرطاجيين من بناء سفن تجارية، ولم يكن أحد يجهل أن القباطنة والبحارة القرطاجيين يبزّون الجميع في هذا المجال، لقد كان هذا هو السبب الحقيقي للحرب. ونتج عنه تدمير قرطاجة. إذ أن مرافئها ظلت مركزاً لنشاط آخر بالقوى المهيمنة في الأوساط المالية المسيطرة على الوسائط البحرية في «روما».

إن ذريعة الحرب العادلة Bellum Justum، كما دُعيت جاءت في وقتها فقد حاولت قرطاجة صدفة، في ربيع عام 151 ق.م، أن تعارض بقوة السلاح مشاريع التوسع التي كان يقوم بها «ماسينيسا»، فاتهمها مجلس الشيوخ الروماني بخرق معاهدة السلام وأعلن الحرب ضدها. مع ذلك، احتفظ هذا المجلس بسيناريو وُضع بشكل منهجي، سيطبق على مراحل ويقود المدينة إلى الخضوع كلياً دون أن تبقى لديها القوة لترفض مصيرها الذي سيفرض عليها شيئاً فشيئاً مما سيؤدي إلى فنائها التام.

فقدم إلى «روما» وفد بوني ضم مندوبين مطلقي الصلاحية، وضعوا مصير مدينتهم تحت رحمتها. فتلاحقت المطالب، يتلو بعضها بعضاً، وبمقدار ماكان المندوبون يوافقون عليها كان القرطاجيين في البداية أن يسلموا ثلاثمائة رهينة يتم اختيارهم من بين أبناء أعضاء «المجلس الأعلى» ومجموعة «المئة» ـ مما أتاح الفرصة لرؤية المشاهد مؤثرة وبشكل خاص من جانب الأمهات اللواتي كان عليهم رؤية أولادهن يرحلون ـ وعلم مواطنوا المدينة، فيما بعد، مذهولين، أن عليهم أن يسلموا جميع مايملكون من أدوات الحرب، التي كانت كثيرة جداً، فأطاعوا دون تردد معتقدين أن هذا آخر الشروط، غير أنه في عام 149 ق.م، قام القنصلان بالنزول مع جيش روماني في «أوتيكا»، والتي كانت تحت حماية «روما»، وعندما حلت ساعة الهجوم الأخير، أخطروا المفاوضين القرطاجيين بالقرار النهائي: «اتركوا قرطاجة، وأجلوا سكانها عنها إلى مكان ترونه مناسباً بشرط أن يبعد عن البحر ثمانين غلوة [حوالي 15 كيلومتر] لأننا قررنا تدمير المدينة [آبيان، Libyca ,81]. وأمام وجوم ويأس المفاوضين، قام أكبر القنصلين سناً بإبداء بعض الملاحظات عن أسباب هذا

الحكم : «إن رؤية البحر سوف تذكر القرطاجيين دوماً بمجدهم الغابر مما سيقودهم إلى ارتكاب الحماقات القديمة مثل غزو صقلية وسردينيا واسبانيا، وبالنسبة للسكان من الممكن أن تقدم لهم الزراعة قدراً أكبر من الطمأنينة مما كانت تقدمه لهم التجارة البحرية، وبما أن التفوق البحري سيكون من نصيب روما فقط، فمن الأفضل للقرطاجيين أن يعملوا بسلام في الزراعة، داخل الأرض الأفريقية».

بيد أن قرطاجة لم تُخلق لتكون حاضرة ريفية. لقد ولدت من البحر، وظلت هذه المدينة في أساسها مرفأ فحسب، ولم يكن بمقدورها أن تتنفس إلا على البحر. كيف تتمكن من ترك موتاها، ومحارقها Tophet التي شهدت قرابينها، ومعابد آلهتها؟ لقد قرر القرطاجيون أن يدافعوا حتى الموت.

بدأت عمليات «الحل النهائي» في عام 149 ق.م، ومرة أخرى، أظهرت قرطاجة أنها لاتخرج عن تقاليد بناتها القدماء. لقد احتاج «الاسكندر» لسبعة أشهر كي يهزم «صور» المحصنة في جزيرتها. وتحتم على الفيالق والأساطيل الرومانية أن تحارب ثلاث سنوات أمام مدينة «إليسار» قبل أن يتمكن «سيبيون إيميليان Scipion Emilien»، وهو رجل مشبعٌ بالثقافة الهيلينية، من أن يوجه لها طلقة الرحمة، وهو يردد أبيات الشاعر «هوميروس».

ماتت قرطاجة في ربيع عام 146 ق.م، وقام بعض المؤرخين، مثل «بوليبيوس» الذي شهد تلك الأحداث، وأستقى «آبيان» منه، قاموا بوصف ماحدث بدقة، وكأنه ريبورتاج صحفي وخصوصاً المشاهد الفظيعة التي تلاحقت في الأيام الستة الأخيرة، وأهوال حرب الإبادة تلك التي سببت المذابح وأدت إلى اختفاء مدن بأكملها. والمعارك الشرسة التي دارت في الشوارع التي حفّت بها الأبنية ذات الست طبقات والتي قاتل سكانها ببسالة في كل بيت وقبو وشرفة. لقد ابتلعت المدينة بانهيارها البطيء أحياءها وأمواتها. ودارت زمرٌ من الجنود الرومان، مسلحين بالمعاول والرفوش، على أنقاض البيوت يجرون الجثث ويلقون بها في خنادق كان يمكن أن ترى فيها، بين أكوام الحصى، العديد من الجرحى الذين كانوا لايزالون ينتفضون. وفي اليوم السابع خرج خمسون ألف شخص، من الرجال والنساء

والأطفال، من قلعة «بيرسا» وهم يتضورون جوعاً واستسلموا لرحمة الفاتحين ـ وبيعوا فيما بعد في أسواق العبيد مثل جميع من بقي حياً. أما «هاسدروبعل» الذي قاد القرطاجيين في هذه الحرب، فقد تناسى كلماته المتعجرفة: «أنه لن يأتي مطلقاً ذلك اليوم الذي سيرى فيه ضوء الشمس ومدينته طعم للنار، هذه النار ستكون احتفالاً جميلاً يواكب جنائز الناس الشرفاء الذين فقدوا وطنهم» [بوليبيوس، 8,2, XXXVII]. لقد اختار هذا القائد أن يستسلم متوسلاً رحمة المنتصرين. وكان معبد الإله «إشمون» آخر معقل للمقاومة وهو يشرف على «الأكروبول»، فأشعل القرطاجيون النار فيه، ليحترقوا معه، ويضعوا حداً لحياتهم بهذه الطريقة. أما زوجة «هاسدروبعل» فقد أطلّت من شرفة المعبد بكامل زينتها ممسكة بطفليها، لعنت زوجها لخيانته شعبه، ثم تضرعت إلى آلهتها، وبعد ذلك دفعت بطفليها إلى النار، وفعلت هي الشيء نفسه، كما فعلت قبلها «إليسار»، رغم أن «سيبيون» كان يعدها بإنقاذ حياتها.

كتب «أبيان Libyca 133»: «قيل أن «سيبيون» حينما رأى قرطاجة وقد دُمرت تماماً، بكى على مصير أعدائه، وبكى متأملاً للحظات، وهو يحكم أن المدن والأمم والأمبراطوريات هي جميعها، مثل الناس، إلى زوال بقوة الآلهة [. . .]، وروى، قصداً أو بدون إرادته، هذه الأبيات الشعرية:

سيأتي اليوم الذي تهلك فيه «إليون»(*) المقدسة
ومعها «بريام» وقوم «بريام» ذوي الرماح الجيدة

استمرت النيران تستعر في قرطاجة طوال عشرة أيام. أما «روما» فقد نظمت الاحتفالات العظيمة حينما علمت بالخبر السعيد، وشكل مجلس الشيوخ لجنة لتحويل الأراضي البونية إلى إقليم تابع، طالباً أن تحل اللعنة على أنقاض المدينة.

* «إليون Elion» أحد أسماء طروادة.

المترجم



قرطاجة: (توفيت سلامبو)، نصب نذري مثلث الشلال يمثل مُقدمة قربان جاثية على ركبتيها. (حوالي القرن الرابع ق.م)

فُدكت بقايا أسوارها، وصب «سيبيون» لعناته التي تحرم على الناس هذه الأرض الموقوفة لخلود آلهة الجحيم، ثم ذُرَّت أرضها بالملح. وإلا أن هذه اللعنات الأبدية لم تستمر، فبعد ثلاثة وعشرن عاماً من هذه الطقوس الإحتفالية، لم يخشَ «كايوس كراكشوس Caius Gracchus» من تأسيس مستوطنة رومانية تطاولت على الملح الملعون.

لم يكن دمار المدينة العظيمة وتصفية شعبها ليشير بالتأكيد إلى نهاية العالم البوني. فنحن نعلم أن القرطاجيين لم يكونوا فقط مواطني المدينة الأم، أي أن قرطاجة لم تكن محصورة ضمن أسوار قرطاجة. لقد دمغت العاصمة ببصمتها، ليس فقط أراضيها ومستعمراتها الأفريقية ـ حيث ازدهرت حضارة مركبة مبتكرة ـ بل أيضاً صقيلة وسردينيا واسبانيا الجنوبية. لذا بوسعنا أن نتحدث عن استمرار «الفكر القرطاجي» ولقرون لاحقة على طول تلك السواحل. وحتى في أيامنا هذه، هل امّحت هذه الآثار؟ ويبقى بعد أن اختفت قرطاجة من الوجود، أنه لم تكن توجد أبداً قوة بونية منتظمة سياسياً في البحر المتوسط، فإن «قَرت حَدَشت» [المدينة الجديدة] كانت مركباً فريداً من نوعه، ولقد غرق هذا المركب ومعه الامبراطورية.

وبـإمكـاننـا أن نسـرع في الحكم على مصيـر هذا الشعب المقدام والجشع، الـذي لم يكن يستسيـغ صنـاعـة الأسلحة، وكان يستخدم جيشاً من المرتزقة. ورغم ذلك قدم هذا الشعب في نهايةتاريخه مثالاً عالياً في التضحية والكرامة أثناء الثورة ـ حتى لو أن هذه الانتفاضة جاءت متأخرة ـ ضد الأوامر الهجمية التي فرضتها «روما». لقـد كان القـرطـاجيون في تلك الأيام يقاتلون لا لفوائد تجارية، بل دفاعاً عن فكرة، عن الحـريـة وعن نوعٍ من الإخـلاص الـراقي. إن هذه الصلابة العبثية التي هدفت لإنقـاذ مثـل عليـا لم تكن دون أساس. وبدون شك، علينا أن نستعيد ماقاله «تيت ـ ليفـ» [12, XXVIII] في شعب قرطـاجـه كله، حيث تحـدث عن أحـد رموزها السامية «هانيبعل»: «ولا أعرف ما إذا كان يوجد أروع منه في أوقات الكوارث أو الإنتصارات».



ملاحظات المؤلف

ملاحظة : بالنسبة للأعمال التي ظهرت في الدوريات، سيجد القارئ المراجع الفهرسية المعتادة، أي : اسم الكاتب، عنوان المقال، اسم المجلة ورقم المجلد (بالأرقام الرومانية)، وتُكمل إذا كان ضرورياً برقم الكرّاس (بالأرقام العربية)، وسنة نشر الدورية وترقيم صفحات المقال (أو إشارة إلى الصفحة التي يعود إليها المقال).

1- P. Valery, Variete. La Crise de l'esprit, dans Oeuvres, Paris, Gallimard, «Bibl. de la Pleiade», 1957, t. I, p. 988.

2- Cf. Appien, Libyca, 87.

3- Augustin , Ep. ad Romanos inchoata expos., 13, PL, t. 35, 2096.

4- كما في النقش الآكادي الذي يظهر على تمثال «الملك «إيدميري Idmiri »، وفي ثلاثة مواضع، في ألواح «آلالاخ». انظر: S. Smithe, the Statue of Idmiri, Londres, British instit. of Archaeol. at Ankara, 1949, P. 14; D. J. Wiseman, The Alalakh Tablets, Londres, British insti. of Archaeol. at Ankara, 1953, P. 46.

5- انظر إلى المقال الممتاز الذي كتبه «R. de Vaux» بعنوان «بلاد كنعان» «Les Pays de Canaan» في :

Journal of the American Oriental Society, 88, 1968, P. 23- 30.

6- K. M. Kenyon «Amorites and Canaanites». Londres, Public. for the British academy (the Schweich lectures), 1966.

7- C. L. Wooley, «La Phenicie et les peuples egeens», Syria, II, 1921, P. 176- 194.

8- P. Montet, Byblos et l'Egypte, Paris, P. Geuthner, 1928.

9- R de Vaux, «La Phenicie et les Peuples de la Mer», Melanges de l'Universite Saint-Joseph de Beyrouth, XLV, 1969, P. 479- 498.

10- انظر إلى أعمال:

E. A. Speiser, «The Name Phoinikes», Languge,XII, 1936, P. 124- 125; B. Maisler, «Canaan and The Canaanites», Bulletin of The American Schools of Oriental Research, 102, avril 1946, P. 7- 12; S. Moscati, «Sulla storia del nome canaan», Studia Biblica et Orientalia, III, 1959, p. 266- 269, M Astour, «the Origin of the Terms «Canaan», «Phoenician» and «Purples,», Journal of near Eastern Studies, XXIV, 1965, p. 346- 350.

11- Cf. C. H. Gordon, Ugaritic Handbook, Rome, «Analecta Orientalia», No38, Pontificio instituto biblico, 1965. (glossaire, No 2028 et No 2031).

12- S. Gsell, «Histoire ancienne de l'Afrique du Nord», t. I, Paris, Hachette, 1921, zeed., p. 371- 372.

13- P. Cintas, Fouilles puniques a Tipasa, Alger, J. Cabronel, 1949, p.2(paru dans Reve africaine , XCII, 1948, p. 263- 330, cf. p. 264); J. G Fevrier, «L'ancienne marine phenicienne et les decouvertes recentes», La Nouvelle clio, I, II, 1949- 1950, p. 128- 143.

14- انظر الملاحظات المثيرة لـ. ج. جيرمان،

Essai sur les origines de certains themes odysseens et sur la genese de l'Odyssee, Paris, PUF, 1954, p. 444- 450.

15- Odyssee, XV, 415- 482- trd. fr. par M. Dufour et J. Faison, Paris, Garnier, 1957.

16- قدم هذه التواريخ:

E. O. Forres, «Karthago Wurde erst 673- 663 v. Chr. gegrundet», Festschrift Franz dornseiff, leipzig, Bibliogr. Inst., 1953, p. 85- 93, cf. Nachtrag, I.

17- R. Carpenter, «Phoenicians in the west», American Journal of Archaelogy, LXII, 1958, p 35- 53

18- انظر إلى التقارير التي قدمها:

M. Cagiano de Azevedo et al., Missione archeologica italiana a Malta. Rapporto preliminare della compagna 1963, Roma, Instituto di Studi del vicino Oriente, Universita degli studi, 1964,

وتقارير أخرى نشرتها البعثة الآثارية الإيطالية عن أعمالها المنفذة في مالطا.

19- A. Ciasca, V. Tusa et al., Mozia- I. Rapporto Preliminare della compagna di scavi 1964, Roma, Instituto di studı del vincino Oriente, Universita degli Studi, 1964; B. S. J. Isserlin et al., «Motya, a Phoenician- punic site near Marsala, Sicily. Preliminary Report of the leads- London- Fairleigh Dickinson Expedition, 1961- 1963», Annual of leeds University Oriental Society, IV, Leiden, 1962- 1963, p. 84- 131; S. Moscati, «Sulla piu a ntica storia dei Fenici in Sicilia», Oriens Antiques, VII, 1968, p. 185- 193.

20- انظر :

Voir S. Moscati, Fenici e Cartaginesi in Sardegna, Milan, Il Saggiatore di A. Mondadori, 1968.

21- R. Rebuffat, «Une Pyxis d'ivoire perdue de la tombe Regolini- Gualassi», Melanges d'archeologie et d'histoire de l'ecole francaise de Rome, LXXVIII, 1966, p. 7- 48.

22- P. Cintas, «Deux campagnes de fouilles a Utique», Karthago, II, 1951, p. 1- 88; «Nouvelles recherches a Utique, ıbid., V.1954, p. 89- 155.

23- انظر، بشكل خاص، الآراء المتناقضة أحياناً لـ:

W. F. Albright, «New light on the early of phoenician Colonization» Bullatin of the American Schools of Oriental Research, LXXXII, 1941, p. 14- 22; A. Schulten, Tartessos, Hambourg, Cram, De Gruyter, 1950, 2e ed,; J. M. Sola sole, «Tarshish y los comienzos, XVII, 1957, p. 23- 35; P. Cintas, «Tarsis, Tartessos, Gades», Semitica, XVI, 1966, p. 5- 35; J. M. Blasquez, Tartessos y los origines de la colonizacion fenicia en Occıdente, Salamanque. Universited, 1968.

24- Ez 27, 1-36. La Bible. Yehezqel, Paris, Deschee de Brouwer, 1974, (Trad. fr. par A. Chouraqui).

25- Cf. Servius, In Aeneid., I, 366: «Carthago est lingua Poenorum noua Ciuitas, ut docet Livius.».

26- Justin, Histoire universelle, XVIII, 4-6- trad. fr. par J. Pierrot, Paris, Pancke, 1827.

27- Cf. Flavius Josephe, Contre Apion, I, 125.

28- انظر الوثائق التي يوردها:

G. Comps, Aux Origines de la Berberie, Massinissaou les Debuts de l'histoire, dans Libyca (Serie Archeologie- Epigraphie), VII, 1er Sem. 1960, p. 26-29.

29- Cf. C. Muller, Fragmenta historicorum graecorum, Paris, Didot, 1841sq., t.I, p. 197 (Timee, fragm. 23).

30 إنها الفرضية التي يروجها:

E. Forrer, Op. cit.

31- P. Cintas, Manuel d'archeologie punique, I, Paris, A. et. J.Picard, 1970, p. 310-311 et p. 440-442

32- انظر مقالات:

R Duval, «L'enceinte de carthage», Comptes rendus de L'Academie des Inscriptions et Belles- Lettres, 1950, p. 53-59; F. Reyniers, «Remarques sur la topographie de carthage a L'epoque de la troisime guerre punique», Melanger Piganiol, Paris, S. E. V. P. E. N., 1966, p. 1281-1290.

33- P. Gauckler, Necropoles Puniques de Carthage, Paris, A. Picard, 1915, p. 500-501.

34- S. Gsell, op. cit., t. II, Paris, Hachette, 1928, 3e ed., p. 142.

32 انظر المقالات المشار إليها في الملاحظة 35

36 عن هذه النقطة، والتي تشير نقاشاً واسعاً، انظر إلى أعمال:

C. Saumagne, «Le Port punique de Carthage; Observations et hypotheses», Historia, V, 2,1931,p. 173-195; «Le lungomare de la carthage romaine», Karthago, X, 1959-

1960; J. Bardez, «Nouvelles recherches sur les ports antiques de carthage» Karthago, IX, 1958, p. 45- 78; P. Mingazzini, «Il porto di cartagine ed il kothon», Atti della accademia dei lincei, Rendiconte, cl. di Sc mor. stor. e filol., 23, 1968, p.137- 152.

وعن نتائج التنقيبات الآثارية الجارية في «جزيرة قائد البحرية الصغيرة» انظر:

H. Hurst, «Excavations at Carthage, 1974- First interim report», The Antiquaries Journal, LV, 1, 1975, P. 11- 40 (avecX pl).

37- Cf. S. Gsell, op. cit., t. II, p. 142.

وفيما يخص هذه الترجمة، وتفسيرها، بخلاف الملاحظات السابقة التي ذكرها C. Saumagne (انظر الملاحظة 36)، يجب قراءة ملاحظات P. Cintas في : Manuel d'archeologie punique, II, Paris, A. et J. Picard, 1976, p. 139- 233.

إن الكاتب هذا يريد أن يقترح علينا ترجمة «لا تأويلية ولامشوهة» لنص «آبيان» الذي لايزال يثير النقاش.

38- Cf. L'etat de la question dans le travail de p. cintas, op. cit. (note 37), p.234- 287.

39- P. Gauckler, op. cit., p. 399- 400.

40- Aristote. politique, II, 11, 1272b- 1273b- trad. fr. for J. Aubonnet, Paris, coll, bude, 1960,

41- Cf. Strabon, Geographie, I, 4, 9.

42- Polybe, Histoire, livre VI, ch. 7. paragr. 51 إن ترجمة هذا المقطع، وكافة الأقوال المنسوبة إلى «بوليبيوس»: أخذت عن:

D. Roussel, Paris, Gallimard, «Bibl. de les Pleiade», 1970.

43- عن هذا المقطع الخاص بالجيش البوني فإن كتاب:

S. Gsell, op. cit., t. II, p. 331- 435.

يبقى مرجعاً أساسياً.

44- انظر إلى مقال

S. Gsell, «Etendue de la domination carthaginoise en Afrique», Recueil de memoires et de textes pulilies en l'honneur de XIVe Congres des Orientalistes, Alger, Ecole

superieure de lettres, 1905, p. 347- 387m a Corriger par C. Saumagne, «Observations sur le tracee de la 'Fossa regia'», Rendeconti della reale Accademia dei lincei, 1928, p. 451- 459.

45- Columelle, De re rustica, XII, 39, 1- 2.

46 من أجل هذا الموضوع انظر بحث:

M. H. Fantar, «Presence punique au Cap Bon», Kokalos, XVIII- XIX, 1972- 1973, p. 264 277, J. P. Morel, «Kerkouane, ville punique du cop Bon: remarques archeologiques et historiques», Melanges d'archeologie et d'hisoire de l'Ecole francaise de Rome, LXXXE, 1969, p. 473- 518,(cf. p. 474- 488: «Lamaison du Sphinx»).

47- إن أوضح «تعرفة قربانية» اكتشفت في عام 1844 ، في مدينة «مرسيليا» وهذه الوثيقة المعروضة حالياً في متحف «بوريلي Borely » أتت من «قرطاجة»، وبالنسبة إلى ترجمتها يمكن الرجوع إلى مقال:

M. Sznycer, «La litterature punique». Archreologie vivante, I, 2, 1968- 1969, p. 141- 148 (cf. p. 144- 145), et J. -G. Fevrier, «Remarques sur le grand Tarif dit de Marseille», cahiers de Byrsa, VIII, 1958- 1959, p. 35sq.

48- P. Cintas, Ceramique punique, Paris, Klincksieck, 1950, p. 4

49- Ibid., p. 5.

50- عن موضوع التماثيل الوعائية الصغيرة التي وجدت في «توفيت» ومدافن كافة البلاد الخاضعة للنفوذ البوني في البحر المتوسط الأوسط والغربي ، انظر إلى دراسة:

J Ferron et M. Eaubet, Orants de carthage, 2 Vol., Coll. cahiers de Byrsa, serie Monograpfis, t. I, Paris, 1975.

51- G. Charles- Picard, le Monde de carthage, Paris, Correa, 1956, pl. 18, No.4.

52- Cf. J. Ferron, «Textes graves sur rasoirs puniques», le Museon, LXXIX, 1966, p. 443- 451; C. picard, «Sacra punica, etude sur les masques et les rasoirs de carthage», Karthago, XIII, 1965- 1966 (1967), p. 1- 116 et XXXVII pl.

53- يوجد وصف جيد التشكيلة لقشور بيض النعام،

وصلت من الموقع البوني «قُرية» [غونغو Gunugu]، على الساحل الجزائري - قرب «شرشال»، في معرض:

M Astruc, «Supplement aux fouilles de Gouraya», Libyca (Serie Archeologie-Epigraphie), II, 1er sem. 1954, p. 9- 48.

54- P. Gauckler, op. cit., p. 398- 399.

55- انظر دراسة:

G. Camps, op. cit., p. 57- 157.

56- A. Mahjoubi et M. Fantar, «Une Nouvelle inscription carthaginoise», Atti della Accademia Nazionale dei lincei, CCCLXIII, 1966, Rendiconti, classe de Scienze morale, storiche e filologiche, XXI, fasc. 7- 12, p. 201- 209

57- Cf. La Communication d'A. Dupont- Sommer, «Une nouvelle inscription punique de Carthage», Comptes rendus de l'Academie des Inscriptions et Belles, Lettres, 1968, p 116- 132.

58- Plutarque, Ethica (lat. Moralia- Praecepta gerendae rei pablicae, III, 6); sur ce meme point, voir S. Gsell, op. cit., t. IV, 1929, 2e ed., p. 215- 220.

59- عن هذه المعاهدة وعن مسألة التأريخ إنظر:

J. Heurgon, Rome et la Mediterranee occidentale jusqu'aux guerres puniques, Paris, PUF, Coll. «Nouvelle Clio», 1969, p. 386- 395;

وبالنسبة للنقوش الثنائية اللغة المكتشفة في موقع «بيرجي Pyrgi» انظر لنفس الكاتب:

«Les Inscriptions de pyrgi et l'alliance etrusco- punique autour de 500 av. J. C., Comptes rendus de L'Academie des inscriptions et Belles, Lettres, 1965, p. 89- 103, et dernier travail de J. Ferron, «Un traite d'alliance entre Caere et Carthage Contemporain des derniers temps de la royaute etruque a Rome ou l'evenement commemore par la quasi- bilingue de pyrgi», Aufstieg Und Niedergong der Romischen Well, Berlin, Walter de Gruyter, t. I, 1, 1972, p. 189- 216 et III pl. (importante bibliographie).

60- Cf. R. Carpenter, «Navigateurs puniques sur les routesde la mer», Archeologie vivante (voire note 47).

61- بخلاف الأعمال التي أُشير إليها (الملاحظة 19)، انظر:

B. Pace, Arte e civilta della Sicilia, I, Milan- Rome- Naples, Societa Editria Dante Alighieri, 1958, 2e ed.; L. Pareti, Sicilia antica, Palerme, Palumbo, 1959.

62- انظر إلى الملاحظة «20» وإلى :

F. Barreca, «La citta punica in Sardegna», dans Bolletino del centro di studi per lastoria dell'architecttura, XVII, Rome, 1961, p. 27- 37; sur le monte Sirai, voir les divers rapports des campagnes de fouilles (pour 1963 et les annees suivantes) etablis par F. Barreca, M. G. Amadesi, S. Moscati, M. et D. Fantar et autres (publies par l'Istituto di studi del vicino Oriente de l'Universita de Rome.

63- Cf. note (18).

64- P. Cintas, Fouilles puniques a Tipasa, op. cit., p 8- 9; Ceramique punique, op. cit., p. 574; Contribution a l'etude de l'expansion carthaginoise au Moroc, Publications de L'Institut des Hautes Etuds marocaines, No 56, 1954, (انظر خصوصاً ص 11) p. 10- 16

علينا أن نراقب دون توقف الهياكل الضعيفة التي كان عليها أن تبحر بلا توقف. إن السير في البحر ولأيام طويلة متواصلة كان بحد ذاته عملاً باهراً، وبالنتيجة كان يتحتم التوقف كل مساء لسحب مراكبهم إلى اليابسة).

65 لهذا الموضوع، انظر ملاحظات:

J. Roge, La marine dans l'Antiquite, Paris, PUF, coll, «sur», 1975, p. 154.

66- Cf. Note 46.

67- فيما يخص المراجع الأدبي عن كتاب Augustin d'Hippone انظر:

C. Courtois, «Saint Augustin et la survivance du punique», Revue africaine, XCIV, 1950, p. 259- 282; M. Benabou, la Resistance africaine a la Romanisation, Paris, Maspero, 1976, p. 483- 489.

68- J. Corcopino, le Maroc antique, Paris, Gallimord, 1943, 1re ed., p. 26- 27.

69 عن مختلف هذه المواقع، انظر الكتاب الممتاز لـ:

G. Vuillemot, Reconnaissances aux echelles puniques d'Oranie, Autun, Musee Rolin, 1965. وعن جزيرة «راشفون» انظر في المرجع السابع ص 36 -40 وص 55 -130 .

70- A. Garcia y Bellido, «Colonizacion punica», dans R. Menendez- pidal, Historia de Espana, t. 1, vol. 2, Borcelone, Espasa- calpe, 1952 (1960, 2e ed.), p. 389- 462 («las Colonias Punicas»), et cart p. 314.

71- هذه وجهة نظر: .

G. charles. Picard, Hannibal, Paris, Hachette, 1967 (cf. p. 79sq., 93sq.);

ولقد عارض هذه الفرضية :

J. P. Brisson, Carthage ou Rome?, Paris, Fayard, 1973. (cf. p. 131- 133).

73- عن أسباب الحرب البونية الثانية، انظر الآراء التي عرضها:

J. Carcopino, «le traite d'Hasdrubal et la responsabilite de la seconde guerre punique», Revue des etudes anciennes., LV, 1953, p. 258- 293, (فيه يطابق الكاتب نهر «الإيبر» مع نهر «ريوجوكار») .

وانظر:

F. Cassola, I Gruppi politici Romani nel III, secolo a. C., Trieste, Arti Grafiche, smolars, 1962, p. 246- 253.

(يـذكـر فيهـا المسؤوليـات الـرومـانيـة) وفيما يخص موضوع المعاهدة بين «هاسدروبعل» و«روما»، انظر البيليوغرافيا النقدية لـ:

G. Charles- picard, Hannibal, op. cit., p. 264- 265.

73- Herodote, IV, 196 (cf. S. Gsell, Herodote, Alger, A. Jordan, Universite d'Alger, Textes relatifs a l'histoire de l'Afriquedu Nord, fascicule I, 1916, p. 35, et J. Carcopino, op. cit., p. 108).

74- انظر ملاحظات :

R. Dion «le Probleme des cassiterides», Latomus, XI, 1952, p. 306- 314.

75- Cf. M. Sznycer, op. cit., p. 146- 147.

ويتناول في مجمله الترجمة التي وضعها:

S Gsell, op. cit., t. I, p. 476 sq.

76- من بين محاولات التفسير تلك، توجد محاولة تعتبر الآن مرجعاً موثوقاً في هذا الخصوص، لـ:

J. Carcepino, «le Maroc, Marche punque de l'or», Repris dans le Maroc antique, op. cit., p. 73- 173;

ولما يناقض هذا التأويل، انظر إلى آراء:

R. Mauny, «La Navigation sur les cotes du Sahara pendant l'Antiquite», Revue des Etudes anciennes, LVII, 1955, p. 92- 101, et de G. Germain, «Ou'est- ce que leperiple d'Hannon? Document, amplification litteraire ou foux integral?», Hesperis, XLIV, 1957, p. 205sq.

77- J. Carcopino, op. cit., p. 105- 119 et 130- 163.

78- Voir G. Charles, Picard, Hannibal, op. cit., p. 26- 35.

79- J. Leclant, «Les Talismans egyptions dans les necropoles», archeologie vivante, I, 2, p. 95- 102 (cf. p. 95- 99).

80- Bibliographie dans J Ferron, «le dieu des inseriptions d'Antas (Sardaigne)», Studi Sardi, XXII, 1971- 1972, p. 3- 23.

80 bis- C. Picard, «Les Representations de sacrifices molk sur les ex- voto de carthage», Karthago, XVII, 1973- 1974 (1976), p. 67- 138,

انظر خصوصاً ص 67 : «حوالي سبعة آلاف نذر كانت تشكل تقدمة قربانية لمولك، على أرض قرطاجة، منذورة إلى بعل حمّون وتعينت بني بعل، توجد الآن مبعثرة في المتاحف».

81- من أجل هذه النقوش انظر.

P. Cintas, «le sanctuaire punique de Sousse», Revue africaine, XC, 1947, p. 44- 45 (stele· 289); M. Fantar et C. Gilbert ch. Picard, «steles puniques de carthage», Revista di Studi Fenici, III, 1, 1975, p. 52.

82- انظر ملاحظات:

L. Maurin, «Himilcon le Magonide, Crises et mutations a Carthage au debut du IVe siecle», Semitica, XII, 1962, p. 5- 43.

83 عن هذه النقطة انظر:

S. Gsell, op. cit., t. IV, p. 377- 390; P. Cintas, «Le Signe 'de Tanit'. Interpretation d'un symbole», areheologie vivante, I, 2, p. 4- 12; C. Picord, «Genese et evolution des signes de la Bouteille et de Tanit a Cathage», cahier de Byrsa, I, 1951, P. 15- 160, Pl. I- XXXIX; A. M. Bisi, le stele puniche, Rome, Istituto di studi del vicino oriento- Universita degli stude, 1967.

84- S. Gsell, op. cit., t. IV, p. 378.

85- J. Ferron, «Le caracters Solaire du dieu de carthage» Africa, I, 1966, p. 41- 59- pl. I et II.

86- M. Fantar, «Pavimenta punica», stdi magrabini, I, 1960, p. 57- 65.

87- Cf. J- G. Fevrier, «Essai de Reconstitution du sacrifice Molk», Journal asiatiqne, CCXLVIII, 1960, p. 167- 187.

88- L. Foucher, «Les representations de Baal Hammon», Archeologie vivante, I, 2, P. 131- 134.

89- P. Cintas, «Le Sanctuaire Punique de Sousse», op cit., p. 13- 12.

90- J G. Fevrier, op. cit., p. 177- 179; S. Moscati, «Il socrificio dei fanciulli», Rendiconti della pontificia Accademia Romana di Archeologia, XXXVIII, 1965- 1966.

91- P. Cintas. Manuel d'archeologie punique, I, op. cit., p. 313; sur le sanctuaire, cf p. 311- 429.

92- P. Gauckler, op. cit., p. 518.

93- P. Citas et E. G. Gobert,«les tombes du Jbel Mlezza», Reve tunisienne, 37- 40, 1939, p. 135- 198. (cf. p. 190sq- tombe 8).

94- عن تفسير هذه اللوحة ومع تطور المعتقدات الأخروية وطرق التعبير عنها انظر إلى الآراء القيمة لـ:

M. Fantar, Eschatologie phenicienne punique, Tunis, Institut national d'archeologie et d'arts, coll. «notes et Documents», 1970.

95- J. Ferron, op. cit., (note 59), p. 201.

96- عن هذا الموضوع، وعن حملة هانيبعل بشكل عام، انظر:

G. Charles- Picard, Hannibal, op. cit., p. 266- 267;

وعن خط سير هانيبعل عبر جبال الألب، انظر:

Jean prieur, La Savoie antique- Recueil de documents, «Memoires et documents publies par la societe savoisienne d'histoire et d'archeologie«, t. LXXXVI, 1977, p. 57

97- عن هذا الموضوع انظر الملاحظات التي أوردها:

C. Saumagne, La Numudie et Rome. Masinissa et Jugurtha, publications de l'universite de Tunis, Faculte des Lettres et Sciences humaines, Paris, 1966, p. 93- 95.

98- Cf. L. Derache, «Les fouilles de Ksar Toual Zammel et la question de Zama», Melanges d'archeologie et d'histoire de l'Ecole francaise de Rome, LX, 1948, p. 55- 104 - Specialement, p. 87; H. H. Scullard, Scipio Africanus, Solidier and Politician, Londres, Thamas et Hudson, 1970, p. 271- 274.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظة إضافية على الطبعة الجديدة (الثالثة):

تمكنت البعثة الدولية التي عملت في أطلال مدينة قرطاجة منذ عام 1974، برعاية «اليونسكو»، من الوصول إلى نتائج تناقض بشكل تام النظريات «الكلاسيكية»، مثل اكتشاف الأحواض الجافة في «جزيرة القيادة البحرية» والتي بُنيت فوق منشآت ترقى إلى الحقبة البونية المتأخرة. إن هذا يسمح لنا بالتأكيد أن هذه الجزيرة والمرفأ الدائري كانت تضم الكوثون الحربي الذي وصفه لنا «آبيان» [ملاحظة المؤلف رقم 36]، كما أن المرفأ التجاري كان يوجد على البحيرة الشاطئية الملاصقة للجزيرة. إضافة إلى ذلك، كشفت الأبحاث المتواصلة في تل «بيرسا» عن حي سكني بوني (بداية القرن الثاني ق.م)، وشبكة من الطرق ومواضع لمنشآت تعدينية (القرنان الرابع والثالث ق.م). كما كُشف عن مساكن هامة (القرن الثالث ق.م)، غنية بأرضياتها المفروشة بالبلاط، وذلك في القطاع المحاذي لشاطيء البحر (على مقربة من الإدارة المكلفة بالحفاظ على موقع قرطاجة).

عن هذه المساهمات بالأبحاث الآثارية، انظر:

Les Comptes rendus de H. Hurst, «Excavations at Carthage, 1976. Third interim Report», The Antiquaris Journal, LVII, 1977, p. 232- 261; H. Hurst et L. E. Stager, «A metropolitan landscape: the late Punic port of Carthage», World Archaeology, 9 (3), fevr. 1978, p. 334- 346; S. Lancel, «Fouilles froncaises a Carthage. La colline de Byrsa et l'occupation punique (VIIIes- 146 av. J.- C.). Bilan de sept annees de fouilles» CRAI, 1981, p. 156- 193; F. Chelbi, «Decouverte d'un habitat punique sur le flanc sud- est de la colline de Byrsa», Bull. CEDAC (Carthage), 3, 1980, p. 29- 39; F. Rakob (Rapport sur la compagne de travail 1981), ibid., 4, 1981, p. 12- 14.

ملحق للطبعة الثالثة

من بين المقالات والكتب، ذات الأهمية المتفاوتة قيمتها، والتي تبحث في قرطاجة البونية وحضارتها، اعتمدنا بكثير من الفائدة:

S. E. Tlatle, La Carthage punique, Paris- Tunis, 1978; le chapitre de M. Sznycer, «Carthage et la civilisation punique», dans 'Rome et la conquete du monde mediterraneen', t. 2. 'Genese d'un empire', sous la direction de C. Nicolet, Paris, 1978; S. Lancel, 'La Colline de Byrsa a l'epoque Punique', Paris, 1983 (ce petit guide mentionne, en bibliographie, les «Rapports preliminaires des fouilles» menes surce site entre 1974 et 1978).

يمكن أن نقرأ أيضاً المقطعين II و III ـ وهما تحليل أساسي عن تاريخ «الأبوة الفينيقية» والحضارة البونية ـ في كتاب:

F. Decret et M. Fantar, «L' Afrique du Nord dans l'Antiquite des origines au Ve siecle», Paris, Payot, Coll. Bibliotheque historique, 1981

وأخيراً، فإن كراسات «البيليوغرافيا التحليلية لأفريقيا الشمالية القديمة» تشير في اصداراتها السنوية إلى جميع الأعمال والمنشورات المستندة على المكتشفات الآثارية التي ظهرت حتى الآن، بما فيها تلك التي تخص أفريقيا البونية والعالم البوني عموماً.

(Ecole francaise de Rome, Paris, diffusion de Boccard).

مراجع المؤلف

F. Barreca, La Civilta di Cartagine, Cagliari, Fossataro, 1964. (Avec la collaboration d'autres specialistes): L'espansione fenicia nel Mediterraneo, Rome, Centro di Studio per la civilta fenicia e punica- Cansiglio Nazionale delle Ricerche, 1971; df. note 62.

A. Berthier et R. Charlier, Le Sanctuaire punique des steles d'Elhofra a Constantine, Paris, Arts et Metiers graphiques, 1955,

A. M. Bisi, La ceramica Punica. Aspetti e problemi, Naples, L'arte tipografica, 1970; cf. note83.

J. M. Blasquez, Taartessos y los origenes de lacolonizacion fenecia en Occidente, Salamanque, Universitad, 1968 (1975, 2e ed. corrigee et completee).

S. F. Bondi, «I Libifenici nell'ordinamento cartaginese», Atti della Accad. naz. dei Lincei, CCCLXIII, 1971, ser. VIII, rendiconti, clas. di Sc. mor., stor. e filol., XXVI, 7-12, p. 653-661.

J. - P. Brisson, Carthage ou Rome?.Paris, Fayard, coll. «Les grandes etudes historiques», 1973.

«Carthage, Sanaissance- sa grandeur. Les collections puniques des musees du Bardo, de Carthage et d'Utique», Archeologie vivante, vol. I, no 2, Paris, Les publications d'art et d'archeologie 1969.

P. Cintas, Manuel d'archeologie punique, I, Histoire et Archeologie comparees-Chronologie des temps archaiques de Carthage et des villes pheniciennes de l'Ouest,

Paris, A. et J. Picard, 1970; II, La Civilisation carthaginoise- Les realisations materielles, Paris, A. etJ. Picard,1976; Amulettes puniques, Tunis, Institut des Hautes Etudes, 1946; cf. notes 13, 22, 23, 48, 64, 81, 83, 93.

G. Contenau, La Civilisation phenicienne, Paris, Payot, 1949, 3e ed.

J. Deneauve, Lampes de Carthage, Paris, Centre national de la Recherche scientifique, 1969 (reimpression 1975).

R. Dussaud, Le Sacrifice en Israel et chez les Pheniciens, Paris E. Lerox, 1914.

A. Ennabli et S. Slim, Carthage- le site archeologique, Tunis, Les Guides Ceres, 1973.

M. Fantar, Carthage, la prestigieuse cite d'Elissa, Tunis, Maison tunisienne de l'Edition, 1970; cf. notes 46, 56, 62, 81, 86, 94.

J. Ferron, Mort- Dieu de Carthage ou les Steles funeraires de Carthage, coll. Cahiers de Byrsa, serie «Monographies», t. II, Paris, P. Geuthner, 1976; cf. notes 50, 52, 59, 80, 85.

G. Garbini, «I Fenici in Occidente», Stude Etruschi, XXXIV, 1966, p. 111- 147.

A. Garcia y Bellido, Fenicios y Carthaginenses en Occidente, Madrid, 1942; cf. note 70.

S. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, T. I- IV, Paris, Hachette, 1913- 1920; cf. note 44.

D. Harden, The Phoenicians, Londres, Thames & Hudson, coll. «Ancient Peoples and Places». 1962; «The Pottery from the Paraecinct of Tanit at Salammbo, Carthage», Iraq, 4, Londres, 1937, p. 59- 89.

M. Hours- Miedan, Carthage, Paris, PUF, coll. «Que sais- je?», 1964, 3e ed.; cf. note 83.

A. Jodin, Mogador, comptoir phenicien du Maroc atlantique, Tanger, Editions marocaines et internationales, 1966.

G.- G. Lapeyre et A. Pellegrin, Carthage punique, Paris, Payot, 1942.

A. Lezine, Architecture punique. Recueil de documents, Paris, PUF, 1962.

S. Moscati, Il mondo dei Fenici, Milan, Il Saggiatore, 1966; I Fenici e Cartagine, Turin, Unione Tipogragico- Editrice Torinese, coll. «Societa e costume», 1972; cf. notes 10, 19, 20, 62.

A. Parrot, M H. Chehab, S. Moscati,Les Pheniciens - L'expansion phenicienne, Carthage, Paris, Gallimard, coll. «L'Univers des forme», 1975

G. Pesce, Sardegna punica, Cagliari, Fossataro, 1961.

C. Picard, Carthage, Paris, Les Belles Lettres, 1951; Catalogue du musee Alaoui, nouvelle serie, «Collections puniques», I, Tunis, La Rapide, 1957; cf. notes 52, 80 bis, 81, 83

G. Charles- Picard, Les Religions de L'Afrique antique, Paris, Plon, 1954; cf. notes 51, 71,.

G. et C. Charles- Picard, La Vie quotidienne a Carthage au temps d'Hannibal, Paris, Hachette, 1958; vie et Mort de Carthage, Paris, Hachette, 1970.

M. Ponsich, Necropoles pheniciennes de la region de Tanger, Tanger, Editions marocaines et internationales, 1967.

M. Tarradell, Marruecos punico, Tetuan, Instituto Muley el- Hasan, Uuniversitad de Rabat, 1960.

G. Vuillemot, «Fouilles puniques a Mersa Madakh», Libyca, II, 1954, p. 299- 342; cf. note 69.

B. H. Warmington, Carthage, Londres, R. Hale & Co, 1960 (trad. fr. Paris, Payot, 1961).

(Pour suivre les divers travaux consacres a l'Afrique punique, voir les chroniques publiees depuis 1967 par J Desanges et S Lancel, Bibliographie analytique de l'Afrique antique, Paris, ed. E de Boccard)



محتويات الكتاب





. . . استطاع المؤلف في هذا الكتاب اختصار سبعة قرون من الحضارة والحرب وتوزيعها في سبعة فصول، بدأها بلمحة عامة عن قرطاجة، منتقلاً بعدها إلى مدخلٍ مسهب في تاريخ الكنعانيين ووصف عام لطبيعة الساحل السوري. وتحدث في الفصل الثاني عن بدايات قرطاجة مورداً الاسطورة الكاملة عن مؤسستها الملكة «إليسار» ومنشئة هذه المدينة التي مالبثت أن برزت في قوة الامبراطوريات، إضافة إلى وصفٍ دقيقٍ لمرافئها ومبانيها العامة. وفي الفصل الثالث يتحدث الكاتب عن الحياة العامة بمختلف جوانبها السياسية والإدارية والاجتماعية ويصف بإسهاب، معتمداً على «أرسطو»، دستور قرطاجة الشهير في تلك الأيام، وينتقل الكاتب بعدها للحديث عن الجيش القرطاجي الذي صنع أمجاد الامبراطورية، ليسهب بعدها في الحديث عن مجالات الحياة المختلفة التي مارسها أهل البلاد من زراعة وفنون وصناعة. . . وفي الفصل التالي، يبرز مرحلة التوسع القرطاجي في أفريقيا والبحر المتوسط والرحلات الطويلة التي قام بها بحارة قرطاجيون سعياً وراء الثروة في شمال المحيط الأطلسي وجنوبه. منتقلاً بعدها إلى التفصيل في ديانة القرطاجيين. وتتجلى في الفصول التالية روعة الحقبة الدامية في تاريخ قرطاجة وتنازع البقاء بينها وبين روما، وكل ماتخلل ذلك من محاولاتٍ للهدنة والوفاقات التي كانت سرعان ماتنهار أمام طموح الجانبين للسيطرة على المكانة الأولى في العالم القديم، إلى أن يصل الكاتب في وصفه لتلك الكارثة النهائية التي بدأت بما اعتبره الرومان «الحل النهائي»، حيث زالت «سيدة البحار» من الوجود.